

روايات الهلال
سعيدة تاقي
إني وضعتها أنثى
أبو عبدو البغل
مدونة أبو عبدو

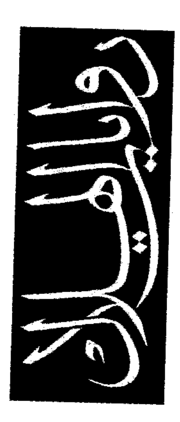
5775

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة. القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
تلغرافيا: المصور. القاهرة ج.م.ع.
تلكس: Telex ٩٢٧٠٣ hilal u n
فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩



مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات: subscription__dep@yahoo.com

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٨٠٠٠ ليرة - السعودية ١٢ ريالا- البحرين ١,٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - اليمن ٥٠٠ ريال - فلسطين ٢دولار

الاشتراكات
قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

باكين

طبع هذا العدد بأحبار باكين

الكتاب: إني وضعتها أنثى

المؤلف: سعيدة تاقي

التصنيف: رواية

الناشر: روايات الهلال - دار الهلال

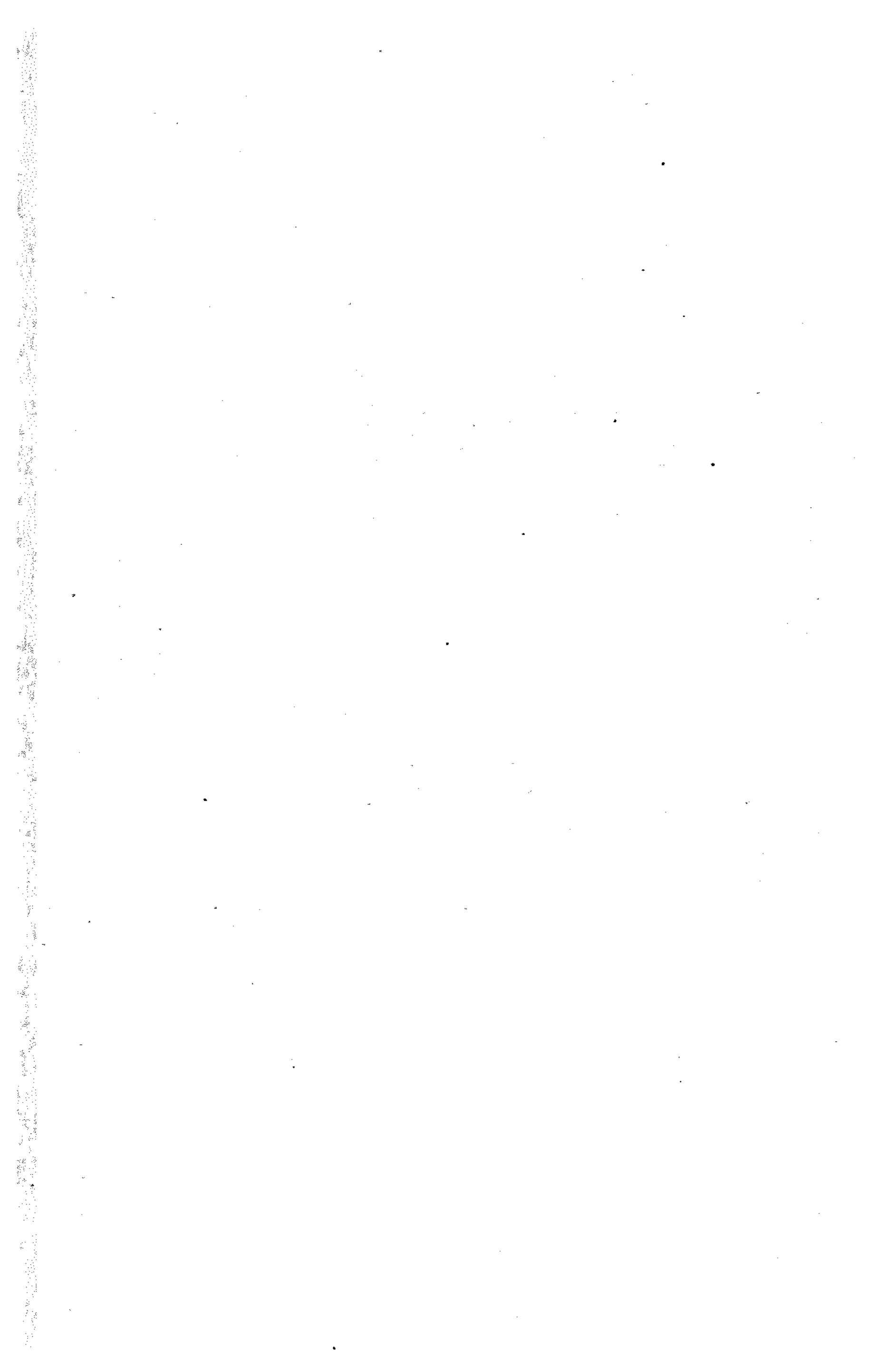
رقم الإيداع: ١٠٠٣٦/ ٢٠١٥

الترقيم الدولى: 978-977-07-1699-1

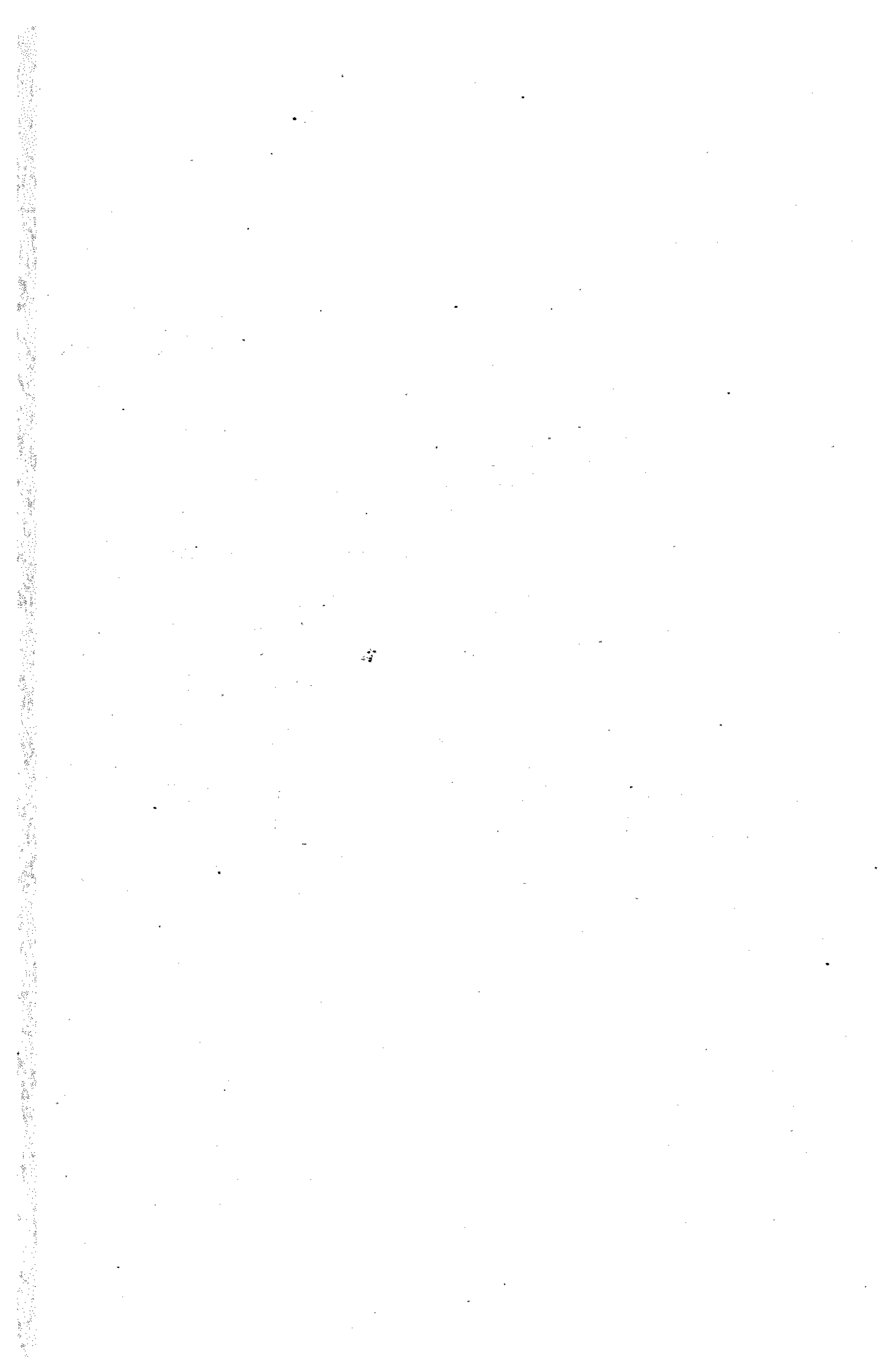
إنّي وضعتُها أنثى

رواية

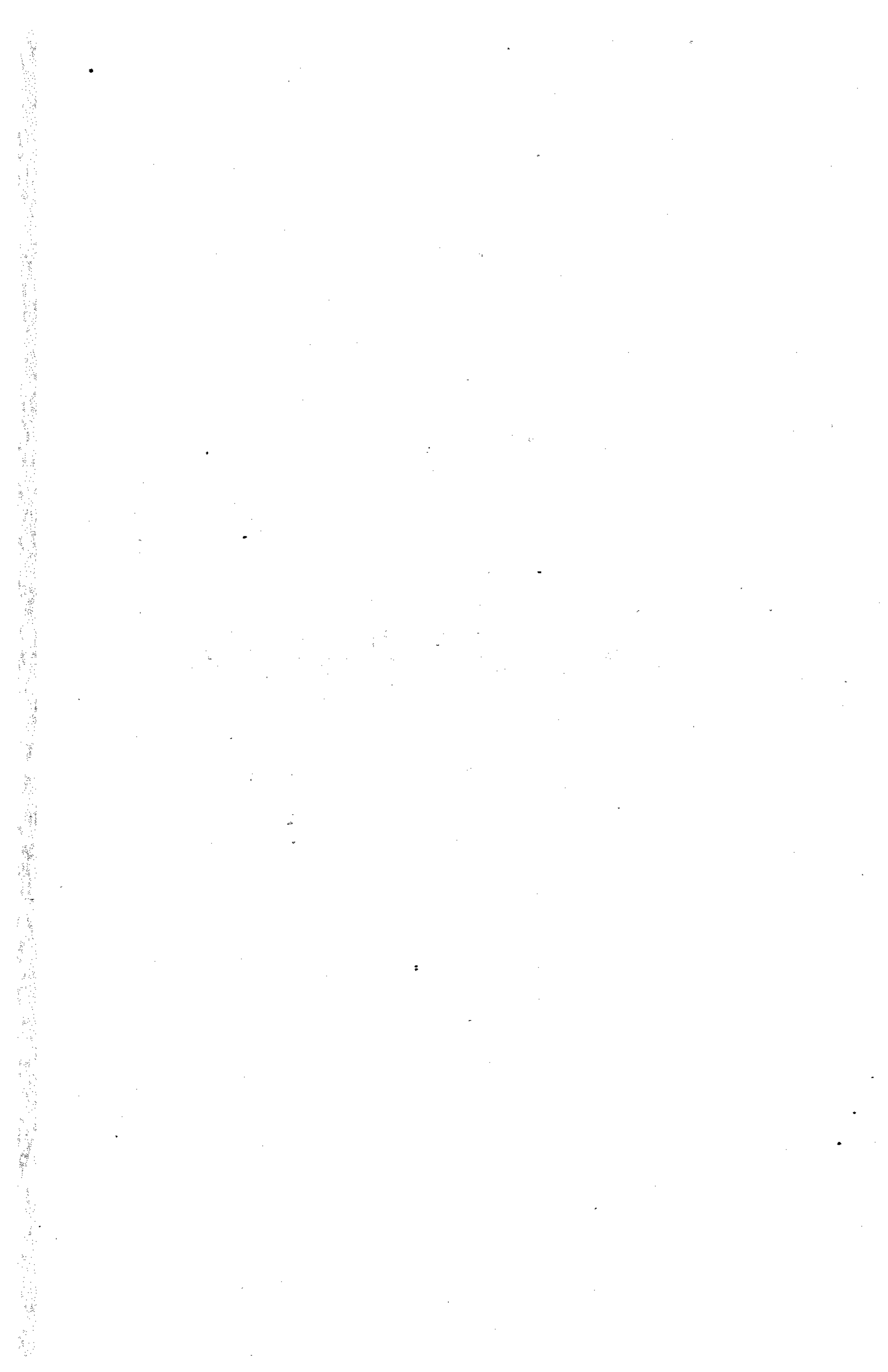
سعيدة تاقي



إلى فاطمة المقدم
جدتي الجميلة الراحلة.
سحبتني طفلةً إلى دروب تطوان البهية.
وتسحبني الرواية إليهما معاً.
في الذاكرة تطوان أنتِ.
أنا مازلتُ طفلةً تَصْبُو..



«قد أكون شيطاناً، لكنني لن أخرسَ»



الورقة الأولى

«لم تملك إلا أن تستيقظ باكراً فجرَ ذلك السبت. كان العبث دوماً يدفعها نحو المزيد من الجموح. لا تنتظر منه شيئاً، تدرك أنّه منذور للوفاء يصلُ يومها بأمسِها دون ترفُّقٍ بالخيبات المتلاحقة. رصيدها الذي تباهى به ليالى الحلم ليس ما كان لها منذ أكثر من خمس عشرة سنة، بل ما كانت له. جنون آخر لا تُعرضُ فيه عن رزانة مصطنعة، بُعَيْد بلوغها الثلاثين عاماً.

تلك حياتها، ولهم أن يلوكوا الفراغ الذى لا يملكون غيره. أما الامتلاء فرحيق أزهارها الذى لا تبدِّد طيبَه فصول السنة، مهما تطايرت الأوراق وذبلت الأغصان.

أكانت متهوِّرة؟ قطعاً سيقولون ذلك وأكثر. لكنهم لم يعلموا حقّاً من تكون. لم يعرفوا أنها كانت صادقة حدَّ محاربة كل أحابيل الكذب التى لم يروْها، لأنها كانت ببساطة من صنع أفكارهم الزائفة. لم ترغب يوماً فى خيانة ذاتها مثلما يفعلون أو يدَّعون أو يتفاخرون، فخانتهم جميعاً بسبق إصرار وترصد، وهم ينظرون».

كانت ورقةً واعدةً برواية تحكى القصة كاملة دون أى تعديلات أو إضافات، أو هكذا تبدو له وهو يطالعها من جديد. ورغم أنّ الحكاية لم تكن حكايته إلا أنه قد ألزم نفسه بكتابتها. وكان فى كل مرَّة يدبُّ بين أنامله ذلك

التوق للكتابة ليأخذه نحو وجهات حكى أخرى، يتساءل ألم يحِن وقتها فى السرد، ألم تنضج بعد بذرة الحكى بما يكفي، أمازال فى العمر مزيد انتظار ومراوغة وشغف؟.

اليوم لم تخطر الأسئلة أمامه وهو يقتحِم البياض. شرع فى رسم ملامح مَهْدية دون تردُّد أو وجل، وكأنه مدفوع بحافز أكبر من قيود اللحظة، وأقوى من مثبِّطات الرغبة، وأعلى من سقف الآمال.

لا يملكُ وهو يراها تسيحُ على الورق بكامل أناقتها لتحلِّق ببهاء الأطياف المستعارة، إلا أن يندهش لفيض الزَّهْو الذى يغمره كلما فكَّر فيها. يشعر أنها قد عادت وتلبَّستْ حروفه كى ترقص من أجله رقصتها الأخيرة، أو لكى تشاركه فى رقصته الأخيرة. يشعر بالتباس ذاتى غريب لا يفلِحُ فى فهمِ أبعاده أو استيعاب آثاره لكنه يشطُره نصفين؛ شطر هو له بكل إدراكه، وشطر هو لها بكل نزْغِه. يشعر أنه هى أو أنّها هو. لا فارق فى المنطلق مادام المقصد يجمعهما بلسان واحد يروى الأحداث ويمنعها من الذبول. أكانت الورود التى اقتناها من أجل الحكاية قد ذبلت فعلاً، قبل أن ترتوى بالحرفِ الأوراقُ الأنيقة التى حجزها لروايتها منذ زمن؟

.. وكأنَّه على افتراض موعد معها فى زمن ما.. فى ساحة ما.. وسط مدينة ما. لا يعرف تلك الساحة ولا يعلم اسم المدينة. لم يضع لها بعد وجوداً مادياً يستوعبُ الدهشة التى تداعبُ أنامله كلما استدرجته الحروف نحو الأمام. لم يفكِّر فى هذه الورطة الإبداعية من قبل بما يكفى من التدفق. هذا ما يهتدى إليه الآن بحسرة. ينقصُه تدفُّق يليق بالسيل الذى يستدرجه نحو كهوف للمتعة، لم يعبُرْها سابقاً فى مدارج تيهه السردى.

كيف للموعد أن يجمعهما معاً على الورق فى رواية هو كاتبها وهى

بطلتها الأثيرة؟ كيف له أن يرسمَها لوناً رائقاً وشكلاً فاتناً وصوتاً آسراً ودفئاً شهياً.. ثم يستوى فى مقابلها على الطاولة المستديرة الصغيرة نفسها، بهدوء كامل ورزانة مفرِطة، ليتمعنَّ فنجان قهوته الساخنة والبخار الطيِّب يلفحه ببعض ما تخفيه جوانحه من احتراق آثم؟ وكيف له أنْ يرسمها بإصرار البدايات الجميلة، وهو يعلم أنّ تلك البداية الجميلة لم تكن له ولن تكون؟ بل كيف له أن يدعى الحياد الإبداعى، وهو يعلم علم اليقين مدى اغتساله بفتنة الغواية قبل الكتابة بزمن؟

يعَرفُ أنّ مَهْدية لن تكون لهُ، ولو فى خُلوة الورق. ويعلَمُ أنّ المصائرَ محدَّدة مسبقاً بمزيد من الشجن. ويعلَمُ أنَّ الحكايةَ ستُحرِقُ بلهفَتِها ما تبقّى من أنفاسه، قبل أن تأنسَ إلى السُّكون.

ليس للَحرف أنْ يكون سلِساً منقاداً فى لعبة رسمَ شكلها الخارجىّ بكل وعى وتفنُّن قبل سنوات، دون أن يرغب فى أن يكون لاعبَها الأول. كانت تفاصيل ما وقع منذ عشرين سنة مخزَّنة فى ذاكرته بإتقان، لكن رغم ذلك يلوح الحرف منقاداً لخطةٍ لم يضعها من قبل. ولا تشبه فى شىء خطته أو خطاطاته.

إنها هو. ذاك ما يدركه الآن. لم يعِ قبل أن ينفتِح باب السرد أنّ المصراعين سيقفَلان عليهما معاً فى بدء الحكاية. كان يعتقد أن الرواية له أو ستكون له، ملكيةً كاملة الحقوق مستوفية الشروط. يكتبها بلحمه وعرقه ودمه، قد يغدقُ عليها بعض ذاته أو جلَّ ذاته. لكنه لن يتجاوز ذلك. لن يلِجها إلا برداء سارِده، يحكى عنها هى تلك الفاتنة الحزينة. وللسارد فى الداخل أن يحبَّها إن شاء، وله أن ينسُج وفق هواه ما يراه ملائما لمسارات الحكاية، أو له أن يمحو وفق مطامحه ما يراه مُجاوِزاً لحوافز الحكي. لكن البداية ليست طيِّعة وفق ما أراد. والحرف يبدو مراوغاً مناوراً لا يُسلم نواياه بوضوح.

يكتشف بغتةً أنّ عليه أن يعيد كتابة الحكاية وهو يكتبها.

يكتشف بغتةً أنّ عليه أن يعيد اكتشاف ذاته وهو يرسُمها.

للكتابة حين يتّقِد أوارها أنْ تنزاح بملء إرادة الحرف عن كل مخطوط سالِف.. لها أنْ تبتَدع جنونَها أو منطقها.. سكينتها أو صخبها.. اعتدالها أو انحرافها... وله هو، الكاتبُ المبدِعُ المُحترف، أن يراقب الأوراق تطوى بعضَها بجموح، وهي تمضى على سجيتها قريباً من إشرافِه بعيداً عن سُلطته. ليس فى الأمر أىُّ تنازع للمصالح. كان مندهشاً من امتلاك الكلمات لكل تلك القدرة على الجرى دون حواجز تعترض مسيرها. وكان مذهولاً من كل ذلك الحكى الذى اندلع دون تدخله. استوت الحكاية بشكل مغايرٍ لما أراده لها. ولم يزعجه ذلك التمرُّد الذى أعلنه عليه سارده. كان فى العمق منتشياً من الثورات الصغيرة المتتالية التى كان يتعثّرُ بها داخل حدود مملكةٍ، كان يعتقِد أنها له وحده. لم يراجع الأوراق، بل تركها تسرِف فى الخيلاء الذى سربلتْه بأنوثة أبهرته، وما كفَّ عن متابعة إدهاشاتها. وعلى غير ما تلقّى تلك الصفحات المتوالية، كان إفراطُه فى الحياد موضع استغرابٍ ما أمكنه تفادى نكساته. أتكون الرواية قد أصابته بلوثة لا يفهمها؟ أأفلتَ منه نبعُ السرد كلياً أم هو السارد يشاكسه إلى حين آخر؟ أيكتبُ فعلاً ما يكتبه، أم يعتقِدُ نفسه كاتبه لأن الورق المخطوط يوضع فى غفلة أمام عينيه؟

ما عاد فى وسعه أن ينتبه لما كانت الحكاية تعتزمه من مسارات جديدة بعد أنْ اقتطع شروده انسيابَ حروفها، كان الحكى موقوفاً وصفحاتُ الرواية على سطح المكتب تنتظره باستسلام مثير.

«لم ينظروا إليها إلا عبر وسيط الجسد. كانت دوماً بالنسبة إليهم جسداً يكبر وفتنة تزداد وخوفاً لا سبيل إلى درئِه. لم يعرفوا أنها كانت تخفى بين ملامح جسدها الفاتن روحاً لا سماءَ تظَلِّلُ أجنحتَها. وكان توقها للتحليق أهوجَ يستبِدُّ بعمرها الفتى وغدها المقبِل.

أكان مخاتلاً ذلك الغدُ ككلّ الأحلام الجميلة. يراوِغُ ليلها، ويمضى سريعاً مع أول شعاع شمس يطأ غرفتها الأرضية بعيداً عن ضجيج إخوتها فى الطابق العلوى، وقريباً من نبض المطبخ جوار البهو الداخلى.

ما عادت طفلة. إنها تعى الآن جيداً لعنة الأنوثة التى تسلَّلت إلى خلاياها، وتملَّكت كل معالِم جسدها. لم يكن الأمر فى يوم ما أكثر وضوحاً. إنها حتماً لعنَةٌ لا سبيل إلى التخلص من شرِّها، ولا علاج يقلِّلُ من أضرارها».

يدرك واللوحة تواصل ألوانها أنَّ الخيوط التى تحرِّك الأحداث بيديه، وإن لم تكن تحتكِمُ إلى رغباته. انهارت كل شكوكه السابقة. للرواية كاتب يقودها فتنقاد إلى براعته بفطنة مدهشة، تفضى إلى استشراف لا يجاوِزُ الحرف الحالى إلى الذى يليه. يحكى دون أن يدرى ما الذى ستحمله الأسطر اللاحقة من انبثاقات جديدة. يحكى ويترك للذهول أن يسوقه مثل قارئ انفتحت أمام ناظريه دفّتا كتاب، ليرى صورته منعكسة بكل تفاصيلها بين الأحرف المتعانِقة والأسطر المتباعدة. يحكى ولا يدرى أيحكى عنها مثلما كان يريد للحكى أن يمضى وفاءً لا ينى يعلِنُه فى كل الملامح التى رسمها فى

رواياته عن أخريات، لم يكنّ إلا انكسارات شاحبة لظلالها المتوهجة، أم هى تحكيه بصوتها الأخرس وغيابها الصّارخ؟

ليست هذه الرواية فيما يبدو له الآن إلا فرصة سانِحة للتأمل فى زمنٍ لم يستوعبْه واقعِهما معاً. قد تنجح فى فضّ الالتباس الذى جمعه بها فى شعره ونثره منذ قابلَ الابتسامة المرسومة فى عمق عينيها بكثير من ألوان الحيرة، فى لوحةٍ سكَنَتْه دون أن يمتلكها. قد تفضى به دروب الرواية إلى إسكات ذلك الصوت الهامس الذى يحثُّه بين الحين والآخر، على البحث عنها فى "أصِيلة" تلك المدينة الصغيرة التى أخبره صديقه التشكيلى عزيز أنها تستقرُّ بها، منذ أن غادرت مرفأها بمدينة "تطْوان". لكن قد تفضى به الرواية كذلك، على هوى السارد الذى يبدو ماكِراً، إلى لقاء يواصل معها ما لم تُتِحْه لهما الحياة خارج أسوار النص. فالروايات الممتعة قد تكون هى تلك التى لا تسمح للداخل إليها بفرصة التجول بين الأسطر إلا وهو يرتدى بمزيد من الوضوح والسُّمو ملابسَ تنكّرية تليقُ به وتكشِف له، وهو يشاركُ القراءة أسرارَها، طُهرَ ما لم يحدث باسم الحياة على هامش النص، وزيفَ ما حدثَ باسم الحياة فى متونِ الواقع الكثيرة.

أكان بإمكان السارد أن يسمعه وهو يناجى فى ليالى خلوته اللوحةَ الوحيدة التى تعانِق ملامحَها فى بيته... أكان متلصِّصاً على وعوده لتلك اللوحة التى يحفظها فى غرفة مكتبه بعيداً عن أعين الفضوليين الذين سيتساءلون حتماً: من تكون تلك الجميلة؟

هى نسجٌ على متن الواقع بكثير من الخيال. هى رسمٌ يستفيض فى توشيحٍ ثانٍ للبياض الهشّ بألوان لم تكن شفافة. ويظنُّ بصدقٍ أنّه قد اختار الألوانَ بعناية فائقة واستقلال مبدِع هذه المرّة. لكن لوحة الحُروف التى تكشفها الأوراقُ وقد أزاحها بعيداً عن متناول يده كى لا يعيق فضولُ

القراءة مواصلةَ الكتابة بالنّهم ذاته، لا تشبهُ في شيء ما كان يدّخره لِطيف مَهْديّة من تقاسيم فاخرة. كانت روايتها دوماً مشروعاً مؤجّلا يدفعه نحو الأمام بكثير من الرهبة والشّغف. ويسرِع الخطى نحوه بكثير من الألفة واللهفة، خشية أن يضيع منه وسط انشغالات الحياة. ما كان يجرؤ على نسيانها. لكنه كان يتهيّبُ كذلك أن يعيد رسمها بشكل باهت، يُفقد الحُلمَ ألقَه والتوقَ بهاءه.

وهو واقعٌ على أعتابِ الخيال يواصل الحياةَ بإبداع العزلة التي تُتقنِه ولا يصطنعها إلا لإفراغ ما في جعبته الملتهبة من نزيف سردي لا يخرج منه سالماً على الدوام.. وكأنّه في كل مخطوط جديد لا يستجدي الحبرَ ليتابع الكتابة، وإنّما يلاحِق قطرات دمه المحتبِسة. فترتوي الأحرفُ وتغدِق على التاريخ المَروي حكايات مختلفة، تغسِل ما علَق بأهداب الحقائق من كدر لا تتنبّه إليه أسفارُ المؤرخين.

كان يحفظ لها دوماً في مخيِّلته دورةَ فصول أربعة متعاقبة لا تتوقف عن التجدُّد فصلاً بعد آخر، وهي الأجمل في كل فصل. لكن الفصول التي شرع في كتابتها لا تتقدَّم نحو الأمام بما يهفو إليه من إيقاع يضجُّ بالحياة. سُكون الموسيقى يحثُّه على تغيير الحركة أو تغيير السوناتة. لكن السارد المراوِغ لا يستجيب لأفكاره المندفعة بقوة الدَّفق الإبداعي، يترك الكاتبَ يعاني على حواشي الحيرة والانبهار، ويستأثر بمفرده بمتن السرد والغواية.

«كانت لها أسئلتها الصغيرة الخاصة التي كانت تخفيها تلك الابتسامة الساحرة المرسومة بشكل متواصل على تفاصيل ملامحها الرقيقة. كانت تمارس الأسئلة بإصرار الألعاب التي

كانت تصطنعها سراً. كانت تعلم أنّ لعبتها الجديدة هاته ستُرعب أمها المسكينة، وتقذفها في جحيم القلق مرةً أخرى. فقد كانت أسئلتها تختلف عن أسئلة الصغار أقرانها، أو كانت على الأقل تسبقهم بزمن طويل.. زمن لا يمكن حتى لأمها أن تدركه، وإن أدركته لا يمكنها أن تستوعبه، وإنْ استوعبته لا يمكنها أن ترأف بتلك الطفلة الصغيرة، لأنها لا تُنتِج أسئلة ملائمة لعمرها. إنها أسئلة لم تخطُر يوماً على بالها وهي الأم الخبيرة بأسرار الحياة فكيف للصغيرة أن تفكّر بتلك الأمور، وتجرأ على طرح مثل تلك الأسئلة؟

وكانت الأسئلة تكبُر وتكبُر في غفلةٍ من الجميع دون أن يفطِن أحد إلى أنّ سنوات عمرها كانت تسابق تفكيراً أعمق مما يستطيعه المنعّمون بالنُّضج في وسطها.

وكأنه كان يعرفها قبل زمن الأنوثة المتوثّبة والورود اليانعة. وكأنه يعرفها قبل الشهيق الأول. يدرك أنها لم تكن جنيناً يستقبلُ الحياة وسط الظلمات المتوارِية باستسلام العاجزين. كانت بلا شك فى تلك الأشهر الغافية تراكِم الانطباعات والأسئلة والمشاريع. وكانت لها أفكارُها منذ تلك العزلة الأولى. لَم تكن الأفكار مرتبطة فقط بذلك الدَّفق الدافئ الذى يغمرها من جميع الجوانب، أو بتلك الأصوات التى تبلغها هادئةً حيناً وصاخبةً حيناً آخر، أو بتلك الروائح التى تصلها ولا تدرى أتستَلمها عبر أنفها القابِع أسفل الماء يحوم ويحوم، أم عبر ذلك الحبل الطرىّ الذى يكبِّلُ وسطها ويشدُّها إلى الهالة الشفافة. لم تكن فيما يعتقد مستكينةً إلى الغياب الذى يلفُّها حسب

ما يظنون وسط أحشاء الأم. كانت منذ تلك اللحظات السرّية ترسُمُ لمستقبل الأيــام الأحــلامَ التى ســترتديـها، والآمـال التى ســتـقـطفـهـا، والمـآل الذى ترجو تفاديه، والمـصير الذى تزمِع مراجعته. كانت فى توسُّطها بين حياتها وحياتهم ترى أكثر مما يرون، وتنصِت أكثر مما يسمعون. لم تكن الحواس تخدعها مثلما تخدعهم، فيتوهّمون أنّ الرؤية تتّضح كلّما كان المرئى أقرب، وأنّ السمع يحدُّ كلما كان القرعُ مُجانِباً للجسم الأصمّ. كانت الرؤيا حصيفة والإنصات عميقاً دون وسائط متدخِّلة. لم يكن اعتدالُها إزاء تطرُّفهم مكْمَن تميُّزها، بل كان اختراقُها الحيوى لِنَسْغ الحياة وهو يدعم عضُدها، ساعةً إثر ساعة ويوماً بعد يوم وأسبوعاً تلو أسبوع وشهراً عقب شهر، مُعادلَ الكَشْف الذى كانت ترتقى مدارِجَه ببطء وثبات. كانت فيما يؤمن هو روحاً كاملة النضج والوعى والبصيرة، تَلِجُ الحياة الدُّنيا بصرخة الشهيق الأول، ليمارسَ الكَوْنُ اكتمالَه بأنـوثتـهـا العذبة. وتواصِل هى الحياةَ برَوْحٍ متسامٍ بين كافِ الروحِ الكاملة ونونِ الجسدِ النّاقص.

أكان يعتَدُّ لأحلامها مهوى يليق بالأساطير؟ أكان يسدِّدُ إلى ضُعفها، بنزاهِة الحُكماء، الطعناتِ المرصودة للأبطال الخارقين؟ أكان يشفقُ عليها من الخيبة لذلك شيَّد لأيامِها آلاماً لا تُسعفها الآمال؟

بالتأكيد هو يدرك أنّ الخيبات قد صنعت نجاح الإنسان فيها، وأنّ الألم كان أملَها فى التفوق على التفاصيل المغرِقة فى البؤس. وما كان لَهُ أنْ يكونَ بريئاً فيما رسمه لجناحيها من أقفاص، أو فيما كالَه لإيمانها من أشراك. كانت الشخصيةَ الواهنة بين يديه. وكان الكاتبَ الذى يتقِنُ تقليمَ أظافره قبل بدء الكتابة.. ويُحرِّرُ بعدها أحرفَه من أى سرجٍ ينكأ مواجِعَ الذكريات.

للرواية قدران لا يُسلْمان التداخُل إلى مسار واضح. يحاصِران القارئ بمدخلين مختلفين لسرد واحد.. أو لما يُتوهَّمُ أنّه سردٌ واحد. يصرّان على شدِّ حبالِ الحكى المتشابكة فى عُقد عديدة من الطَّرفين الظاهرين، فلا يتركان لباقى الأطراف فرصةً للبيان أو للبروز. يكشفان بما لا يدعُ مجالاً للتأويل أنّ الحكاية لا تخصُّهما معاً على سبيل النص المكتوب فحسب، بل تخصُّهما من منطلقات نوايا مبيَّتة ليست سريرتُها بيضاء بياضَ الأوراق بالضرورة.

الكاتب يستسلمُ حيناً لقدره المتعثِّر. يظهر ما يكفى من الانشغال بالأوراق المتلاحقة. يتابع مَحكيها. ويتمتم بكلمات تعبِّرُ عن اندهاش مَن صعقتْه الحقائق من كل جانب، بما يفوق قدرةَ خياله على التوهُّم. ويواصلُ بعبثِ المستمتعِ شهوةَ الانحناء أمام الإغراءات المكثَّفة. لكنه بغتةً، ودون أيّ إشعارٍ ينبِّه أو يُنْذِرُ بما سيأتى يرهِق كاهلَ السارد بضربات متوالية، يعلِمه فيها بأن قوّاه المخبوءة التى أبقاها على جوانب الحكاية المَرْوية مصونةً عن اللّغو ستنقل السرد إلى مضمار آخر، ستشيِّدُ منعطفات السرد الذى يرتضيه لروايته الآسِرة، ستبنى مجد الحكاية التى لم يكتُبْها بعد.

كان كلاهما يقيسُ رزانتَه بالنظر إلى تهوُّر الآخر. وكلٌّ منهما يظنُّ نفسه الأحقَّ بنقل الأحداث. ويتيه مبتدأ الحكى بين أخبارهما المتضاربة. وهناك غير بعيد عنهما، خلف التيه بقليل، يتلصَّصُ قارئ انفلتَ من يده خيطٌ كان يعتقده موصولاً بقوة إلى فقرات الرواية العمودية. يتلصَّصُ بنهمٍ على ما تحمله الصفحاتُ اللاحقة من شخصيات وأحداث، لعلَّه يظفر بما يحثُّه على تجاوز الالتباس الذى يُربِكه.

أكان من المجدى أن يتجاذب الكاتب والسارد كلَّ الخطوط ويتركا مهدية الطفلة بمفردها وسط تلك الصفحات التى لا تريد للحكى أنْ ينطلق نحو الأمام، إلا والخطوات المبتورة تنهك بقدريْها المخاتليْن صبر القارئ وعمرَ الطفلة وحِبر الرواية؟

انسلالاتُ الضوء التى كانت تداعِب من خلف النافذة الزجاجية مصباحَ المكتب أعلمته بأنّ الصباح قد أشرف على غزو ليلِ المدينة. فيكتشف، والرواية تجد لَمحكيها أخيراً الصورة التى يرتضيها، أنّه مجبَرٌ على الهروب نحو سريره كى ينْعَمَ ببعض الراحة فى الساعات القليلة المتبقية قبل الاستعداد لموعده بمعهد "سيرفانتيس"، حيث سيكون له لقاء مفتوح مع قرّاء رواياته باللغتين العربية والإسبانية. يومٌ طويل ينتظره فى هذا الخميس بتواريخه المتعانقة تحت ليل هذه المدينة البهية.

مهدية تصر على احتضانه بحكاياتها الآسرة داخل الرواية.. والأيام الثلاثة المقبلة تدّخر له برنامجا مشحوناً بظلال الوفاء والتمجيد؛ الترحُّم على أرواح الأموات بالمِعارة، والاستعداد للهيلولة وقدّاس "حى القدس" بالمَلاح تبجيلاً للربِّى "العادل" إسحاق بن الوليد، وزيارة البيَع الأخرى وإحياء حفل النادى الثقافى اليهودى بشارع مولاى العباس، وزيارة مواقع أخرى عديدة بالمدينة.

كان عليه هو الآخر أن يستعد للذهاب مثل ذلك الليل الذى رافقه وهو يقتنص ساعات حضور مهدية للمرة الأولى، منذ خمس سنوات من التأهب والموارَبة.

الورقة الثانية

«البقاء فى المنزل ليوم كامل كان يشعرها بالاختناق. لم تكن تستطيع أن تلزمه إن لم تقتضِ الاحتياجات الملحة مصاحبةَ أمها فى جولة للتسوّق. وما كان مسموحاً لها بأن تشتكى الاختناق، لأن ذلك يعني الدأبَ على الفرار خارجاً بحثاً عن متنفَّس أكبر. وليس أمراً مستحباً أنْ تشارك الذكور ملاعِبهم المفتوحة.

كانت تدرك دوماً ما تضعه أمها أمامها من محاذير تقف عند عتبة الباب الخشبى الضخم الذى يحيط ببيتهم وبيت جيرانهم المقابل. كانت الفسحة الداخلية مكانها الخاص. تحت شجرة التين الكبيرة كانت تفترش لبدة خروف مضى أضحيةَ عيد، وترك تذكاراً له تلك القطعة ناصعة البياض، أمعنت أمها فى صقل جلدها وتنعيم صوفها. وكانت لها خالصة تلك اللبدة الصوفيّة تسحبها خلفها أينما تنقَّلت داخل فضاء الباحة المستطيل. لكن سريعاً ما تضيق بها الفسحة والسماء التيِ تغمزُ لها من فوق صحن المستطيل الفارغ، فتلفي الجنوح يشدها إلي توقُّع عقابٍ آخر سينتظر أوْبتها بفيض قلق وغيظٍ وخوفٍ، لم تفهم يوماً كيف كانت أمها تنجح في حفظه جانباً بهدوء لا تظهره لأبيها أو إخوتها. لكنها تسحبه من مخزونها بكل عنف بمجرد أن يلوح طيف مهدية بباب المطبخ».

أكانت تدركُ أنّ الهروبَ فعل وجودٍ مع سبقِ حرِّية وإنسان؟ أكانت تعى أنّ انتفاض الطفلة فيها أمام الباب الخشبى الضخم بدءُ إعلانٍ لن تُحمَدُ أصواته ولا سكناته، ولن يقبل الملتحفون بصمتِ العفّة العوائقَ المُحتملَة التى قد يعنيها انزياحها عن حُصون الهِداية؟

قد كانت ظمأى فحسب..

والارتواءُ كان سبيلَ براعمِ الطفولة للإزهار.. والأُسرة ما كانت بها حاجة للريّ. ورغم أن النبع الزلال لم يكن ممنوعاً، لكن أنْ ترِدَه دون أنْ يحمِّلوها سلفاً القِراب وأمر السقاية ووِرْدَ التحصين، كان إظهاراً للطيش دون هوادة ومكراً لا تستقيمُ به الحياة فى وسط طيِّب.

على مقرُبةٍ من الأوراق كانت رائحةُ الدخان المنبعث داخل الغرفة تنبئ بحريق مشتعل بشدة، تواريه بين الأضلع حرقة أحدهما.. وهما اثنان، لا صوت لأولهما إن لم يحكِ الثاني. ولا حكي للثانى إن لم يُتح له الأول فسحة السرد. أكان السارد يدخِّن فى غفلةٍ من الكاتب..

من يدرى؟ ذاك امتياز يخصُّه وحدَه ذلك الكائن الورقي. ولى أنا فى عُمق دمى المُنشَطِر بين أهواء السَّرد أن أقاوم ما استطعتُ تلك الرغبة المحمومة فى احتضانها بين أصابعى لامتصاص لهيبها وإطفاء لهيبي.. فما تبقّى من عمر يرهقه صدرٌ أسود أُفرغَ من نصفه، ويكابد للبقاء برئة واحدة..

أم كان الغيظ المكتوم يرخى ببعض احتباساته.. من يدري؟ ليس لى إلا أن أواصل سرداً اعتزمته لروايتي، فلن يطيب دونه لقلمى مجاورة سارد أو استدعاء راوية.

«كم كان يحلو لها أن تُحكِمَ إغلاق الباب الخشبى الضخم من الخارج دون صوت مسموع.. وتمضى. لم تكن

أزقة المدينة العتيقة تخلو من زاد متجدِّد للغواية.. تقتاتُ علي جرعاته المتدفّقة بكل حواسها المتوثّبة لمعانقة العالَم. الباعة القادمون من القرى الجبلية المجاورة للمدينة منتشرون فى الزقاق وبجوار الأبواب، قاعدون أو واقفون، رجالٌ ونساء يتبادلون الأحاديث بحرية وعفوية، ولا عوائق تمنعهم من الضحك بقهقهات يختلط فيها الأجش بالناعم. قبعات القش بحواشيها الزّاهية لا تفارق الرؤوس، حتى غياب الشمس. الرجال يرتدون جلابيبهم الشاحبة أو الملونّة، والنساء تلفُّ أوساطهن فوق أزيائهن المختلفة المناديلُ المخططة بالأحمر والأبيض أو بألوان أخري.. المناديل تشاكس البصر بشكل تغدو به كل الأزقة لوحات للألوان الزاهية تنبض بالحياة. الكل ينادى على بضاعته الطازجة التى قدم بها من القرية ليعرضها فى المدينة، فيختلط على أذنيها المندهشتين التقاطُ الأرقام التى تعلن ثمن ثمار البرقوق والتين والثوم والبصل والحامض والبيض والفجل والبقدونس والكزبرة والنعناع...، إلى جانب الأوشحة والملابس الداخلية والجوارب والأثواب والأغطية والأوانى المنزلية والحلويات والفطائر... لم تكن الدكاكين المفتوحة تستقطب ما يستقطبه الباعة الموزّعون علي طول الأزقة. وكانت تتنقل بين الأفرشة المبسوطة علي الأرض والسّلال المصنوعة من القصب اللين الموضوعة فى جوانبها وكأنّها داخل سوق كبير.

لم يكن يروقها سوق باب النّوادر الكبير المشيَّد بكثير من الطوابق المنتظمة والدرجات المتصاعدة نحو الأعلى والآجر الأحمر يلوّن المسارات، مثلما لم يكن يروقها أن تستدرجها أمها يساراً إلي سوق الخضر والفواكه والأسماك والدواجن الذي يجاوره. كانت متعتها الخوض يميناً فى دروب العيون وحومة السوق الفوقى، أو التسلق نحو دُيور بالِيضُوس، أو الغوص وسط أزقة باب التُّوت.. أو التجول في وِجهة أخرى بين أزقة الملّاح والانعطاف خروجاً إلي الطرّافين ثمّ العبور إلى سوق الحوت القديم وعمق الغَرْسة الكبيرة.. أو فتح مسار آخر يلتوي مع المَصْدَع ليخترق الأزقة نزولاً إلى باب العُقْلة. كانت الأزقة تجتذبها إلي ما تُبدِعه من أشكال مختلفة للحياة. وكان التاريخ القديم يطلُّ عليها من الزوايا متحدّثاً باسم حِرَف ومهن عديدة تركت عناوينها تذكاراً للمكان، فكانت دروب الطرّافين والخرّازين والحدّادين والنيّارين والصبّاغين» ...

قد تكون الوجهاتُ المحدَّدة سلفاً للخطْوِ الأكثرَ أماناً والأقل خطورةً، لكنها ليست الأكثر متعة، وليست الأقل رتابة. وكثيراً ما تضيع بين تفاصيل الأمن مفاتيحُ الحرية. وهى كانت تدرك الفارق بين صفعِ قلق الباب وارتياد المغامَرة، وبين التمسك بأقفاله الموصَدة والتبرُّك بمرْويات العجائز. لم تكن تقصد أن تتحوّل إلى ثائرة ضد حدود المكان التى كانوا يصرّون عليها بكثير من اليقين وبقليل من الوضوح.. لم يعنِ لها البابُ إلا الحلمَ بارتياد فضاء

يحدُّه الخشبُ بإصرارٍ ملُولٍ، ليضعه على مفاتن الدهشة بعيداً عن متناولِ قدميها الصغيرتين. وما كانت القدمان لتَعجزا عن الاسترسال فى عدّ الخطوات الفاصلة بين الرتابة وبين الجِدّة، وهى تمضى هناك حيث يواصلُ الآخرون الحياة بصخب وبساطة ومتعة. العَرْضُ والطَّلبُ سوقٌ مفتوحة لكل احتمالات البيع والشراء، لكنها على الحواشى تفتحُ دون قصدٍ متعمَّد متاهةً دون مداخلَ للمغامرة ودون مخارجِ للحُلم.. كان يكفيها أن تترك لقدميها الأرضَ تغزوانها برقّة وبأناقة السؤال الذى يشرِف على العالم بشكوكه السرِّية. ولم تهتم كثيراً لما يجرى بين وصلات غيابها من مخاوف ومفاوضات ومكائد وتوعّدات..

حين أفكِّرُ بصوتها المختنِق أشعُر بأنّ الخطوَ الحثيث نحو الحياة لم يمنحْ أحرُف دهشتها الصغيرة الورودَ التى كانت ترجوها برقة الأنوثة. تنامت فى غفلةٍ منها بين حدائقها الغضّة أشواكٌ سامة. ولم ترتَوِ إلا بدمع جارٍ، جرَف شهوةَ الأرض إلى بلَلٍ حين كساها أغرقَها، وفاض بباقى أحلام السكينة والصفاء الموعودة.

«وتترك الباب موارياً مثل استعارة لا ترغبُ فى اكتمال المعنى؛ تناشد الضوء إقبالاً أكبرَ، وتسأل العتمة استسلاماً أهدأ. وككل المجازات الجامحة لم يكن البابُ يطيقُ العبور فى صمت، ككلِّ المشاغبين المشاكسين كان يصاحبُ مرورَها المارق بِصَرير لا يُغفلُه سمعُ الأم المتوجِّس باسترسال لا يتعب.

أكانت تخشاها أم تخشى عليها؟ لم تفلح مهدية يوماً فى فهْم ذلك التوجس الذى لا يعرف حدوداً أو نهايات. ولمْ تمعنِ

كثيراً فى مجادلة أمها لكى تصْرفها عن هواجِسها. كانت تلك المسالك قد شكّلت شخصية أمها، منذ أن وعت أنها الفتاة الوحيدة لوسط تطغى عليه معالم الرجولة. لقد علمِت مبكّراً وهى تطالعُ سحنات الأخوال أنّ أمها كانت مستكينةً إلي ما رسمته لها الأنوثةُ ضمن أسرتها المفرطة فى الشدة والحزم. لعل ذلك كان السبب الخفى فى جنوحها الحانى إلى استيعاب ثورات الأم، وملاقاة عقابها وقسوتها بكل محبة. مهدية شعرت لسنوات عديدة أنَّ أمها إنما أنجبتها فى أواخر خصوبتها لتدرأ اليُبس الذى يأكل قلبها. وكانت ملاكاً جميلاً يستقبله أفرادُ البيت باستغراب. الخجلُ يسدِلُ ظلالهُ على خدى الأم كلّما زارها فى غرفتها أحد أبنائها الستة الذين لا يطيلون الزيارة. يقبّلون الصغيرة بفرح منبهِر، ويُتمتمون ببعض العبارات للمباركة، وينصرفون مسرعين إلى الطابق العلوى حيث مساحتهم الخاصة. كانوا رجالاً، أصغرهم يشرف على البلوغ. الأم تستُر إحساسها بالارتباك بصمت واهِن، أمّا الحاج فرِحاً بالمولودة الجميلة وبفحولةٍ لم تنتقِص من أسرارها الأيامُ، لم يكن مهتمّا بارتباك زوجه. كان يخبرها بهدوئه الوَقور أنَّ سنّة الحياة لا يُنْجِزها الخجل».

كانت تتيمَّمُ خلسةً بصعيد الحجارة الطيبة، وهى تعانق باشتهاء آثمِ أبوابَ المدينة العتيقة فى انتظار العثور على ماء يروى القلْب الغافى ويشفى غليل الجسد التائه. وكانت الأزقة الملتوية تمتصُ بجلَبَتها ذلك الرُّكود

الذى يحاصرها فى البيت بإكراه العادة والألفة والرتابة. لم تسمح لسكون الصمت أن يخرسَ صوتها الداخلي. تفكِّر وتفكِّر وتفكِّر.. تبحث لأجوبتها البسيطة عن أسئلة على مقاسها. وتبحثُ لتفاصيلها المُغرية عن عِلَلٍ لا تُزعجُ سلامَ اختلافها عن باقى الأطفال. وحين يُعييها البحث تستسلم لوحدة الأسئلة تطوى تعدُّد التعرُّجات التى يفتحها تجوالها فى الدروب الضيقة. يبدو لها الإبحار بين الزّحام وجهاً آخر للحُلم الذى قد ينقلها إلى عالمٍ آخر، ترتادُه بصوت مسموع وحضورٍ لافت.. كانت طفلةً تحمل دهشتَها دوماً على عاتقها دون أن يرى العابرون الحِمل الثقيل الذى يُرهق انطلاقَها، ويكلِّف خطوها البطيء مزيداً من التعثُّر. ولم يكن بمقدورها أن تتخلَّف عن ركضٍ أحبَّت بُزوغَه بعيداً عن رتابَتِهم. كان الحيادُ غموضاً لا تطيقُ خبثَهُ المُسالم، ولا تهادنُ مراوغاته الفجَّة. تتوقَّعُ أنّه تخفٍّ مقصود يرتدى السوادَ لادعاء البياض، ويواصِلُ الصّفاءَ بمكر المياه الرّاكدة. وما كانت تغريها الأطراف المتباعدة لبُحيرةٍ استكانت إلى الحلَقة المُغلقة وللثّبات الحتمى.

أكانتْ تُعلِنُ بدء حياتها بعيداً عن رُفاتِهم؟ أمْ كان قدَرُ الحكاية يرسم لملامِحها خلفيَّةً تليقُ باللوحة المُنتظَرة؟

ها هو يعود ثانيةً إلى شد الحبل بقوّة الحرف. ها هو يعود من جديد لتوهيم الصورة بمنظور مخالِف غير متوقَّع، ولنَثْر ألوانه الفاقعة فوق لوحة ليستْ له. بَرَع فى الانسحاب قبل صفحات بانحناءةٍ أوْحتْ بأنّ حقَّه المكفول فى الحكى سيمارسه بعزلةٍ فى لوحة سردٍ يرسمها بمفرده، بعيداً عن لعبة التداخل والتنازع والتحاور. لكنه لا يترُك للإيحاءات متنفَّساً لتنمو بين أحضان المعنى بصفاء. يواكبُ انفراجَ الضوء بتمطُّطٍ دافئ، ويستدعى

اهتمام المسارات بغواية اللُّبس. هو لا يميل بطبعه النَّزِق إلى اللوحات التى لا تسحبُ الرّائى من جوف ذاته وتأسِر روحَه بإتقانٍ خاطِف، وإن تحرَّر الجسد فى الفرجة، من قيد مكان العرض أو من بؤر ضوئه السليطة.

لم يكن عزيز عابثاً، كانت ملامحه تمنحه سحنات ساخر بامتياز. كان يكفيه أن يزمَّ فمه الدَّقيق لترتسم على وجهه تقاسيمُ العبث ببساطة وفتنة. وأعتقد أننى حين اخترت لساردى اسمَه كنتُ دون وعى أصارع صديقى العتيد فى امتلاك الحكاية الآسرة. رغبتُ فى منعه من إعادة امتلاكها.. بكتابة هذه الأحرف التى ترسم مهدية وجعلها تسرى على لسانه، حصَّنتُ الحكاية من رغبات عديدة عبّر عنها أمامي، تنقله من وِزرة التشكيلى وفوضى مرسمه بإشبيلية إلى أناقة مكتب الروائى ورشاقة أوراق سرده. أُدرِك أنه سيحكى عنها إن أسلَمه الحرفُ عنانه. لن تكون أولى رواياته إلا عنها، مهدية تلك الساحرة السادرة فى غىّ اللون.

أنْ يكون ساردى مراوغاً يزاحمنى خيوط السرد ويصارعنى بناء الأحداث والمصائر، تلك ببساطة طريقته فى رفض اسم كان له أمام اللوحة المرسومة، وهو يحْفرُ حزنها الغافى فى انثناء شفتيها ويترك لعينيها كلَّ الفرح المنطلق. وما أرادنى أن أضعه له ظِلاً فى رواية اخترتُ أن أستفيض فى رسم تفاصيلها، نكايةً بقلمه الذى ينتفض فى حَبْوه ويوازن استقامة قامته. أتمنحُنا البدايات الجديدةُ توقاً آخر لمواصلة الحياة بإصرار قبضة الوليد المنتشية بملمسٍ يستسلِم إلى أناملها برقة؟ أتتجدّدُ الدِّماء فعلاً انتشاءً بمنعطفاتٍ تفتحها أمام ملَلِنا سطوةُ أيامٍ لم نَخَلها قادرة على الإدهاش؟

عزيز ذلك الكائن المدهش يباغتنى من قلب رواية حجَزْتها لمهدية، واستدعيتُه سارداً لحكاية كان طرفاً فيها، وأنا أدرك أنهما طيفان

يتناغمان فى مخيِّلتى بكثير من الألفة والحب والجمال. مهدية بإشراقة الحياة التى تغمر الكون بالدَّفق المستمر دون نكوص أو ملل أو خذلان. تحملُ فى طيات الألم مباهِجَ عديدة، قد لا تمسَحُ الدموع وقد لا تغفر الجراح، وقد تتركُ للأنَّات أصداء لا تُغفِلُ صوتَها السنين. غير أنّها تتفتَّقُ كلَّ ربيعٍ مع براعمَ جديدة، قدْ لا تُشبِه تلك التى زاحَمَ الخريفُ صُهْبَتها بمزيدٍ من الرِّياح. لكنها تنادى فى جوف التُّربة النديَّة جذوراً تصرُّ فى الخفاء على مدِّ دورة الفصول بألق التجدُّد والامتلاء الرَّيان. وعزيز بفيض العطاء الذى لا يُظهر غروراً ولا يشتكى من ضعف وهو يتعالى عن قبح الزوايا وعتمة الخنادق. يوشِّحُ الحياة بسمو الإنسان، وهو يتفانى فى إبداعِ فرَحٍ يفارقُ مقاسَ الخيبات ويوازى جنوح الحُلم إلى عالمٍ أرحب وأعدل وأصدق. قد لا تسعفه البداياتُ المتعثِّرة برمادٍ رصاصى يكيلُ للألوان الفتيّة الكثيرَ من السّواد. لكنّ النضالَ ألوانٌ وإن تخضَّبت باحتراق الشمس، فإن للغروب بدراً سيحينُ موعدُ اكتماله.

غير أنَّنى وبحُسن نيّة مغرقةٍ فى بِنيات السّرد، لم أفترض أنّه سَيرغمنى على نزع رداء الكاتب المحايد روائيّاً لأغوصَ بدورى فى لجُج الحكاية، أنازعه سلطتى فى ألاعيب السرد وفنون الكتابة. كان من اليسير عليَّ أن أرى النص يمضى بمفرده ليرتاد آفاقاً ارتضيتُها له وما رفضَها. بيد أنّ السّارد لم يكن طيِّعاً، وبذرةُ الحكاية أتاحَتْ لهُ وهو يسقى حدائقها أن يقلِّب التُّربة مراتٍ مرّات، كى تينَعَ ورودُ مهدية وفقَ ما تشتهى غربتُه المكتوية بلهيب الفراق. لم يمارِس السّرد بالغصبِ ولم يسلبنى حقَّ القرار. وإنّما ظهور مشاغَباته المتلاعبة بجسد الحكاية يفاجئ رغباتى الروائية، فألتمسُ له فى مخزون الأمانى ما يكفى من الانسحاب والتوارى. ومن بعيد أراقب

استمتاعَه بمتن حكاية لم يُتممْها فى فصول الواقع مثلما أرادت أحلامُه. وشاعت أقدارُ السرد أن تمنحه فرصةً ثانيةً يمتلكُ فيها سطوةَ الاختيار والإجبار. فكانت له الروايةُ، تحت أنظارى المتسامحة حيناً والمذهولة حيناً والمنتفضة حيناً، مسرحاً يعيد فيه توزيعَ الأدوار من جديد بمكْرِ القوة واستسلام الخيبة. لم يغيِّر مجرى الحكاية. لكنه غَيَّر ملامحَ النفوس، وأقسامَ القُلوب، وعتمات الأرواح، ومجاهلَ العقول. تركَ البعض على سجيَّته، ووضَع لآخرين مرابطَ للأحلام. ساير البعض قليلاً فى جموحٍ أرادَهم وما ابتغوه، وقاوَم آخرين كثيراً فى هروبٍ ارتكَبَهم وحلولٍ أبدَعوه.

«مثل النقوش الصغيرة العديدة التى حفرتها على جذع الشجرة القديمة سابقاً، بولهٍ مندفع نحو الحروف التي تعلّمتها حديثاً، كانت تُتقن إخفاء ضفافها الخاصة وتُحسن إغلاق حواشيها على صمتها. فى الطَفولة كانت تتقن الاختباء خلف أغصان شجرة التين المتدلّية، فى الوجهة الخَلفية بعيداً عن باب منزلهم وباب جيرانهم، لتمارس هوايتها فى الغناء سرّاً بصوت خافت. لم تكن تحفظ الكثير من الأغاني. لكن ما كانت تلتقطُه أذنها الهاوية من أهازيج وأناشيد وتراتيل عبر الإذاعة أو التَلفزة أو فى الأسواق كان يكفيها لإيناس وحدتها داخل أسوار البيت الكبير. لاحقاً حين سينفتح أمامها باب مدرسة ابن رشد في بضع سنوات حدَّها الحاج بنيل الشهادة الابتدائية، سيغدو الحرف فى رسْمه ونُطقه وتخطيطه وتركيبه وتأليفه أنيسَها الأثير. كانت تنزَوى خلف الشجرة ذاتها وتنسج رسومها وتخطيطاتها وحكاياتها. لم يكن لها شريك

فى ذلك. فممّا شمس الضحى وبّا عبد الكريم لم يُنجبا بعد وفاة ابنهما الوحيد عبد الله فِى سن الرابعة عشرة. كان غرقه بشاطئ أشْقار الهادئ السببَ الذى دفع أبويه المكلومين إلى مفارقة مدينة طنجة نهائياً، والاستقرار بتطوان والسكن إلى جوارهم داخل حدود السور. لم تعرف لهما ابناً أو ابنة قد تؤنس وحدتها. وأبناء الجيران من خارج السور والباب الخشبى الضخم لم يكن مسموحاً لهم الدخول إلى الباحة الخاصة، دون إذنٍ، إلا فى أوقات محدَّدة لمشاطرة مناسبات أو أعياد واحتفالات. كانت عزلتها تحفر عميقاً للبحث عن متع خاصة تملأ قلبها بالفرح الذى لم تكن الأم قادرةً على منحه لطفلتها الوحيدة» .

عزيز، وهو يتجَّول بين أسطر الرواية التى أعيد كتابتها مرَّات ويعيد محوها وكتابتها فى كل مرَّة بنفس الإصرار، لا يصادِر قدَر مَنْ لم يدعَم قدَرَه. وإنَّما يخلُقُ للحياة وجهاتٍ أخرى لم يسمح بها انصرافُ الأيامِ إلى التّوالى بإفراط موغِل فى الرتابة.

بغتةً يوقِفُ الزمن.. وعلى هوى هواه ينسُجُ للماضى حاضِراً غير الذى كان، ويخلق للحاضر مستقبلاً غير الذى سيكون.

هل يمارِسُ الزيف بادِّعاء البراءة؟

... ومَنْ يمتلِكُ حقَّ إدانته إنْ هو أصرَّ على أنَّ الحقيقة لا ترتدى وجها أو زيّاً واحداً؟

عزيز على صوابٍ سردى مادمتُ لم أسحب منه مقاليدَ الحكي. لكننى لن أجاملَ الحكاية إن لم ترقْنى التواءاتها.. أو إنْ لم تُذهِلنى منعرجاتها. وحدى لى حقُّ النقض.. ووحده له مفاتيحُ الاستئناف.

الورقة الثالثة

«كانت تعى أنّ الطيور المحلّقة بعيداً فى أعالى السماء لم تكن تفكّر فى الخوف قبل اختراق الريح بجناحيها. كانت تعلم، وهى تُحسِن المتابعة والإنصات وتدقيق النظر وإحكام الرؤيا، أنَّ خفَّة الطائر عند التحليق إنّما يستمدُّها من كون روحه ـ فى الأصل والفصل ـ خفيفةً حرَّة لم تُنعِم عليها الحياةُ، مثلما أنعمتْ على البشر، بالقيود الذهبية التى اصطنعها الكبارُ لأرواحهم بأزياء وأسماء مختلفة، لكن ليس بنوايا طيبة دائماً. فأثقَلَتِ الخطوَ وكبّلت الأعمار. كانت فى العمق تتهيَّبُ أمراً واحداً، وكان المنغّص الذى لا تحلو حياتها إلا بدونه.. كانت تتهيّب أن تكون أمُّها إنما تحاصرها كلّ ذلك الحصار وتواكبها بكل تلك المحاذير والخطوط الحمراء القاتلة، لأنها تخشى أن لا تكون ابنتها نسخةً مطابقةً لها. كان إحساسها بالرُّشد يدفعها أحياناً للجنون، وهى تتفرّسُ فى ملامح اليوم الذى ينتظرها. يرتّبون تفاصيلَه بحكمتهم التى لا تشوبها شائبة. تراهم بقربها يتحدثون عنها، يبتُّون فى كل ما يخصُّها، دون أن يخاطبوها. هى الكائن الموضوعُ قسراً علي طاولة التداول، ليس له الحق فى التدخل أو الاعتراض أو الاقتراح أو المراجعة... لكن له أو عليه وحدهُ إجباراً أن ينفّذ ما تمّ إقراره من اختيارات تملى عليه بموجب الوصاية

وفروض الطاعة. كانت تنصتُ إليهم بانتباهٍ شديد إمعاناً فى الغياب، وتمضى بجانب اهتمامهم الكبير.

ليس بإمكانها إخفاء الابتسامة الكبيرة التى تعلو وجهها؛ فالالتحام في أفضل حالاته عَمي طارئ يلزمه لاحقاً لتصحيح الرؤية ولتحفيز بُعد النّظر ابتعادٌ ومناورة.. ولا يجديان. يستدعى الأمر فى أغلب الحالات تفتيتَ اتجاهات القَلْب، وقلبُها لم يستوِ بعدُ مكتمِلاً فى أعماق الصّدر.

كانت أكبرَ من الحُب بانحرافات عديدة وبعض الخيبات. لم يخطِئها فى الإصابة لكنها أخطأته كثيراً فى التلقى. فمضى جانباً دون أن يغمر قلبها الصغير بفيض نبضاته. ولم تكن مبتئسة بسبب الظمأ الذى لا يرتوى. كانت تنتشى لمرأى السماء وتفتنى بعطاء الوجوه الطافحة بالبِشر.. كانت لها عاداتها فى اقتناص لحظات الفرح. صباحاً كان الذهاب لإحضار الحليب الطازج الكافى للفطور، بدل أمها، موعداً تخشى أن يُفلِته من قبضتها نومٌ متأخر.. لأجل ذلك درّبت نفسَها على الاستيقاظ فجراً مع أولى خطوات أمها الصامتة لتحضير ماء ساخن لوضوء الحاج. لاحقاً ستتعلَّمُ أنّ بركات الفجر تُغنيها باليُمن مناجاةُ الخالق والتضرُّع له سجوداً خاشعاً فى سكون ملكوته.. فى الإفطار كانت تستمتع دون أنْ تعرِف السبب بأن تُشرِف على جميع التفاصيل، مقلِّدةً الأم فى غدوها ورواحها بين طبلة الفطور الدائرية الواطئة والكراسى

الخشبية الصغيرة، وبين المطبخ وموقد الغاز. لم تكن تفطر إلا بعد أن تتيقّن من أن جميع إخوتها قد نالوا نصيبهم كاملاً من أولى وجبات النهار. وبعد أن يغادر كل الرجال إلي أشغالهم ودكاكينهم ومدارسهم، كانت تواظب على الشّدو بصوتها الطّروب بأغاني الحبيبة وجَرَّحْتِينى وأنا مَانِى فيَّاش و لحبيب ديالى فين هو وأنا دينى دين الله وغيرها، وهى ترتّب الغرف وتمسح الأسطح الخشبية وتنظف الأرضيات... كان يستهويها كثيراً الترنُّم بأغانى عبد الصادق شقّارة الشعبية ونوْباته الأندلسية، فى غفلةٍ من أهل الدار. أمها كانت تبدأ باكراً فى الإعداد لوجبة الغداء، لكى تترك لباقى الأشغال المنزلية ما يكفيها من زمن قبل إتمام تحضير الطعام الذى يفترض أن يكون ناضجاً وساخناً عند عودة الرجال.

فى فصلى الربيع والصيف كانت مهدية تستمتع بحفلات الغسيل مثلما كانت تسمّيها جارتهم ممَّا شمس الضحى بلكنتها الإسبانية اللطيفة. *Las fiestas* يغدو البهو الخارجى غير بعيد عن شجرة التين، مسرحاً لكل الأثواب بأشكالها وألوانها وأحجامها المختلفة. وتتشارك الجارتان، وهى بينهما، فى تداول الفرك والغسل والعصر والنشر. كان الماء يغمر الثلاث وفقاقيع الصابون تعلو الأذرع.. الأقدام لم تكن تلزم النعال البلاستيكية، بل كانت تتحرَّر وتمرح فوق الأرضية المبتلَّة بحركات فيها من الرقص الشىء الكثير، دون أن تتجرَّأ الأم على شجب الليونة التى ينزلق بها الجسد مدفوعاً إلى تعبير لا يجيدهُ إلا بين أصابعِ الماء.

فى الخريف كانت تقضى أوقاتاً طويلة فى مراقبة أوراق شجرة التين وهى تفارق الاخضرار وتمضى شيئاً فشيئاً نحو الصفرة. كانت الأوراق تتساقط ككل خريف.. لكن هذا الخريف كان طعم مرارته مختلفاً. شرعت منذ البارحة فى جمع أوراق دفاترها الذابلة بيدين مرتجفتين على غير معتادها. لم تكن تخشي شيئاً. لكن درجة الحرارة المرتفعة كانت تضم أوصالها فى رعشات لم تجد وسيلةً لدفعها. لم تشأ إقلاق أمها لذلك كانت تكابِر طيلة اليوم وهى تقوم بأعباء المنزل المألوفة بتعب لا تظهره. كان موعد الالتحاق بالإعدادية قد مرّ عليه الشهر، لكنها ما زالت تأمل أن يهتدي أبوها في طريقه إلى مسجد الحى كلَّ صلاة، إلى من سيُهديها فرح العودة إلى الدراسة. لم يكن الموضوع مطروحاً للنقاش مثل العادة. القرار كان محسوماً بوضوح تام بالنسبة إلي الحاج. تستطيع أنْ تتلو القرآن وأنْ تحفظ آياته بمفردها الآن بعد أنهت دراستها بِابتدائية ابن رشد، يمكنها أن تزاول أعباء البيت وتتعلّمها بِحذق استعداداً لمسؤولية الزواج، فابن الحلالِ سيطرُق الباب قريباً.. ولا حاجةِ لإضاعةِ المزيد من الوقت فى الذّهاب إلى المدرسة. أمها تلتزِمُ الصّمتَ، ولا سبيل إلى دفعها للتدخل. لم يعد أمامها إلا الدُّعاء والابتهال.

لم تكن الفكرة التى تشغلُ بالها فى ذلك اليوم أن تعود للدراسة فحسب، بل ألاّ تضيع منها فرصة مستقبل يخالف الأيامَ المرسومة لحاضرها. كانت ترى ذاتها فى أمها حين

سيأخذها العمر، بعد عمرٍ، نحو الأمام. ولم يكن ما تتخيَّله مُرضياً للأحلام التى نقشتها العزلة داخلها. حبُّها لأمها أمر جلى. لكن أنْ تكون نسخةً مطابقةً لوجودها الباهت، ذاك مصيرٌ سيُشقيها بالتأكيد. كانت تراها غائبةً رغم الحضور. أو هى تنسُجُ بحضورها، لأجل زوجها ولأجل أبنائها ولأجل المنزل الذى لا تستقيم أموره دونها ولو فى مرضٍ عارضٍ ألمَّ بها، غياباً ممتدّاً لا تشفعُ له كلُّ تلك التضحيات. لم يكن ممكناً أن ترفع صوتها ولو قليلاً، بكل ما تفكّر فيه بصمت. إنها تدرِكُ أنّ الجميعَ متواطئ بسرِّية فى القرار ذاته.. كان يكفى أنْ تعلنَ لأمها عن رغبتها فى مغادرة البيت والتوجُّه إلى ساحةَ الفَدَّان لتنهالَ عليها بغضبها الشديد. لم يكن خروجها يتمُّ إلا بأحد أمرين. أيسرهما فى التَّبِعاتِ وأصعبُهما فى الإعداد، هو مفاوضةٌ محسومةَ الفوائد لكلتيهما، والآخرون فى مشاغلهم مُلتهون، تراوغُ فيها أمَّهاَ قدر إمكان سذاجة بساطتها. وأصعبُهما فى التَّبِعاتِ وأيسرُهما فى التنفيذ هو إحكامُ إغلاقِ الباب الخشبى الضخم من الخارج دون إعلان مسبَق، والتيهُ فى دروب المدينة. لأجل ذلك ربما تحسُّ بأنّ أمها مسرورة فى دواخلها لحسم الحاج المبكّر فى موضوع الاكتفاء بالشهادة الابتدائية. فالصَّبية لم تعُد طفلة، بل قد أضحتْ عروساً جميلة تلحقها الأعين وتتابعها نمائِم النسوة.

تذكر فى طفولة لم تفارقها بعد، وإنْ كانت معالم الأنوثة قد وشّت جسدها بما يكفى من استدارة، أن اقترابها من أمها لم

يكن يمدُّها بالاطمئنان. كانت فى كل مرة تسعى إلى التماس دفئها، تصدُّها المخاوف التى كانت ترصُّها أمامَ ذهولِها. تذكر أنها كانت تشمُّ رائحة جلدها النّاعم يُشوى، وهى تراقِب أمها تمعِن فى إحراق الزغب الصغير الذى مازال يكسو جسد الديك المذبوح، رغم وصلات النَّتْف والغمر بالماء الساخن التى تعرَّض لها. كانت تؤمِن أنّ أكاذيبها صغيرة وغير مؤذية ولم تنسجْها إلا لتفادى عقاب أمها القاسى، لكن عقاب الكاذب لا يميِّز بين صغير وكبير، والنّار حين ستلتهم جلودَ الكاذبين ستَنْبُتُ لهم جلودٌ جديدة لتُواصل النارُ إحراقها مَرَّةً بعد مرَّة. كان الخوف عنواناً كبيراً لكل أمر، يسبِق حتى تسمية الأشياء بمسمَّياتها. لا تظنُّ الآن حين تتذكّر مواعيدَها الكثيرة التى أخلفتها مع الخوف أنّه كان ينتظرها قبل الهزة الكبرى. موعدُها الحاسم الذى لم يدوَّن فى تاريخ أيام الخوف لم تُخلفْه. لقد أخلفت موعدها مع الفرح والاكتشاف، لتمتطى فى فسحَة خارج الزمن فضاء منتفَضاً لم يكن لها فى ذلك اليوم.

أيغالبُ اليومُ يومَه قبل أن يحين الغدُ الذي سيسمِّيه أمْسِى؟ لم يكن الخوفُ خوفاً إلى ذلك اليوم. ولن يغدو الغدُ بعده يوماً وحسب. حينها كانت رائحة جلدها النّاعم يُشوى ملءَ الخياشيم والقلب والعقل. لكن أمّها لم تكن حاضرةً لتدرك أن الخوف وهم، وأنّ الحقيقة موتٌ يترصَّد بخطوة القدم اليمنى وهى تنحرف في نصف دائرة نحو اليمين قليلا، لتواجه بعينين جاحظتين ساحة الدمِّ المسفوك».

مهدية الصبيّة تطرُق بنعومة نوافذ الفتنة، تلتبِسُ بجسدها الصغير. تباغتها ملابِسُها فى يوم من الأيام بأنّ الجسد لم يعد مسطّحاً، وأنّ تلك النتوءات الصغيرة قد كبرتْ فى غفلةٍ من يديها، وهى تجسُّ نبض أنوثتها فى الحمّام. تلك النتوءات قد استوت مثمِرة باستدارةٍ لا يمكن لملابسها إخفاءها. ولا يمكنها أن تدعو أمّها لاقتناء ملابس جديدة تشبِه أنوثتها، فهى لم تعتد ذلك التغيّر الجديد الذى يخالِجُ جسدها، ولا تسمح لنفسها بالاشتهاء أو بالتمنى. أمضتْ يومين اثنين فى التفكير والتخطيط. فى اليوم الثالث أدخلت رفقتها إلى الحمّام شريطاً قُطنياً طويلاً نظّفته فى السِّر دون أن تلاحقها عينا الأم، وجفّفته خفيةً على هوى الريح العابثة فى سطح المنزل. كان الشريط مثل أشرطة عديدة ملكاً لأخيها رضوان، يضمِّد بها التواء كاحله حين يعود من مبارياته فى كرة القدم. لفّتِ الشريط بإحكام فى ثلاث دورات غير كاملة حول ثدييها المستديرين، وأوثقته بممسك حديدى استعارته من درج الحياكة الذى يسحرها بأدواته. حين استوت لاحقاً فى وقفتها فى الطابق العلوى أمام شاشة التلفزة المطفأة، تيقّنت من ذكائها وهى ترى جسدها قد استعاد شكلاً مسطّحاً بعض الشيء. لم تسعِفها مرآة الحمّام الصغيرة فى ملاحقة التغيير الذى أضفاه الشريط القطنى على معالم جسدها الأنثوى . لكنها الآن وهى وسط فوضى إخوتها فى الغرفة العلوية ترى انعكاس صورتها على الشاشة الكحلية، وتتيقّن أن ما أزعجها من تلك الاستدارة قد خبا شكلها. لم يشاكسها أحد من إخوتها حول ملامح البلوغ التى أدركها جسدُها. لكنها قرأت فى عينى أمّها الكثير.. كانت أمها تراقب عن بُعد انفرادها بنفسها وحيدةً فى الغرفة السفلية الصغيرة، وإصرارها

على مواصلة إحكام إغلاق الباب خلفها حين يخلو لعزلتِهما المنزل من كل أفراد الأسرة، وامتداد الفترات التى تقضيها فى دورة المياه بصمت لافت.

مهدية كانت منتبهةً لعينى أمها، وفطنت لما قالتاه فى سكون وعزم. لم يكن بإمكانها تغيير الواقع فاستعانت بالثياب وسيلةً لإخفاء ما تستطيع إخفاءه. لكنها رغم ذلك كانت تتوجَّسُ من حدث ما. لم تكن قادرة على التوقع، لكن إحساسها كان يخبرها بأنّ الأيام تحبكُ لعزلتها المزيدَ من الانجرافات. المجهولُ ينتظرِها على فوّهة الملل ليكتسحَ الركودَ الأرعن بقليل من الصّخب. وليمازِح فرحَ الغدِ المأمول بيوم مختلفٍ، لن تستأنس كثيراً بحلوله ليالى الحُلم المستكينة إلى الصّمت.

«حين استوقفها في ذلك الممر قرب الإدارة لم تشعر بالخوف يهزُّ قلبها مثلما كانت تظنُّ، لفرط ما أسْلمت أذنيها لأمها ولمَمًّا شمس الضحى. كانت تعلم علم اليقين أنّ جسدها ليس ملكاً لها، لكن روحها لا دخل لمدَّعٍ بامتلاكها. كان قدومها للمدرسة خرقاً سافراً لكل مواثيق أمها وعهودها. لكنها كانت ترغب فى خلق امتداد آخر، يمنحها الإحساس بحرية مطلقة لا سلطة لفرد عليه.. كانت تريد أن تكون هى، بمنأي عمّا يريدونه لها، أو يريدونها له.. كانت تتوق إلى أن تحيا خارج الحدود التى يسيِّجون بها أنفاسها.. كانت تتوق إلى التخفُّف ولو لمرَّة واحدة من كل تلك الأثقال الجسيمة التى يلقونها على كاهلها الضعيف تحت مسمّى واحد لا يتبدَّل إياك يا فتاة. ودَّت فى اللحظات الأولى لإدراكها حجم اللعنة التى أصابت جسدها لما أعلن هويّته، لو أمكنها أن تراجِعَ أحدَهم

ليتيح لها جسداً يشبه أجساد إخوتها. لكنها مع توالى الأيام نفرت من تلك الأجساد التى تمنّت أن تشبهها، وأحبّت اختلافها عنهم، لكنها ما أحبَّت جسدها وما شعرتْ أنه لها مثلما كانت تدرك امتلاك إخوتها لأجسادهم. كان كساءً مادياً يغلّف روحها بكثير من الضيق والتصلُّب والانكماش. وكان عليها حتى تسْلَم من حصارهم الذى لا يملّ أن تُفرط فى كسوته كى لا يَبين أو يشفّ أو يهتز. روحها كانت خفيفةً ورشيقةً تهفو فى عمر الخامسة عشرة إلى تحليق حرٍّ خارج جدران الجسد. كان يستهويها الجمالُ الذي يحيطها فى كل المدينة، تمتصه بلهفة مثل اسفنجةٍ داعبتِ الرطوبة سطح أمانيها. وتظل منذهلة أمام الاختلاف الذى تكتسيه الأمكنة ذاتها فى أوقات متباعدة. تراها فى سكونها حين يخلو لها وجهُ الصمت على حواشى المساء. وتراها فى صخبها حين يغمرها الإنسان بفوضاه وضجيجه وحركته أثناء النهار. تواكبُ سحر الدروب والأبواب والأقواس والبيوت والرياضات والساحات والأزقة، وهو يخاتلُ عبور الحياة بين الأجناب والزوايا بمتعة وانتشاء.. ودّت، بحرقةٍ سرّية، والأزقة تفتح لأشعة الشمس تارة ممرّات الضوء وتارةً ظلال العتمة، لو امتلكت سرّاً المالَ الكافى لاقتناء أدوات الرسم، كى تستسلم بروحها المحلّقة لغواية تلك المدينة، وتسجّل بعض تلك الفتنة التي تشدُّها إلى فضاء لا تغيّره فى تجوالها لكنها تجده فى كل جولةٍ متغيّراً.

فى مرّات عديدة حين كانت تفاجئها ماريا مُعَلْمَة الخيّاطة الإسبانية شاردة الذهن وبصرها مشدود إلى اللوحة نفسها، تلك المنتصبة فوق الأريكة فى غرفة المعيشة، لم تكن تجرؤ على التعبير لها عن ولعها الغريب بالرسم. كانتْ تخشى في العمق أن ينتشر الخبر بين الفتيات ويصل أمّها. ومهدية تعرف أنّ الرسوم والمجسّمات والصور لم تكن حاضرة فى بيتهم، ولم تكن تلقى القَبول. فصورتها الوحيدة التى التقطها لها بّا عبد الكريم فى عمر السّادسة ظلّت ملتصقة بالمرآة الكبيرة فى منزل ممّا شمس الضحى، دون أن تسَعَها جدران بيتهم. لأجل ذلك ربما لم تُطلع أمها على شغفها بالرسم. ولأجل ذلك كانت تحفظ الأمر فى سريرتها، كى لا يفضحها أحد أمامها، فتمنَعَها من مغادرة البيت، ومن متابعة دروس الخياطة عند ماريا.. لكن ماريا أدركت ما أخفته مهدية، وعرفت أنّ الفتاة تمتلك موهبة تحتاج إلى الدعم والمتابعة. كانت تستبقيها رفقة فَتْحية عن عمد بعد خروج الفتيات. تشْغل فَتْحية مسبقاً بتمرين حياكة جديد. وتصطحب مهدية إلى غرفة ميغيل فى الطابق العلوى، حيث تتراكم اللوحات الفنية التى أحضرها من إسبانيا ابن ماريا ميغيل فى زياراته السابقة. لم تكن تعرف كم يمرُّ عليها من زمن وهى ضائعة فى تفاصيل تلك اللوحات. تستفيق على نداء فتحية من الأسفل تنادى ماريا لكى تتابع ما قد أنجزته فتحية فى تمرينها. ماريا بدورها تنشغل عنهما بأصصها الكثيرة الموضوعة على درجات صغيرة متصاعدة مشيَّدة بتوزيع جميل،

بعضها يرتفع فى ظل الجدران الداخلية بنهاية الدرج، وبعضها يرتفع تحت الشمس على الجدار الأمامى لسطح المنزل.

كان بيت ماريا فى الطابق الأرضى قليل الإضاءة، فلم يكن زجاج النّوافذ الكبيرة الملوّن والمزيّن بزخارف رسمٍ متنوعة يسمح للضّوء بالمرور إلى داخل الغرف صافياً. لكن الطابق العلوى كان ينعمُ بقبّة زجاجية شفّافة كبيرة تزيّن السقف، تتوسط البيت وتشرف على نور الشمس وأشعّتها المنبعثة من السطح. وكانت اللوحات عديدة؛ منها الموضوع على الجدران في مساحات متقاربة، ومنها المتروك على جوانب الأثاث يغفو متكّئا عليها وهو يلامس الجدار أو الأرض، ومنها ما ظلّ قماشاً ملفوفاً دون أن يثبّت على وجه خشبى.. لم يكن يهم مهدية ما تخبرها به ماريا عن كون تلك اللوحات فى معظمها نسخاً مقلّدة عن لوحات فنّانين كبار من إسبانيا وأوروبا، كانت كل لوحة بالنسبة إليها سحراً لا ينقضى. تغمره أشعة الشمس عبر القبة الزجاجية، فتمنحه الإضاءة المشرقة مزيداً من التوهّج والألق.

ماريا لم تدفعها إلى الالتحاق بمدرسة الفنون الجميلة، ولم تشجّعها على شيء. إنها تدرك رغم عدم تفهُّمها للأسباب أنّ الرّسم في عرف الأسرة ممنوع. لم تناقش مهدية حول أوضاع الأسرة أو أسرار بيتهم. كانت تحترم بشكل مثير للانتباه وللفضول كذلك حميميةَ حياة الآخرين، وكثيراً ما وبّخت الفتيات حين تجدهن قد شرعنَ في تداول النّمائم

والأسرار والفضائح. كانت مثل مُدَرِّسة فى مدرسة، تنقل إليهن ما تعرفه عن خياطة الملابس وحياكة الصوف وتطريز الأثواب. ولا تتقاعس عن تهذيب أخلاقهن وتقويم طيشهن. لم تكن مْعَلِّمة فحسب، بل كانت مُعَلِّمةً تتقنِ تعليم الخبرات وتربية النفوس. وقد كانت تعنى لمهدية الكثيرَ تلك الساعاتُ التى تقضيها كل أسبوع في الإنصات لما تجود به ماريا حول الفن والجمال. اكتشفت وهى تتابع أحاديث ماريا أن مدينتها تتضمن المدرسة الوطنية الأولي للفنون الجميلة بين كل المدن. وكان ذلك أمراً مثيراً لحب الاستطلاع. ووقَرَ فى نفسها أنّ زيارة تلك المدرسة، وزيارتها فحسب، ستكون مفيدةً بالتأكيد لإشباع فضولها حول عالمِ محرَّمٍ عليها ولوجه.

لذلك حين استوقفها في الممر جفلت للمفاجأة التى لم تستعد لها: فلم تكن تتوقَّعُ أن تحادث أحداً. كانت تعتزِمُ زيارةً صامتةً من بعيد للفضاء... إنه أول شاب تحادثه فى حياتها دون رابط يعلِّلُ محادثته.. والأهم، إنها تحادثه بعيداً عن مراقبة أمها» .

الورقة الرابعة

«كـان الليل مـلاذَ الأحـلام الآمن، لا يسـتـرقُّ النظر إليـه مـخلوق، ولا يتلصَّصُ على أحـاديثـه إنسـان. تمارسُ فـيـه ضلوعها الحقيقي فى الحياة بكلّ حرّيةٌ واستمتـاع.. وتشدُّها الأحلامُ نحو ارتياد آفاق يستحـيل لحاضرها أن يَسَعها. ولم يكن للحُـلم رقيبٌ يشذِّبُ افـتِراع أغصانه أو تشعُّب مسالكه.

كانت ترى نفسها، مثلاً، ابنةً لمـاريا. إنّها تلك الابنة التي تمنَّـتْها مـاريـا كثيـراً دون أن ترزَق بها وسط أبنائها الذكـور الثلاثة، فحشدت حولها مئات الفتيات تتبنّي ورودَهُن العَطِرة، وتسقى أناملَهن بكل ما تعرّفه من مهارات الجمال.

تلتـصقُ بصـدر أمومـتها المتـدفّق دفئـاً. وترتوى من فـيضِ معارفِها الذى لا يجفّ.. تغوص رفقتها فى مجاهِل الأسئلة. هى أسئلة صغيرة وكبيرة، تحـفرُ عميقاً داخل صمتها دون أنْ تفلَحَ فى إعفـاء مطارِق الشكّ من الضـجـيج الذى تُحـدِثه. وتبدعُ تحت أنظارها الحانيـة كلّ ما تختزِنه روحها من سيولِ متفجِّرة للعطاء، قد تكشفها بيسرٍ قماشاتٌ بيضاء وفرشاةٌ وبضعـة ألـوان.. تتـنقَّلان معاً فى كل الأمكنـة.. تـجـوبـان على الأقـدام تطـوانَ شبـراً شبـراً، وتعاودان قطع المسـافـات نفسها في أوقات مخـتلفة. وحين يُعيـيهمـا التعب والألـفة تذهبان إلى خـارج المدينة فى استـراحـات مغايِرة، تغتَسِلُ بـفـيـروز الشطآن وتلتَحِف ذهب الشـمس. تزوران مَـارْتِـيل،

والزّينْكون، وكاسْتييخُو وتصلان سبتة حيث المغرب الإسباني.. تسافران بعيداً نحو شفشاون وطنجة وأصيلة والعرائش... تزوران كل ما اختزنته ذاكرتُها القوية عن سفرات إخْوتها من أسماء ومزارات وساحات لم تعرف يوماً شكلها.. تطوفان بساحة وطاء الحمام بشفشاون، وترتشفان شربات نقيّة باردة من منابع رَاسْ المَا. تطلّان من مقهي الحافّة بطنجة على أوروبا وجبل طارق وهما تتنعّمان بالشّاي المُنَعْنَع، وتتسكّعان بجوار سور المَعْكَازِين وفى قلب سوق الداخل. تتجوّلان وسط جِداريات أصيلة ومعارض التشكيل المفتوحة فى كل الدروب، وتشرفان من ساحة الطّيقان على المحيط الأطلسى. تنطلقان من ساحة التحرير بالعرائش قبل ولوج المدينة العتيقة عبر باب المدينة.

تغادران نحو مدريد حيث يدرس ميغيل وحيثُ للحياة شكلٌ آخر لا يمكنها أن تتخيّله أو تعى الإمكانات التى يفتحها للمقيمين وللزوار. كانت حكاياتُ ماريا عن إسبانيا مذهلة بكل مقاييس الواقعِ الذى يشدُّ مهدية نحو لجِّه الرّاكدة أَو الصّاخبة. حكاياتٌ تفوق قدرتها علي استيعاب أمداء الاختلاف التي تسِمُ النّاسَ هناك بالمقارنة إلى الموجّودين بجوارها. كانت تدرك أنّ التعدُّد والتباين من مميزات الحياة، وأنّ البيوت مختلفة فى تطوان، وهى المدينة الواحدة. فكلٌّ بيتٍ يغلقُ بابَهُ على أحداثه وأحاديثه وحوادثه. ولكل أسرةٍ بأفرادها المختلفين وأمزِجتهم وأفكارهم ومطامحهم

ومشاغلهم المتباعدة حيواتٌ تمرُّ مغايرة لحياة أسرتها. إنّ حال أسرتها بدوره يختلفُ عن معتاد عاداته حين يفارقهم الأب لأداء مناسك العمرة أو الحجِ. ويختلف كذلك حين يغادر أخوها الأكبر تطوان ويترك زوجه وأبناءه عند أصهاره ببيتهم بالباريو، فى زياراته التفقُّدية للمشرق قصد استيراد الأثواب الحريرية التى يبيعها، أو حين غادرهم هو وإخوتها الآخرون نهائياً لبناء أسرهم الخاصة.

لكن الحُلم خذلها. ولم يفتَح لها مطلقاً نوافذ تطلُّ عبرها على ما يمكن لإسبانيا أنْ تقدِّمه لزائرة مثلها.

كانت ترى نفسها في مكان آخر وزمان آخر، مع أسرةٍ أخري وأقرباء آخرين. وتمضى مع اللوحات تصنعُها هاته قصصاً من خيالٍ وبعض أحلام، وتصنعُها تلك كائناً كامل الوجود مستقلَّ الشخصيّة. كانت تمضى من تفصيلٍ إلى آخر، تغيِّرُ الاسم واللون والشكل والحجم.. تعيدُ نسجَ القصص ذاتها، مراراً ومراراً، بحبكات جديدة ومسارات مغايرة.

كانت ترى أسرةً حديثة العهد من زوجين شابين بلباس عصري وألوان مشعَّة، يطرقان الباب الخشبى. لم يسبق لها رؤيتهما لكنّهما يسألان عنها هي تحديداً وبإصرار شديدٍ. يلحقُ بهما فيما بعد شاب صغير السن جميل الهيأة. لا تعلَم من هم. ويُمنَع عليها كالمعتاد أنْ تجالسهم. لكنّها تسمع أحاديثهم. وتدرك فجأةً أنّ أسرتها الحقيقية قد وجدتها أخيراً. إنهم أمّها وأبوها وأخوها عثروا عليها بعد أن ضيّعوها لزمن تبنّتها فيه أسرتها الحالية البديلة.

كانت الصور التي تخلُقها لا تعرف حدوداً لاحتمالات الحياة المُمكنة. وكانت تتقنُ فى خيالها ما لم يكن من حقّها الظّفرُ به فى مألوف الأيام. كانت تُسعفها كلُّ الخيوط والخطوط لنسج ما تشتهيه. وكان ما تشتهيه حياة عادية ليستْ على مقاس الأحلام.. فما كانت الأحلام تُطربُها حين تستفيق من عمق اليقظة. كان ما يبقى من ظلال ورديّة منسكباً على أيامِها الجوفاء استمرارَ ألم لا يفْتُر، يذكّرها بأنّ الواقع لا رافعَ لمواقِعه، وبأنّ الحياة لا يمكن أن تصالِح ما تراكم على صفحاتها من عثرات.

ما كانت تريد غير حياة لا تسلُبُ حرِّيَتها ولا تُلغى إرادَتها ولا تخذلُ ذكاءَها. أكان ذلك مستحيلاً؟ أم كان عصيَّ البدء؟ أم كان ذلك ممكن الطُّموح؟

وجوه عدَّة لحزنٍ واحد. والأيام تمرُّ بجانب توقها للوُجود دون أن تمنحها السبيلَ للإقدام.

كانت تعبُّ عطرِ الحياة التى ليست لها من وجوه غيرها، وهي تصادِف ملامحهم أثناء جولاتها المسروقة فى أزقة المدينة وشوارعها.

كان يكفيها أن تختار ما تتأمله. لتمعنَ فى متابعته والاقتيات على تفاصيله. ولم يكنْ متجَرُ الحياة المفتوح يعرِضُ ما يلائمها كى تقتنيه، وفق رغباتها وأهوائها. وإنما كانت مجرَّد ظلٌ أخرَسَ يتشرَّبُ النور والدفء عبر الأشياء التى يشاء له حظّه أن يرى فيها وهَج الشمس. ويمضى..

كانت تتدرّجُ عميقاً فى فهم الحياة دون أن تحياها. تقتَربُ من أسرارها الخفيّة.. وتقارِبِ منعطفاتها الحاسمة.. تلامس فى عبورها بينِ الناس فرحَهم وحزنهم. تصوغ لهمومهم أزياء وتقاطيعَ وانفراجات. وتنسُج لحبورهم ملاحمَ وأمجاداً وانتصارات.. ما كانت الوجوه تمرُّ أمام فطنتَها بحياد. كانت تتركُ لها دوماً ما يغرى بالرّسم والحكى والحَبْك والتأليف.. حكاياتٌ عديدة تنفتحُ أمامها بتقطيبة حاجبين أو انسدال جفنين أو قبلة شفتين.. لكل تعبير دلالة.. ولكل دلالة حكاية.. ولكل حكاية حياة وشخوص ومصائر... والسعادة تنتظر فى نهاية المسير لاحتضان الجميع بمزيد من الفرح والحبور.. حركةٌ لا تتوقف وفوران لا ينطفئ.. تلك كانت حياتهم، أولئك العابرون بمقربة من فضولها. أمّا حياتها هى، فتستوى ملامحها باسم الملل والرُكود والعبث.

كانت تحسُّ ذاتها مثل تلك النباتات الطفيلية التى كانت تقتلعها أمها بقسوة لتخلو لمشاتِلها الحياة.. موجودة على هامش الأصص الكثيرة دون مغزي ودون حافز، تمتصُ الغذاء لروحها من أرواح غيرها باستمرار لا رجاء لعطائه. وتترقّب أن تعيش على حواشى حياتهم، لتتأمّلَ ما يفعلون.

هى تدرك أن ما تمتلكه من قدرات يفوق بكثير ما يُظهره إخوتها فى دراستهم أو أعمالهم. تعلَمُ أنّ حرمانها من كلّ شىء قد عزّز فى دواخلها القيم الحقيقية لأمور عديدة، لا يحيطونها باهتمامهم، أو لا يعرفون، بدءاً، أنّها

موجودة.. وهى تراقبُ دأبهم فى معتاد أنشطتهم اليومية والفصلية والسّنوية، تستشعرُ تخاذلهم في تقدير الحياة ومُتَعِها، وفى التماس الجمال وامتداداته، وفى اقتناص الفرح وفصوله.

كانت ترى ذاتَها نغمةً ناشزة دون إيقاع وقّعتها الحياة بكثير من اللامبالاة، تنتظر من يصحّحُ هفوتها بفيضِ إبداعٍ ودفاع.. ورغم ذلك كان يكفيها أنْ تُسلِم نفسها لدورات الفصول الأربعة بعيداً عن غبن يصطنعونه لانطلاقها، لتقدّر الحياة وتلتمس الجمال ولتقتنص الفرح.

للخريف قُبَلٌ باردةٌ من حرٍّ يتوارى مكتَوِياً بلفحِ حبٍ من طرفٍ واحد.. وله انتكاسةُ الصّحو وتراجع التّغريد وعناق الرّيح. وله احتضانُ التربة لسقوط الأوراق، وصُهبةٌ تميلُ نحو الاصفرار...

الشتاءُ يأتى مستعجلاً معطفاً ما زالت بعضُ أزراره مفقودة. وله سُحُبٌ تعمُّ وضبابٌ يَتكاثف، ومطرٌ يسيل ويُغرِقُ الكلَّ تحت طُهْر زخّاته.. وله فى الثّنايا بين ذاك وذاك نشوةُ دبيب الدفء بعد رعشات الانكماش...

للربيعِ كلُّ الأزهارَ والشّدو وتحليق الفراشات.. له شعاع الشمس المغازِل، ولهفُ الضّوء المخاتلِ وتحليقِ النّفس مع الأطيار. له وقعُ البهجة والفُرجة ومنابِعُ السّرور. له اللون المنطلِقُ المشِعُّ فى كل التقاسيم والأسطح والزّوايا والمنعرجات...

الصَّيفُ رصيفُ الأحلام وعودةُ المهاجرين، ومرفأ الآمال ومصيفُ القادمين. له هُجنة الألسُن واختلاط السَّحنات، ورواج الأسواق وزحام المعابِر. منتهى اخضرار الحقول، وبياض الجبال، وتلوُّن الورود...

حرمانُها لم يكن خسارةً.. ولم يكن فوزاً.

إنها خارج أقاليم تلك التحديدات الحدِّيّة، مثلما هى دوماً ممتنعة على التصنيف.. أميرة خارج ثوب الحكايات الجميلة تمضي بمحاذاة قصور لن تدخلَها، دون أنْ تنقضَّ على جمالها لعناتُ الساحرات الشرِّيرات، ودون أن تُسعفَ نومَها التعويذاتُ أو التَّمائم. كانتَ مجرَّد لاجِئة فى تلك الحروب الصغيرة.. الكثيرة التي كانت تخوضها من أجل الإحساس أحياناً، علىِ هوى الفصول المتعاقبة، بأنّها فعلاً على قيد الحياة. لا طعم للهزيمة ولا مذاقَ للرِّبح. حروبها بدورها مغايرة للمألوف.. كانت تخوضها بفائض قَلَق البدايات وبنحيب ألم النّهايات. وهي اللاجئة بين بدايةٍ اقترفتها بلون الصُّفرة ونهاية ترجوها بلونِ الحياة، تُزاحِمُ الألوانَ بألوانٍ ليست لها. كان لجُوؤها لفوز الآخرين بحياة خسرتْها، وصَفْتَها لخذلان الحدود التي لم تعتَنقها والآفاق التى لم تلحقَها.

مهدية وهى ترى أمها تجرى وسط متاهات أيامها المتشابهة لم ترَ حياة أمها حياةً مشتهاة.. لم ترَ الحياة فى حد ذاتها هى الأهم وإن طال رصيد السنوات، وامتدَّ للعمر نسلٌ وذكرٌ طيب. مهدية فضَّلت المتعة الجَحود على الملل الوفِي. لم تشأ أن تقدِّم سلامها للحضور الذى يخنُقها بأطياف الموت

المُطبق. كانت تحفظُه، ذاك السلامُ، لغيابٍ ينقُرُ عتبات الأحلام ولا يبين. وراهَنَت بكل ما تستطيع راحتاها امتلاكَه لكى تحلِّق قليلاً مع عصافير الشجر. كانت الحياة بالنسبة إلى ربيعها الخامس عشر عبوراً منهكاً غير مأمون الخواتم. والحاضر يلوح معبراً ضيِّقاً لا يترك للقادمِ فسحةً للإسراع.. وجهان يتقابلانِ لعُمر واحد يمرُّ دون صخب. يمرُّ عبثاً، دون أن يجد لحضوره ما يكفى من الصدى.. فلِم الاحتراز والاحتياط والتروّى؟

صفعتْ خلفَ انطلاقها صمتَ الباب ومضت. لا تلوى فى وِجهتها على تيهٍ أو سياحة منفلتة من أى مقصد سوى اغترافِ شحناتِ حياةٍ لا تقوى على العيش دونها.. كانت وجهتها واضحةً محدَّدة بكل عزمٍ المدرسة الوطنية للفنون الجميلة، تستكشف بزيارتها أشكال ذلك المحظور وأحجامه التى لا يطيقُها بيتُهم.

عزيز لم يكن هناك بمحض المُصادفة. اخترعتُ له لقاءَ مهدية على محاذير الغياب، هناك حيثُ فتنةُ الغِواية أصل الشكل واللون والحجم، وحيث لمواربات اللقاء رصيدُ لُبس وبِضع شبهات.

لم يكن ساردى الذى تعمَّدت أن يرتدى نسيج الحكاية، ويروى رغم أنفِ اسمه المُكابِر روايةً اخترتُ أن تكون لحبيبتِه. عزيز فى ذاك اللقاء ليس صنيعتى الورقية التى تمارسُ بإكراهٍ إبداعى اجترارَ ماضٍ لم يعد له أيّ حاضر، عَدا نَكْء الجراح. وروايتُه مع تلك الحبيبة التى لم تصن الأيامُ بدايتها ولم تكِلْ لها غير الوجع، ليست السببَ فى وضعِه هناك فى مقابلِ بابٍ ستعبُرُه بعد هنيهات مهدية ملتحفةً السَّوادَ وبعض الزّرقة.. كان موعده مع الرّحيل قد وضعه على أُهبة الاستعداد لمواجهة الموت.. وكنتُ هناك أُنهى

معاملات مغادرتى للمدرسة، قصد الالتحاق بكلية الفنون الجميلة و"جامعة كومبلوتينسي" بمدريد. عزيز كان تلميذى المميَّز الذى سيُرافقنى فى آخر سفراتى إلى مدينة الدار البيضاء قبل أن أفارق تطوان نهائياً.

مصادفة جمعتهما عند الممر.. لحظاتٌ قصيرة تغيَّر بعدَها شكل الحياة.. مصائر جديدة ترسُمُ ملامِحها تلك الإغفاءة التى كان يعلِنها باب المؤسَّسة ظهيرة السادس عشر من يناير، سنة ١٩٨٤ لم يكن البوّاب قد أقفله لأنَّنى مازلتُ بالداخل أجمع بقية ملفّاتي، فتركه فى منتصَفِ المسافة بين منعِ مهدية من الاصطدام بالزلازل التى سيحمِلها لها عزيز، وبين التَّوق الذى سيغمُر عزيز ليجرِفَه نحو آخر مقامه بجوارها، هناك بالقرب من "بْلَاصَا بْرِيمُو" بمدينتهما تطوان.

لستُ صانعَ حكايةٍ تتداخلُ مصائرُها على وقعٍ أنفاس متقطِّعة. ولم أعِد القارئ وأنا أصفِّفُ انتفاضات الأوراق بسردٍ يغيِّرُ ما كان. لكن الحقائق لا تخذُلُ انشدادَنا المبهور بالخيال، بل تصعقنا أحياناً بما لا يمكننا فى أقصى جرعات خيالنا أن نصبو لبلوغه.

مهدية كان يدفعها الفضول فى ذلك اليوم، ولأوّل مرَّة، إلى اختراق الحصن العتيد المنصوب لأحلامها بكل صلابة الحجر الأصم الذى لا تملك الصبر أو الجلَد لتكسيره. وكانت مقاديرُ فضولها قد وجَّهتها نحو المدرسة فى تلك اللحظات من ظهيرة ذلك اليوم، بعد إنهاء أشغال المنزل، وقبل موعد الغداء الذى يجمع الأسرة.

وعزيز كان مدفوعاً بولائه لصداقتى التى كنتُ أعرضها عليه بتقديرى لفنِّه ولبراعته. وكانت مقادير ولائه قد وجَّهتْه لمصاحبتى تلك الأمسية فى رحلتى السريعة نحو الدار البيضاء.

أكانت للحكاية بدايةٌ غير تلك؟

لا أعتقد ذلك..

كانا يقطنان في مدينةٍ واحدة، على بُعد شارع واحد عن رصيف الحب. لكنّ القُرب خان وحدة القلب، وانحرف قليلاً ليضعَهما في مُفتَرَق البُعد على مقربة من خيبات وإصابات لا تخطئ سهامها.

وكُنتُ أصلْ البداية، راعيَ الحكاية، وصيَّ اللوحة.. أأخونُ الحرف سليل الألم وشعلة الأمل؟

سافرتُ يومها رفقة عزيز، أو سافر عزيز برفقتي دون أن أعلم شيئاً عن تلك البداية الجميلة، مثل كلِّ شرارات الحبِّ حين يُقدح زنادها.. لكنه وهو يستأذنني في غرفة مَرْسمي بالدار البيضاء بعد منتصف الليل بكثير لكي يُفرغِها باندفاع وشغف وتهيُّب على ورق الكانسون، بدتْ بعض المعالِم لاندهاشي موحيَّةً بأنّ قلبَ الشاب قد خطفته ساحرةُ تلك اللوحة الفاتنة. أو بدا لي أنّ تلك الفاتنة التي تستسلِم لفرحٍ يومِضُ في عمق عينيها، إنّما تنظُرُ إليه وهي تحمِل ظلالَه في انعكاس الضوء على بؤبؤي عينيها المُسرجَتيْن في صهيل الفرح.

أأكون قد ضيَّعْتُ الحكاية وأنا أحكيها بعد إحدى وعشرين سنة؟

أتكون الحكاية قد ضيَّعتني وهي تراوغني في روايات سابقة أردتُها لمهدية، لكنها ما كانت لها؟

ولماذا أحكي عن مهدية وليس عن عزيز؟

أأراهما ظلَّيْن لحياة واحدة لفحتها الشمس بنار حارقة؟

مهدية لم ألتَقِ عينيْها إلا في لوحة رسمها هو، وظلَّتْ معي لسنوات تعذّر فيها أن تعود إليه.. وأراها كل صبحٍ في أيام زيارتي هاتِه، لتطوان، تحثُّني على إتمام حكايتها سريعاً قبل أن أفارقها من جديد.

قد أخبرني عزيز أنّها تقطن بمدينة أصيلة. لكنني لا أستطيع البحث عنها، رغم توفُّر يومين اثنين شاغرين يفصلان انتهاءَ زيارتي لتطوان عن اختتام مراسيم إحياء ذكرى الرِّبي العادل ابن الوليد. قد يكون اليومان كافيين للاستدلال على موضع إقامتها بتلك المدينة الصغيرة. لكن لا يمكنني البحث عن سيِّدة لا تعرفني لأمنحها لوحةً تحملُ ملامِحها، وأنا أتوقّع سلفاً أنّها واصلتِ الحياة، وأنّ مقامها هناك سيكون في ظل زوجها وأبنائها منه.

لستُ أخشى على نفسي رغم رغبتي الشديدة في الاقتراب منها تلك الروح المنفلتة والذات البهية والكائن المفعم بالأنوثة والجمال.. أخشى عليها منّي، أنا الكاتب، الذي أُمِّنْتُ على حكايتها وخذَلتُ الأمانة بصدق إبداع ومكر صداقة.

بل أخشى على حياتها واستقرارها، وعلى ابتعاد شاعته لإقامتها بأصيلة يفرغُ حاضرها من كلّ انعكاس لذلك الماضي بتطوان.

أكتبُها مهدية وأنا أدرك لعنة المفارقة التي تشطر روايتي هاته.. لا أريد أن تعرف مهدية عنّي شيئاً، أو تعرف عن حكايتها، أو عن تلصُّصي على لوحتها وحياتها. وفي العمق بي خُبث طفل صغير يريد أن يرى آثار شغبه المشاكس.

أنْ تقرأ مهدية هذه الرواية أمرٌ أحرصُ على تفاديه، لذلك ستظل لوحتها بغرفة مكتبي بتطوان. وأحكِم إغلاق شقّتي عليها قبل مغادرة تطوان مرّةً أخرى.

وأنَ تكون مهدية من قرّاء روايتي فذاك أمرٌ لا يمكنني منعه. ولن يفيدني خبثُ الطفل الصغير في معرفة آثار المرآةِ المنتصبة التي ستجدها أمام اندهاشها.

الورقة الخامسة

«مهدية لم تستَطِع أن ترى العالمَ يوماً بعيون الآخرين. تصمتُ.. ترضخ.. تتحاشي الاحتكاك بِمن يحاصرونها بأعينهم الضيّقة. تدارى ما تعرفُ أنّ إظهارَه سيثير عليها قلق المحيطين ووصاية الأحبة وعقاب الأولياء. تراوغ الأسئلة العارية، وترتدى سذاجةً يعتقدونها ملائمةً لتفاصيلها البسيطة. لكنها لم تفلح في إسدال جفنيها، أو فى مراوغة ما ينعكس على مرآتها الداخلية من اختلافات ذلك العالم الممتد أمام اندهاشها.

أدركت مسبقاً أنّ انسجام الحياة وجمالها فى دروب مدينتها لا يخفى، مهما حاول ذلك، تعدُّداً لا يبينِ إلا للعين المتفحّصة. أدركت دون أن يشارِكها الحاج انفتاحه المتسامح، على كل أقطاب المدينة وخواصها الثقافية والدينية والتاريخية، أنّ للدروب والشوارع والبنايات فى وسط المدينة نكهات مختلفةُ، وأنّ أهواء الساكنة لا تتشابه مثلما لا تتشابه ملامحهم وأزياؤهم وألسنتُهم. ليس الأمر مجرد لسان تطاونى موريسكى وآخرَ جَبلى والثالث ريفى والرابع عاميّة مغربية بين كلّ ذلك يشوبُها تكسير مميّز والخامس إسبانى والسادس يحاول أن يكون فرنسياً... كان الأمر أشبه بعبور تختاره متعمّدة لإشباع نهمها نحو الاختلاف. هو عبور لا يستجيب لاختصار السُّبل، أو لالتزام أقرب الطُّرق بين نقطتين. لكنها

كانت تتْبَعُه، فى كلّ مرة، تريد ابتياع أمر يلزمها فى دروس ماريا للخياطة. وتتعمد أن تسلك بعضاً منه كذلك حين تقفل عائدة من بيت ماريا بأَبِينِيدا إلي بيتهم بشارع الوحدة إمعاناً على هواها فى الاستئناس بالطريق الأطول.

كانت تترك محلَّ مُورِينُو الذي يجاور بيتهم بشارع الوحدة، وتتوجّه نحو متجر ابن يحيى بالجهة الثانية لشارع محمد الخامس. فينطلق العبور أحياناً من شارع ٢٠ أغسطس ليحاذى سينما أَبِينِيدا ويمضى مع شارع أحمد الغنمية ليصل محل ابن يحيى لبيع الخيوط والأزرار ولوازم الخياطة، ويتراجع من شارع محمد الخامس إلى شارع ١٠ مايو ثم شارع الوحدة. وأحياناً كان الالتفاف يبدأ من بْلاصَا بْرِيمُو ليمضى بمحاذاة كنيسة دار إسبانيا ليصل محلّ ابن يحيى، ويلتف بعد ذلك في نصف دائرة مع المسجد الكبير ويلاحق شارع شكيب أرسلان بدءًا من المركز الفرنسى وفندقِ باريس وصولاً إلى البِيعَة ودار إسبانيا، ويعود إلى المنطلَق فى بْلاصا بْرِيمو، لتقفل الدورة الكبرى بشارع ابن عبود ثم شارع الوحدة..

هى التفافةٌ كانت تضعها أمام ازدحام بصرى لا تسعفها الطريق لاستيعاب تباعُداته وتلاحُماته. وما كانت تُشركهم فى البيت فى أخبار تلك الطريق. تحفظها لنفسها بإصرار لا يخشى مصادرة حقِّها فى اختيار العبور الذى ترغبه. وإنّما يتحاشي سوء فهمِ سليم النوايا، أو سوء تفهُّم خبيثَ التواصل. هى طريق ككل الطرق الآمنة والهادئة فى مدينتها المسالمةِ،

لا يمنع اختراقَها سوى هندسة مسطَّحة لا تعترف للأزقة بتضاريس تاريخية أو حضاريةٍ أو ثقافية. مهدية شحذت بصيرتَها علي الاختلاف الذي تنشُده في حياتها بالرغبة، دونِ أن تتمكّن من بلوغه بالفعل. لذلك لا ترى لالتقاء النقاط المتباعدة سبيلاً واحداً.. مدينتها تؤكد نبضَ قلبها بالاختلاف.. هى شوارع للمروق وأزقة للتوغّل وبنايات للسكن وبيوت للعبادة.. تواريخ بجغرافيات متعاضدة وبمسامّات مختلفة لجسد واحد... يكفيها أنِ تتنقل لاقتناء زاد الصباح الطرى والدافئ من حلويات لامْبِريَال المتخَم بزائري الصباح، إلى البقّال المقابِل المغرِق فى أندلسيّته، لتدرك أنّ الحياة الشهية لا ترضي بالنمط الواحد. محل ابن يحيى المجاور لمحل الحلويات وللبقّال كان يواصل فى ذلك الوقت من الصباح إغفاءته الأخيرة، لم يكن من عاداته أن يشهِر بضاعاته للزبونات والزبائن قبل العاشرة. أحيانا كانت تتفقّده بعد ذلك فتجده قد رفع الأبواب الحديدية لكن الأبواب الداخلية، بمستطيلاتها الزجاجية والخشب الرفيع الأخضر الذي يحدُّ مساحات انتشار الزجاج ويسيِّج اعتداده بالشفافية، ما زالت محكمةَ الإغلاق. سيول ماء صافية تجرى على أرض صلبة، وتتجمَّعُ فى مصبّ واحد.

لم تتقن الإسبانية مثل إخوتها الذين يسافرون إلى إسبانيا بين الحين والآخر، للاستكشاف أو لتفقُّد ما يريدون استيراده من بضائع لمتاجِرهم. لكنها كانت تستطيع بأذنها

الذكيّة أن تفهم ما كان يجرى حولها من أحاديث فى المحلّات التجارية والأسواق والأزقة. وتستعذِب قدرة بقّالهم الأثير، ذلك الأندلسى الأربعينى الرشيق بوجهه المنمَّش وشاربِه القصير وشعر رأسه الأصهب المنحسر عند مقدمة الرأس، على الانتقال من لسان إلى آخر على هوى زبائن محله. كان يحلو لها كثيراً أن تراه بعينيها المتأنيِّتَيْن يحادث الإسبانيات العجائز بالتحديد. يحاول أن يكون لبقاً وظريفاً، ينثر بين تحياته فى كل الأوقات فرحاً فريداً بزبونته وكياسة لا تغفلُ التفاصيل الدقيقة. كان كالفارس فى حكايات الفروسية، يغدِق سحر اللسان والامتنان لزيارة الزبونة، ويشعِرها بأنها محض ترحيب وثناء دون أن تقتنى منه شيئاً. كَان بشوشاً يترقق بزبوناته المداومات على محله من كل الألسن، لكنه مع العجائز الإسبانيات كان يثير فرجتها بشكل مختلف. كان بطبعه مرِحا ينصتُ لزائريه، ويبدِع الردود المناسبة لملامِح الروح التى تقابلُه. يمنح لكل شخصٍ اهتماماً خاصاً، يدفعه للعودة عند كل احتياج إلي مراودة عطايا محمّد الرُّوبْيُو وبضائعه. كان لدكانه بابان متجاوران تفصلهما سارية إسمنت صلب. تساءلت كثيراً في طفولتها، أكانا بابين أحدهما للولوج والآخر للخروج، أم كانا باباً للزبونات وآخر للزبائنِ، أم كانا باباً للعرب وآخر لغير العرب، أم كانا باباً للمَغاربة وآخر للإسبان.. وكانت بعينِي الطفلة ترافق أمها حيث ذهبت فى سنوات ماضية،

تلاحق تحركات كل زائرى الدكان وتبحث لسؤالها عن إجابة واحدة.. فلا يمكن للبابَيْن أن يكونا بأسماء متعدِّدة، وإنْ تعدَّد الزبائن واختلفوا. ولا يمكن لِباب الزبونات مثلاً أن يكون لولوجهن وخروجهن، بينما صفّ المنتظرين والمنتظرات يعيق المسلك نحو ذلك الباب من جهة صندوق الأداء. تتراكم الاحتمالات التي تضعها في كل إحصاء تجريه. في كل يوم تختاره للحسم في الجواب النهائى.. فى كل اختبار يتتبّع تصرُّفات كل ذلك الحشد المختلف الذى يستدعيه محمّد الرُّوبْيو إلى فضائه الرّحب. وكانت الأسئلة ذاتها بتنويعات غير محدودة تحملها رُفقتها حيث يمّمتْ بروحها المنفتحة فى تلك الشوارع والأزقة والدروب المفعمة بغنى التاريخ وانسجام الحاضر. كانت مدينتها بدورها لا ترضى بالنمط الواحِد، حتى وإنْ تستَّرت باسم أهل المدينة لتُوارى ساكنتَها. كان التعدد يطفح خارجاً دون أدنى مواربة، داخلَ المدينة العتيقة وخارجها. لا تحجبُه الأبواب السبعة ولا تخفيه أسوار التاريخ.. القلاعِ والقصبات والحصون كانت هناك بين الأبواب تحكى التاريخَ الذى عانق حجارتها منذ زمن، دون أن يشفى الحكى الغليلَ، أو يروىَ لهفة الصّادى. تلك مدينتها التى علّمتها أنّ الجمال يكمنُ هناك فى الأوجه المتقابلة للصورة الواحدة، فى التفاصيل المختلفة لابتسامة مرسومة بعفوية على ملامح متباينة لكنها تصرُّ عند التقابل أن يكون الانعكاس بسمةً متشابهة.. وفى الانعطافات

العديدة لدروب لا تتوانى عن إظهار شموخ الماضي، كان الحاضر يغتني بانسجام فطري غيرِ متعبِ، لم يدّعِه أحد بل كان هناك ينمو دون وصاية مفروضة أو مخطط مسبق. هي الحياة تعثُر على مسالكها بيسر وبساطة.. وبين العثرات المحتملة لكل تكامل ينبني على التباين والتعدّد، كانت الوشائج تصلُ ما انفصل، وتلحمُ ما اتّسع.. تطوان كانت ألفةً مكتملةً قائمةً على اختلاف تفاصيل الحياة.

مهدية كانت تدرك مسبقاً أنّ انسجام الحياة وجمالها فى دروب مدينتها، لا يخفى تعدّداً تتبيّنه بيسر العينُ المتفحّصة. وكانت لها عينان متأمّلتان بصمت منساب لا يخذل الهدوء الذي وسمها ظاهرياً نكايةً بالصّخب المعتملِ فى الجوهر الخفيّ. تولّع قلب مهدية بملاحقة كلّ تعابير الحياة فى مدينتها. ترقبُ وتحلّلُ وتستنتج.. لتعاود من جديد التأمل والتحليل والاستنتاج. كانت دوائر التفكير المتقاطعة تعبّئ كل الفراغات المنبسطة بين صخب الجوهر وهدوء الظاهر.

والدوائرُ تجدّد حلقاتِها، تبزغ - بغتة - حلقة المدرسة الوطنية للفنون الجميلة دون سابق إدراك أو تقصُّد. تكتشف وسط حديث ماريا أنّ أحد الفنّانين الكبار الذي ينحدر من مدينة غرناطة، واسمه ماريانو برتوتشى نييتو، هو الذي قد أسس المدرسة الإعدادية للفنون الجميلة سنة ١٩٤٥، كانت حينها ماريا في الثالثة من عمرها. وكانت تلك المدرسة الأولى من نوعها فى المغرب. تحولت إلى مدرسة وطنية ببناية جديدة

بعد ذلك باثنتى عشرة سنة. تعرف ماريا كل تفاصيل ذلك الماضى لأنها لم تغادر تطوان منذ دخلتها جنيناً يتشكل فى رحم أمها. كانت تزور طليطلة بين الفينة والأخرى، لكنها تعود سريعاً إلى تطوان. فهى لم تعرف مرتعاً لطفولتها غير تطوان. كان اكتشاف مهدية لوجود المدرسة باب فرح لم تعرف كيف لأيامها أن تتجاهله، لذلك مضتْ نحو تقاسيمه الخفيّة عَجْلى، لا تدرك ماذا تنتظر منه أو ما يخبئ لها. تكفيها لهفتها المتوقدة لعبور عالم آخر، يشاطرها نهَم الجمال الذى لا يشبع.

تيقنت وهى تتقلّب فى ليالى الوحدة بين لجام العقل وهوى القلب، أنّ مصيراً مختلفاً يناديها، يغاير معتاد الأمس، ويشيّد للغد وجوداً يظل سرّ أسرار أحلامها. لا تجرؤ على تخيّل أبعاده، لكنه هناك يطلُّ، يناديها، يهتف باسمها همساً تارة وجهراً أخرى.. يدعوها إلى الإقبال على الحياة.. يدعوها إلى الإقدام دون خوف أو خجل.. يدعوها إلى الإنصات لنبض قلبها الذى لم يخطئ يوماً.. يدعوها إلى التغاضى قليلاً عن هواجس العقل. لا تغيير سيطرأ على إيقاع الحياة الرتيب إن لم تمتلك المبادرة. الحاضر لها إن هى أرادتْه فعلاً. والمستقبل سيكون طوع أحلامها إن هى سعتْ نحوه بثبات. ذلك الغد ليس مستحيلاً.. ليس صعباً.. إنه ممكن، ببساطة خطوة إلى الأمام.. لا احتمالات غير الفعل.. ولا مخاوف تستقيم فى وجه الإرادة القوية.

فى ضوء النهار كانت أسرابُ الأحلام ترتدى حللاً مقلقة.. وجود تلك المدرسة فى المدينة ليس أمراً جديداً. الجديد أنّها اكتشفته متأخرة بعقود زمنية. أُسرتها لن تقبل. لن ترفض فحسب، أسرتها ستُصدم. ستصاب بالذهول. مدرسة، وللفنون الجميلة، وكأن الفنون لا ينقصها غير الجمال. مهدية؟ لمْ تلتحق بالدراسة الإعدادية، وتسعى للالتحاق بمدرسة الرسم والتصوير وصنع التماثيل.. مهدية؟.. تلك الفتاة الطيِّعة؟ وتعرف أنّ ذلك أمر منكر؟ مهدية؟.. الفتاة الهادئة؟.. جُنّتْ أم ماذا؟.. ماذا تظن نفسها فاعلة؟.. هل توفىّ الحاج وتشتّت إخوتها؟.. مهدية؟.. الفتاة الوحيدة بين الذكور؟.. تنفلت عن الصواب بهذا الشكل المعيب؟.. مهدية؟..

ويتوالى إقدام الليل وإحجام النهار باسترسال. كان طبيعياً أن يفضى التعاقب إلى مآل ما. لا يهم، صوت القلب أو صوت العقل. لا بد للدوامة أن تنجلى على وضوح ما، على قرار ما، على حاضر ما، على مستقبل ما.

مهدية لم تر الاختيار سهلاً. لم تجد يسيراً أن تقذف كل شىء خلفها وتتابع وجه الحياة المعتاد. ولم تجد سهلاً أن تنسى أنّه هناك في نهاية شارع محمد الخامس الطويل، على مقربة من السوق الجديد، حيث تصحبها ماريا أحيانا لاختيار بعض الأثواب الجميلة، تقبع مدرسة الفنون. لم يكن يسيراً أن تحذف من ذاكرة قلبها وعقلها وجسدها ذلك المسمّى أو تلك التسمية. لم يكن يسيراً أن تمحو صورة الغد الذى قد ينتظرها،

لو أكملت المسير حتى منتهى الشارع الطويل. الحيرة تغلّف الأيام بجديد لا يسرّ. والقلق حليف سيء لاختيار لا ينضو عن ملامحه أقنعة الأسئلة الكثيرة. ومهدية رفقة الصمت لا تدرى ما عليها فعله. مضت أيام وأيام وهى تقلّب الفكرة من جميع الجوانب. ولم يتضح للحيرة قرار. حين ضاقت عليها الحجب عمدت إلى وسيط الاستطلاع، فلن يضرّها فى شيء التوجه إلى المدرسة. يمكنها أن تستفيد من التجول فى المدرسة.. الاقتراب قد يكون مجدياً لاتخاذ قرار ما. لن تحقق شيئا هذا العام، السنة الدراسية قد بلغت منتصفها. يمكنها الاستفسار عن الإمكانات المتاحة. قد تكون الأبواب مغلقة كليّاً فى وجهها.. يمكن للخيبة أن تكون مجديةً كذلك في إخراجها من متاهة الحيرة.. أفكار وأفكار نجحت فى إخفائها بين جوانحها، وهى تزمع زيارة المدرسة، ..

لا أدرى لماذا جعلت للقائهما المقتنص من قيود الزمن تلك الهنيهات، وأنا أعلم أن الزمن كان رحيماً فى تلك الهنيهات بميلاد فرحة مباغتة؟

للسرد أطيافه المخاتلة التى لا ترتكِن إلى الحقيقة الواحدة.. تنزع عنها أثواب الواقع حين لا تلائمها أزياؤه، وتستدعى من نسغ الحكاية حروفاً ترتكبُ الغواية بخيلاء..

لم يكن أىٌّ منهما على استعجال. فموعدى مع عزيز كان متروكاً للمساء. ومهدية استأذنت سلفاً ماريا، تلك الصبيحة، فى تركها فى "السوق الجديد" بمفردها لاقتناء ما ترغبه، قبل أن تلحق بها إلى أبِينِيدا لكى تعود رفقتها إلى المنزل. كانت قد وعدت أمها بأن تعيدَها ماريا إلى المنزل، كى تأذن لها بمصاحبة المعلِّمة تلك الصبيحة نحو السوق.

كان الوقت متاحاً لحديث طويل لا ثالث له. مهدية وعزيز بمفردهما داخل فضاء المدرسة الجميل. لم يشعرا وهما يقطعان خطوات التلعثم الأولى أنّهما غريبان فعلاً. كان الحديث يجرى بينهما حرّاً منطلقاً. لا تقف فى وجهه مسافة زمن بدأ عدُّها منذ دقائق. كان لقاؤهما وكأنّه وصلٌ لتعارف قبلي تمَّ منذ عهود، ولم يكن يحتاج سوى أن يرتدى كل منهما صوتَ الآخر وشكله ورائحته. كانت العيون تغنّى فرح شوقٍ أدرك الارتواء أخيراً. مهدية ما صدّقت نفسها.. وما صدّقت يومها المباغت.. ترنو إلى عزيز بعينيها النجلاوين، وقلبها يهتِف لها: أعرِفه.. أعرفه.. لستُ ألتقيه.. لست أكتشفه.. أنا أعرفه. كم استغربت الألفة التى أدركتها بجواره، وكأنّه وهو البعيد الغريب أقربَ إليها من كل الأقارب الذين قاسمتهم كل عمرها، وكأنّه موعدها الحقيقى مع ذلك الغد الذى انتظرته طويلاً، كان يرقُب مرورها بجواره بقليل من الجرأة وكثير من الحيرة. صوتُه.. دفء نظراته.. ابتسامته.. حديثه.. كلماته.. كل ما صدر عنه كان لها مرآة صافية، لا يخالطها أدنى كدر. لم تعتقد يوماً أنها سترى ذاتها فى آخر. كان ذاتَها بصيغة المذكّر. لم يستقبل حديثَها باستغراب أو استنكار أو استهجان. لم يقاطع أحلامها، ولم يصادر أسئلتها. كان يتمِّمُ كلامها، ويصوغ رفقتَها جملَها المتعذِّرة، ويختم أحرفها التى تتلكأ أحياناً بحثاً عن معانٍ عصيّة. كان صدى الروح، وهى ترفْرِف أمامه فى خفرِ أنثى تكتشف لأول مرة أنّ لها صوتاً جميلاً قد يطرب لجُمِله رجل مكتمل.. تكتشف أنّ لها صوتاً ينصت إليه إنسان آخر غير ذاتها السريّة، بإمعان واهتمام وإعجاب. لم يغوها بسحر ابتسامته الشهيّة التى تستقبل كلّ العالم بمحبة.. لم يغرِها

بتوثُّب الفرح الذى كانت تراه فى عينيه وهو يحتضن تيْهها.. لم تأسرها عذوبة لسانه، وهو يرسُم لذاتها هويّة تراها لأول يوم خارج مراياها الحميمة.. لم تختطفها تلك المصادفة الخارقة التى صنعتْها فى لحظة واحدة مخلوقا جديداً، له قلب وعقل ولسان وروح وجسد. كان ببساطةٍ ذلك الحُلمَ الحيَّ النّابض بداخلها.. كان الحُلمَ الذى رافق وعيها بنوافذ الأمل التى تعجن خبزَ الألم فرحاً يختمرُ على مهل. لم تَكَدْ تُلاقيه وتعتقد بتطرُّفٍ أنّها تعرفه منذ سنوات عديدة.. لم تكد تُلاقيه وتؤمِن أنّ مصيرَهما يرسمهما بميلاد جديد.. لم تكد تُلاقيه وتخشى على فرحها به أنْ يخذله العبورُ خارج باب المدرسة المدهشة. أذهلتها قدرة التدفُّق التى فجّرها فى ينابيعها الغافية.. الكلمات تنثالُ على لسانها دفعةً واحدةً ليَجرى عزيز صعوداً ونزولاً مع صبيبها الريّان. لم يكن لسانها طلقاً مختالاً مثل الآن.. لم يخطر الحرج على اللهفة المنسابة فى حركات جسدها.. كان الاندفاع بينهما عنوانَ دهشةٍ تنمو بمذاق الحب. لم يطرأ على بالها حينها أنّهما يسابِقان عمراً قد مضى بينهما، لا يعرفان عنه شيئاً.. وكانا يلاحِقان محطّاتِه القريبة والبعيدة بكثير من الفضول والانشغال.. ماذا.. ومتى.. وكيف.. ومن.. وأين.. كل الأسئلة كانت متاحة.. كانت مباحة.. كانت مطلوبة.. كل الإجابات كانت سلاماً.. كانت صفاءً.. كانت وصالاً يلحم بين مسارين لم يكتشفا أنهما موجودان فى الجوار، إلا قبل لحظات قليلة. ويريدان للآتى أن يقرأ كل تفاصيل ما كان، وما يكون. الألوانُ تطفَحُ من صورِهما التى تناوَبا على حفر ملامحها بانطلاق. وعزيز كان يشبِهها فى اختلافها، وكان يفارقها فى الشَّبَه ذاتِه. مثلها هو، لكنه ليس هى.. بينهما كان وتَر الانجذاب يصهر التقابلات، ويحرق كل مسافات التباين، ويضع لألفة الرّوحَيْن مراقى

للانتشاء بكل ذلك القرب. الزمن ينمو لصالحهما. يمضى متوثّباً ليُسرِّع التعارف والتآلف والارتباط. حين أخبرها بأن الساعة قد تجاوزت الثانية زوالاً ذهلت للزمن الذى مرّ بينهما دون ضجيج.. ذهلت للساعات التى جمعتهما دون أن تستغرب خيوط الوحدة التى تلفُّهما بمفردهما.. ذهلت للكلام الكثير الذى فاض عنها دون أن تخجل من الزوايا المعتمة التى تشاركاها.. صُدِمتْ للحزن الذى غمرها متَدفِّقاً عن امتلاء كأسِها بالفرح المفاجئ. لقاء عابر يزهِر على حواشى انتظار لم يدارِ جموحَه. غنيمة حياة هادئة تتلوّنُ بغتةً بصخب براكين نشطة، لا تعرِف بعدُ مسالك انفجارها. أغرقَتهما الساعات المقتطفة فى أحاديث ما كانا ليتوقعا إمكان العبور إلى زواياها. خلسة نبتتْ بين ظلال الظهيرة العقاربُ المُسرعة وأعلنت أنّ خاتمة اللقاء تسحب بخيبة أذيالَها. وبدا وكأنّ ما اقتنصاه كان قليلاً، أو كان يقلُّ شيئاً فشيئاً قبل أن يصلا باب المدرسة. كانت كل خطوة يتّجهانِها نحو الخارج تفرّق لحُمتهما. وكان نصيب الجزع يكبر، ويكبر. لم تجرأ على الحديث. كان الصمت يتمزّق بينهما بعد سيول ما قيل. بادرها باقتراح اللقاء مرة ثانية صباح الخميس، لتبحث مع الإدارة إمكانية متابعة الحصص بوصفها مستمعة دون تسجيل. كانت الفكرة فكرته لإخراجها من حيرتها والمتاهة التى تبتلعها، ولمراوغة موعد السفر المسبق الذى قد يستغرق ذهاباً وإياباً الأيام الثلاثة المقبلة.

وكان الموعد الأول.

كان الموعد الأول.. لكن ليس مع عزيز، وإنما مع الخوف.. لأول مرة تراه وتشمّه وتسمعه وتتذوقه وتلمسه.. خوف فوق طاقة معجم أمِّها البسيط على الاستيعاب..

لم أختر لهما ذلك المصير.. لكننى كنت فيه السبب.

الورقة السادسة

«وهى تمتطى وجهكَ لتصفعَ ما تبقّى من صلف تخفى بهِ ضعفك الأخرسِ، لم تكن العينان فَرِحتين. فلا تلتمس لنفسكَ عذراً أيها الفرِح.

وهى تسكب رمادَها من خاصرة الجرح، لتغسلَ سواداً أغْشتْه الأيام وصرَّفتْ بياضه بعيداً، لم تكن العينان باسِمتين. فلا تلتمس لنفسكَ دمعاً أيها الفرِح.

وهِى تُنسيكَ الطينَ الذي صنعها والماء المهين الذى شكّلها، لتطرُقَ صغَرك وهى تكبرُ أمامك، فتكبُرَ وتكبُرَ، لم تكن العينان وقحتين. فَلا تلتمس لنفسكَ خوفاً أيها الفرِح.

وهى تنفضُ الغبارَ وتلحَمُ الدَّمار، وهى تغتَرِفُ النّبع قطرةً قطرة وهى تعجِنُ الخبز لُقمةً لقمة، لم تكن عيون الحزن وقحة.

فلا تُشرِك بغزْلِ السنابِل، القمحاتُ ستروي ظمأ الورود.

ألم تكن عيناها تنسجان الفرح؟

كنت أحسب لسنوات أنّ ومضة الفرح تطلُّ بخفَّة مشاكسة من خلف رموشها، تلك اللوحة الجاثمة فوق مكتبى لسنوات. وأراها لأول مرة، وهى تشرِف على آخر أيّام زيارتي، بشكل مغاير.. أيكون الحزن أصلَ المعنى والفرح مخاتِلٌ أسرَنى لسنوات فى أوهامه؟

أيكون الحزن عابرَ رؤية يتلصَّص من ضوء عينيها على رواية لم ترقها؟

أم إن صِلاتى الجديدة بمهدية ترينى فى لوحتها ما لم يكن يتسنّى لى أن أدركه من قبل؟

لم نتحدث طويلاً حول اللوحة، يومها. تركناها على الحامل في ذلك الصّبح الباكر تجفّ، وذهبنا للقاء سي محمد. كنتُ أريد أن يكون وَصلى بينهما آخر عطائي لتلميذي، وأنا أضعه في عهدة رؤية فنية مختلفة عما تعلّمه، ستوسّعُ مهاراته وتطوّر تقنياته. وكنت أدرك أن الاختلاف بين مدرستيْنا سيغني تجربة عزيز، ويدفعه إلى أن يمرّن أدواته وأن يجد صوته الخاص.

لم يطل اللقاء، لأنّ سي محمّد كانت له التزامات أخرى مسبقة. عدنا إلى المرسم.

حين أطلّ علينا موعد طائرتي ليعلن موعد رحيلي. تركتُ له نسخة من مفتاح مرسمي. وودّعته وغادرت. أثناء عودتي في عطلة قصيرة إلى المغرب، بعد ما يقارِب السنة، وجدتُ اللوحة مثلما تركناها على الحامل ذلك اليوم. حملتها معي إلى بيتي بتطوان. بحثت عن عزيز.. لم أعثر عليه. وبلغتني عنه أخبار عديدة متناثرة ومتعارضة.

وصلتني بعد ذلك بأشهر قليلة أوّل رسالةٍ منه على عنوان كلية الفنون الجميلة بجامعة كومبلوتينسي حيث كنت أُدرّس بمدريد، وكشفت لي الرسالة بوضوح كل ما فاتني من أحداث وحوادث.

كلّما عدت إلى تذكر تلك السفرة المستعجلة التي اختطفتُ فيها عزيز رفقتي، أدين نفسي على ما كلْتُه لاستقراره من تشرّد ولقصته الوليدة من وأد.. وحين يعييني التفكير والتأمل أتبيّن أنني ما كنت إلا إحدى سبل كثيرة كانت ستفضي إليها طريقه... لعل تلك السبل الأخرى لم تكن بكل ذلك الحسم.. قد تكون أقل قسوة، أقل خطورة، أقل عنفاً.. لكن الموت كان واحداً يترصّد الجميع. ومن لم يمُت، ماتَ لموت غيره.

الحزن ذاته الذى يغوص بى فى بُحيْرتى عينيها الآن يحيط حواسى. يتسللُ إلىّ الألم قوياً.. لم يعد الأمر مجرد مرايا للنفس، بل إن ذلك الفراغ الذى يتوسط صدرى ينتزعنى نحوه. وكأنّ الحشا الخالى يندبُ الامتلاء.. هو ذاك إحساسى بالعجز ينطلق من صدرى إلى أصابعى. فلا أتابع ما أريد قوله بالسرعة ذاتها.

«لم تعُد مهدية إلي البيت ذلك اليوم أبداً.. كانت تلك التى عادت فتاةً أخرى، تدرِكُ أنّ لها وجوداً يتجاوز جسدها. تعود إلى البيت ذلك اليوم فتاة تعرف أنّها فعلاً، وأخيراً، على قيد الحياة. كيف يمكن للحظة واحدة أن تغسلَ الجوفَ من سوادِ سنين طويلة، وأنْ تغمرَ القلبَ بفيض أمل لا حدَّ لسمائه؟ كيف للقاء عابرٍ أنْ يعيدَ تشكيلَ الذات فى غفلةٍ منِ الزمن المارق؟ ومن يكون ذلك الكائن الذي يمتلك فى دقائقَ معدودةٍ كل تلك القدرة السّاحرة على جعلها إنساناً؟

كانت تحلّق فوق سُحُب أحلامها لأول مرّة. ولأول مرّة يغدو الواقع أجمل وأحلى وأَدفأ. لو كان بوسعها أن تجعل الزمن يتوقف لتطولَ تلك اللحظة، وتطولَ أكثر فأكثر لكان للعمر وعدّ آخر غير الذى قيل. سيسافر إلى الدار البيضاء، ذلك ما أدركته.. وأدركت كذلك أنه لم يعد متحمّساً لذلك السفر قدر حماسه للبقاء. لكنه ملتزِمَ أمام أستاذه وصديقه بمرافقته لتوديعه.

ليس لنوافذ الأمل حين تنفتحُ بغتةً مواعيدُ مضبوطة، تترك العتمة تتسلل على هواها لِتمضى حيث لا ندرى. لكنّنا نعلمُ أنّ

حُنوّ شمس الصباح الدافئة لن يدوم طويلاً.. وتلك النوافذ الخضراء الخشبية التى لم تكن تترك للضوء متنفساً للاختراق، وهى تنغلقُ على ليل الأيام بسطح متدرّجٍ تستوى شقوقُه لسدِّ الباب في وجه الماء والهواء والنور، ليستْ معاديةً لكلِ البياض الذي يغمُر الجدران العالية. لكنَّ بيتَ الفرح لا يكشُط اللون الذي كان، بل يترك لقوس قزح أن يغمر الجِوارَ بطيفه القشيب.. ويربو الأمل شيئا فشيئاً فى حضن دفء مهادنٍ.

كم كان الأخضر شهياً وهو يتسلّق امتداد البياض حيث كان.

كانت مهدية ترنو إلى المدينة فى طريق العودة بامتلاء مثير.

المدينة لوحةٌ تنضحُ بالغواية، تراوِدُ العين لاكتساحٍ أكبر. بياضٌ ناصع في الوسط تحديداً، وعلى الحواشى ينمو الأخضرُ عشباً زاهياً.. وكأنّ المدينة، تطوان، تقول: أنا علىِ المتوسِّط.. قريباً منه أقف بكامل فتنتي. لكنّنى خذلتُ عناق البحر ببعض الكيلومترات ففارقتنى الزرقةُ المتاخمة للبياض المتوسّطى، حسرةَ شوقٍ لم يكتمل. ونمتْ على نبَضِ غيابِها خُضرةٌ يانعة.. أو كأنّها تقول للجبالِ: لا تتركينى على السفح فى منتصف مسافة الفتنة بين شهقات علوّك والأشجار والثّمار، وخرير انحداره والرّوابى والسّهول. كان جبل غُرْغيز المكلّل بالبياض والطّفح الأخضر بانعراج تفاصيله التى ترسم للوطن خريطةً أخرى على هوى الطبيعة، دائماً مطلاً على كلّ النوافذ أعلي الشلال بمحاذاة شارع مولاى العباس،

وأسفله بجوار شارع الحسن الثانى، أو طريق النخل مثلما يحلو للساكنة أن تسميه، وعلى امتداده».

«كانت عيناها نافذتين تمسحانه بين الفينة والأخرى حين تسمح لها البنايات بذلك، أثناء العودة إلى أَبِينيدا بكل الحب الذي يغلي فى دواخلها، ويشرف على فيض الفوران. لم تلمس من قبل فى دواخلها كلَّ هذا الحبور. علاقتها بالمدينة كانت طاقَتها للتجدُّد كلِّ يومٍ. تنهل منها قدرِ ما تستطيع، وكأنها فى كل جولة تشحنُ روحها، وتشحَذُ صمودَها لغد تنتظِره، وهى تعرف أنّه لن يأتى؟.

كانت الأيام تبدو لها أوراقَ يومية تقتلعها بيديها تِباعاً، دون باقى أفراد البيت. تقتَطِعُ فى كلِّ ليلةَ ورقةَ يومٍ مضى وهى تأمل أن تحمل ورَقةُ الغد بشرى فرح، يعبُر دوماً على أحرف اليومية دون أن تصلها أصداؤه. لكن الورقة التي كشفت إطلالتها البارحة لم تنبئها بجديد. كانت تقول ببساطة: ما الفرق بين أن تسير إلى الأمام أو إلي الخلف إن كنت لا تعرف أين أنت. حاولت أن تقرأ فى تلك الكلمات أمراً ذا معنى، بعيداً عن حيرة الاتجاهات وضياع الطريق، فما وجدت للإشارة غير ذلك المعنى. الآن وهى تسرِع الخطو للعودة إلى بيت ماريا تدرك أن معالم فى الطريق لم تعد غائمة. وتدرِك أنها تستطيع منذ هذه اللحظة أن تميِّز كلَّ ما كان خلفها، وكلَّ ما ستسير إليه بإقدامٍ فى ذلك الأمام المفتوح للجمال ولمبادرات الفرح. كانت نقراتُ قدميها على الإسفلت

الصلب تشدو بإيقاع توازُن يلوح أمامها، يمنحها ما لم يكن لها يوماً. إنها خطوة جسدٍ واثق يعلِنُ أنّ موعد الروح مع الفرح لن يعرف المزيد من الانكسار.

لم تعلم مهدية والليل يطوى بلحافه أحلامها أنّ عزيز قد قضى باقى تلك الليلة مقاوماً رغبة النوم فى طيّ جفنيْه، قبل أن ينهى بألوانه كشفَ جمال عينيها. كان وجهها بكل ملامحه النّاعمة طوع أنامله وانزلاقات فرشاته. وكان مثل الممسوس، يشدُّه جنونه نحو أقاصى الذهول والانطواء والانفجار. يلتَحم باللوحة وكأنه على وشك عناقها. يغرق فى التماعة الزهرى التى وضعها لشفتيها.. ويداعب بخفّةٍ ظلال جيدها العاجي.. ويمعنُ فى السّواد المنسدلِ فوق كتفيها... كان يسكنُ فى تفاصيلها يمدُّها بحياة هادئة لجمال صارخ، ثم يتراجع نحو الخلف مبتعداً عنها، مخاصماً القرب الذى ينسيه الوَجَع الذى ينمو على حواشى الألوان. كنتُ أراقبه باستمتاع وأنا بين خدَر نوم يتسلَّلُ إلى مفاصلى وخدر انتشاء تتابِعه حواسي. كانت لحظةُ الخلق تنبضُ بألمٍ فاتِن.. إنها مخاضُ روحٍ توشِكُ على غسلِ الفرَحِ بما تبقّى من عمرِ العنفوان.

كان يكتب باللون قصيدةً أتته فى غفلة من بابٍ موارَب، لم تُحكِم مواثيق الصبيحة إغلاقَ مصراعيه. وكانت تطلُّ من ألوان اللوحة قصيدة سحرٍ وعذوبة، لم يمتلك من قبل ملَكة امتلاكها. ولم يمتلِكها تلك اللوحة. بل ظلّت لي، ومازالت لى وحدي، باسم العمر والتاريخ والزمن الذى مرَقَ سريعاً ونحن منشغلون بالحياة. لعل اللوحة هى قصَّتى أنا مع مهدية. حكاية عشق أخرى لم أروِها، وإنّما ارتوت بها كلُّ الروايات التى كتبتها بعد عبورها

الكاسح. أذكر أنّ روايتي الأولى كانت قد نُشِرت قبل أن تشرق لوحة مهدية على خريفي. وحدها تلك الرواية سلِمتْ لي صافيةً من ظلال وهجها اللاهب. لو تعلَمُ عدد الحكايات التي عاشَتها تحت جلد نساء أخريات كنَّ لي على سرير الورق.. لو تعلَمُ تلك المنزوية بين دروب "أصيلة" الأزياء الكثيرة التي ارتدتها صورُها المبهرة في كل رواياتي، لما قنعِتْ بما رسمتُهُ للوحتها في حكايتنا أنا وعزيز من طُهر وحياء وفتنة...

كم أودّ أن أعيد كتابة هذه الصفحات من جديد.. كم أودُّ أن أضمِّخها بنزق كل الحروف التي لم يقلها خريفٌ لربيعٍ يتهادى. سأكتبها بشكل مختلف.. سأكتبها بعشق مغاير.. وسأختار لها من الألوان أكثرها إثارة.. لن أشرك عزيز في حكايتي عنها. ولن يكون لها ساردٌ غيري.. ستكون لي مثل لوحتِها. ستكون لي مثلما كنت أريد للحكاية أن تكون سِفرَ عشقٍ لا يقبل العتمة، ولا يقفُ طويلاً عند الدروب المقلِقة، ولا يعتد بالأبواب المقفلة أو بالمفاتيح الصدئة. سيكون حبّاً هادِراً لا يطيقُ مفترقات الطرق، ولا يأنس إلى إشارات المرور، ولا يرضخُ لأسفر الممنوعات. يمضي سادِراً في مدِّ أجنحتهِ للرِّيح يعانقها تارة ويخترقها أخرى.. يميل إلى الأسفل حين يريد لحبّاتِ الرَّمل أنْ تقتات على تغريده، ويرتفع نحو الأعلى حين تدعوه السُّحبُ إلى حلُم ارتواء.. سألتقيها بغتةً ذات غروبٍ منسدلٍ بجوار ساحة "الفدَّان"، بعد خطوات عن دروب "المَلَّاح".. هي القادمةُ من أزقة "الطرَّافين" في وجهة لن تكون إلا بيت الأسرة.. وأنا الآتي من زمن الانتظار على تخوم لوحة خرساء. سأعرِفها دون أن تعرِفني. سأمشي خلفها، مثلما يتبَعُ السّاردُ خطوَ شخصياته المنفلتة عن مسار أعدّه لها بكل مهارة وإبداع.

سأتركها تستدرِجنى إلى حياتها دون أن تُدرِكَ أنَّنى رسمتُ لشخصيتها كلَّ الأزياء التى لم ترتدِها فى هذا النص. سألـزمُ الصّمتَ المُستعارَ كظلٍّ أمين، لا يترُك لأضواء شارع "محمد الخامس" أن تستبِدَّ بعد غروب الشمس، وأضعُ نفسى فى تقاطُعِ أحلامها وأحلامي.. لن تأبَه لانبهارى بأحلامها. ولن تنشغِل بمعرفة مزاج أحلامي.. ستمضى مسرِعة، لتلاحق غروباً سبقها إلى البيت بوشاح ظُلمتِه.. وسأعدو خلف خطوها، ومنتهى المسير ماثلٌ أمامى، بابٌ خشبيّ ضخم أعرف شكله ولونه وحجمه وصريراً مزعجاً اخترته فى إحدى الأوراق الآثمة، ليكون شاهدَها المتلصِّص. سأقفُ قربه تماماً، وهى تقفل الباب خلفها، كى ترانى ملتصقاً بظلها.. فى الغد وقبل موعد خروجها الذى أعرفه قبل أن تستعدّ له سأقف قربه تماماً، وأنتظر أن تفتحَ الباب وتخرج لألحق بخطوها.. لن أدَعَها تبتعد كثيراً، ولن ألتصق بظلّها كثيراً. سأترك للشمس أن تغمرها بالدّفء، وللريح أن تداعب خصلات شعرها المُحاصَرة. سأتلو خطواتها برفق بحيث لن أحجب عنها شيئاً. سأدعها ترتشِف بحضورها الجميل كلّ ما تبتغيه من عبورها للحياة. وأتقفّى كلّ حركاتها خارج ذلك الباب الخشبى الضخم. لن أقرِّر السفر هذه السنة إمعاناً فى تأجيل كلّ الملفات الأخرى. لن أُلزِم طلبتى بمرافقتى إلى أيّ مكان. وسأطلب من البوّاب ألا يقفل الباب تلك الظهيرة، لأقف على مقربة من إشراق نورها على ظلال المدرسة. سأحكى لها عن يومٍ بهى ليس مثل باقى الأيام اختارَتْه للقائنا. وسأحكى لها عن مكان زاده جمالاً حرصُها على أن تزوره.. سأحدِّثها عن لوحاتى التى لم أرسُمها، وألوانى التى تنتَظر بجوار حقيبة السّفر.. سأحدِّثها عن مشروع رحيلٍ زادهُ فراشى وأناملِ

خلّاقة، وسجلّاتُ تاريخ الفنون والحضارات المحفوظة فى سراديب ذاكرة محترفة.. سأحدِّثها عن المدارس المختلفة التى طرقت أبوابها، فاستقبلت أحضانى بكل حفاوة. سأريها خريطة سفراتى السابقة بحثاً عن تلك اللوحات التى سترسمُنى.. سأحدِّثها عن مدريد وروما وباريس... سأحكمُ الغواية باسم الفن، عسانى أصير مرشدها الحكيم. سأعِدها بأن أكون مخلصاً لموهبتها.. لن أحدّثها عن فان غوخ أو بول سيزان أو إيغون شِيل أو بابلو بيكاسو أو سلفادور دالي... سأرجِئ كلّ ذلك للقاءات أخرى، تجمعنا فى أماكن أخرى، بمواعيد مسبقة.

سأشرف على أيامها ولياليها. لن تكون لى القدرة على تشكيل حياتها وحسب، بل سأتحرَّكُ فى فضاء اللوحة ذاتها.. وأمارِس وجودى بكل امتدادته نصيّاً وورقياً على قيد الحياة.

لن أسمح لها ذلك اليوم المشؤوم بالابتعاد عن ظل الباب الخشبى الضخم. سأختلق آلاف الأسباب كى لا تغادرَ البيتَ.. سأغمره بالفرح والضحك.. سأخلق لها قدراً آخر تفرّ إليه. أبوها سيعود بعد صلاته إلى البيت لتلاوة قرآنه على تلك الحشية المرتفعة التى يحلو له أن يجلس إليها ضاماً ساقيه تحت فخذيه. وإخوتها سيعود كلٌّ منهم إلى مأواه حين يدرك أن اليوم ليس صالحاً للإقامة بعيداً عن حصون المنازل.. وهى ستكتفى بيومٍ مختلف، لم يكن لها فيه أىّ وعد آخر للحياة يستدعيها بمكرِ إبداعٍ إلى نسج موت لن تختاره لنفسها.. وأنا سأظل حارساً حريصاً على ألاّ تخذل شخصياتى الأثيرة ما ارتضيتُه لها فى نسختى المعدَّلة من هذه الرواية. كم أودُّ أنْ أُجَنِّبَهم جميعاً ذلك المصير الأول، وكأنّه فى اقترابه من نيل ما يرجوه، يضعف كلّ رجاء لى فى مواصلة كتابة هذه الصفحات.

"تطوان" كم لى من موعد مؤجَّلٍ فيك، تذكرينه فى غفلةٍ من خريف أيامى.. كم من حكاية.. كم من تاريخ.. كم من شهادة أراوغها ولا تَلزَمين الصّمت.. كم للدُّروب المنقوشة تحت سمائك من ملاحِم تلحمين فى بياضك كلّ رتوقها.. وتغفرين لنا جميعاً نسياناً نقتَرفه، دون أن تَنسى أنتِ المكتوية بجحودنا عبورَنا بين مرافئ جمالك.

وأعود إليك مستعجِلاً، فى كلّ مرَّة، حنيناً جارفاً يقذفنى من جديد فى رحمك الدّافئ.. أعود صفحةً بيضاء تُفعمينها بذاكرتك التى لا تغفو، وتتغصّين انشغالاتها المستَجِدَّة بالتزامات ماضٍ معتَّق.

كيف لعبورِك أن يكونَ جُرحَ ذاكِرتى التى تنزِفُ نسياناً؟

.. وكيف لعبورك أنْ يكون حلُواً بطَعمِ الدّم؟

«وجدت نفسها بغتةً وسط فوضى عارمة. لم تستوعب ما يحدث. التصقت قدماها بالأرض على غير العادة. كانت تدعوهما إلى الجرى بسرعة.. إلى الهروب.. إلى المشي.. إلي التحرُّك.. أىّ شىء.. لكنهما لم تستجيبا. جمودٌ ماحِقٌ غلّف كلّ خلايا جسدها، وفتَح للتصلُّب البليد صوتَ الرعب، يتسرَّبُ إليها دون أن تنجح في ابتداع ردٍّ فعل ملائم.

كانت الأجساد التى رُميتْ تهوى ببساطة، لتهوى معها آخر آمالها في النجاة. وكان مرأي الدم مرعِباً. الساحة كانت هدفاً لطلقات مرصودة للقتل بجوع لا يشبع. بدا لها فى البدء أنّ الفتيان العُزّل كانوا فى مواجهة عدو قوىّ لا تعرفه يتتبّعهم بالرصاص ومدافع الدبّابات المتحرّكة.. لكنها انتبهت متأخّرة ورأسُها يرتطم بالإسفلت الصّلب، والجسدُ الثقيلُ يرتمى عليها

بعنف، والسائل الدافئ الذى تعرفه من رائحته يغمر وجهها، أنّ المكان لم يكن ساحة للشباب فحسب، بل كانت وجوه أخرى بأعمار وسحنات متباينة، تمرقُ أمامها فى رعبٍ طواها هى الأخرى وأفقدها الوعى..

"إيلوهِيم ناثان.. إيلوهِيم لكاخ."

الورقة الأولى

في يومٍ مضى، لا أفلح في تذكّر تفاصيله كلِّها، لكنّني أذكر أنّ المدينة ارتدت فيه فجأةً السوادَ، كان الألمُ. لم يكن يومي بالفعل، كان يومَنا، أو كان يومَه بمفرده.. لا أدري.. ربما كان يوم البَشير.. وحسب.

أيدفعنا الألم حقّاً عبر مَوانِع النّسيان إلى الكتابة؟ يستدعينا إلى ضفافه ونحن نخالُ أنفسنا ننزِف، لتعيد الكتابة تَطهيرَنا من وشمِ اللون الأحمر. لا يستدعينا إلى ذواتنا عند الألم، أو أثناء اندفاع صرخاتِه.. لا يُخبِرنا قُبيلَ انفلاته من عِقال العَقل عما يؤجِّلُه لنا من صعقات.. وبعد انهزامنا بزمن، تستوي فيه الجِراحُ ناضِجةً بفعل ذاكرة لا تعرفُ النسيان، يدعونا الألم إلى كتابتِه، إلى كتابَتِنا ونحنُ موغلون في أوجاعِه.

لم أتوغّل يوماً في نقعِ ألواني بحمرة الدّم بصخب مقصودٍ للقتل أو القنص.. أو بهدوء مطلوب للانتقام أو للمساءلة.. ولم أرسُم الألم يقِظاً من قبل، لكن إسقاطاته في لوحاتي أمر لا يمكنني نفيه أو دفعه أو تفاديه. ففي كلِّ لوحة كنتُ أعود لأحيا.. كانت سلاحي ضد الضّياع، في اغتراب لم يكن بإمكاني تحاشي انكساراته. في كلّ لوحة كنت أقول: ما زلتُ على قيد الحياة.. على قيد الإبداع.. على قيد الوجود. وفي كلّ لوحة أناشد الأمل مستقبَلاً، غير الحسرة والحنين. لم أغمس فرشاتي كثيراً في الحزن، رغم سُحُبِه المقيمة في قلبي، أو هذا على الأقل ما أعتقده.. حاولت قدر جهود الغربة والبعد والعزلة أن أصِلَ ذاتي بذاتي الأخرى.. تلك التي كانت هناك في مدينتي الأولى.. وتلك التي وجدتها هنا في مدينتي الثانية.. لم أستسلِم

لزحف الألم. قد تكون مقاومتى تلك دون وعى منّى حصَّنتنى ضد غزو الكتابة. وأجدنى الآن فى مُعتركها منزوعَ السلاح أعزلَ أمام ما تقذفِه من أتون المعارك.

للكتابة طقوس لا تشبه الرّسم فى شيء. حين أرسم، تكون اللوحة وهى تحت تصرُّف أصابعى، وجوداً مستقلاً عن ذاتى التى تخلُقُه.. ذلك البياض الذى أعيد تشكيلَه لا يختَطِفُنى منّى إلاّ لكى أستعيد ذاتى مكتملةً.. منتشيةً.. متعالِيَةً.. بعد الخَلْق. الحرف لا يُمتِعُ، لا يمنحنى ذلك الخدر اللذيذ الذى ينقُلُنى إلى مصاف الآلهة فى لحظات التشكيل.. الحرف ينخر.. يجوسُ فى متاهات دواخِلِى التى لم أَلِجْها من قبل.. يحفر.. ويحفر.. وإزميلُه ينحت منّى صخراً لا يستَطيع كلَّ آلام التشكيل.

كنت قبل زمن أستَعدُّ للكتابة.. أعرف أنّها لحظة قادمة، قد تكون مؤجّلةً شيئاً ما، لكنها حتْمٌ مقضى لا بدَّ أن أبلغه فى مساري. لم أكن أفكِّر فى سيرة ذاتية مقنّعة تحت أثواب الرواية مثلما فعل الكثيرون من جيلى والجيل الذى سبقني. انشغالى اختار مرفأ الرواية دون أى بُعد ذاتى. ميلى إلى الرواية الآن ليس غواية متأخّرة أتوّج بها تيهى وسط التشكيل والمعمار. هى وصيّة أتمِّم بها عوالم البذخ التي اختارها لحكاياتنا أستاذى الجليل موشى عِمران.. لم أتوقّع يوماً أن يكون وفياً بكل ذلك التقدير للماضى الذى جمعنا بتطوان. أعرف فيه ولعاً بالمدينة، بتاريخها بثقافتها.. بكل ما تطويه بين جنباتها تلك الحمامة البيضاء من أسفار ودواوين وسجلات لحياة تبتدعُ ألوانَها كلَّ يوم بمزيد من العطاء.. لكننى لم أدرك أنّ ذاكرته تدّخر لأيامنا رواية شغَف يفتتحُ صفحاتِها بقلمه المتمرِّس، ويترك لنا بين يدى محاميه

وصيّة استكمال بقية الفصول.. كيف للقلم المتمرِّس بالحكى والرواية أنْ يُسلِمَ آخِر حروفه لمبتدئ هاوٍ؟ كيف لى أن أتبنّى أمام مواثيق القانون تلك الرواية التى يعتقد بمكرٍ لا يخفيه أنّه سلبنى أبوّتها؟ أيكون للرواية الواحدة كاتبان يتنازعان فتنتَها وفاتنَتَها بِاسم الحب؟

لم أرغب يوماً أنْ يكون مَدخلى نحو الرواية بكل هذا الاحتراز الذى وضعتنى الحياة وسط أشواكه.. سرد لم أصُغْه ولغة ليست لى وحروف أصِلُها بسابقتها، دون أن تكون لى الصلاحية لحكى ما أرغبه منذ المبتدأ.. أنا الراوى المتقدِّم يستفيق من غفلةٍ اصطنعها له الحكى بأرديةٍ لم يخترْها، ليواصل حكى التخييل بلسان الحقيقة.. أنا السارد المتأخِّر أتابع مساراً لم أرغبْه لحياتى فى المرّة الأولى، وابتدعتُ حسب إرادتى مسالك للمراوغة وللصمود وللوجود.. وتُقحِمنى وصية الرَّاحل فى مسار لا أرغبه للمرة الثانية..

هى حكاية ككل حكايات الحياة انتقَى الكاتب مبتدأها على هواه، وترك لضميرى أنا السارد المتقدِّم المتأخِّر ذنوبَ الوفاء. تريد وصية الرّاحل أن أخلِّد ذكراه بشهادة أكون فيها القربان.. يريد، بعد رحيله، أن أمضى على درب سرده لأتابع الحضور فى غيابه شاهداً وشهيداً فى الآن نفسه.. فى فصله الأول، كنت أحكى بملء إرادته عن مهدية. ويريدنى فى الفصول المحدَّدة لإتمام نضج الرواية أن أواصل الحكى عنها وعنّى.. عنّا نحن الاثنين.. عن تطوان مدينته الأثيرة.. عنه، إن شئت ذلك. يريد للحكى أن يكون بضمير سرد نقى لا يُبقى للقارئ شبهات القطيعة أو مفاصل الانتقال.

أتستوى الرغبة بالفعل؟ أتكفى النوايا الطيبة فعلاً لتحصين النفس من

غواية السرد؟.. لم يكن لى قبل رواية موشى عِمران غير القماش أو الكانسون الأبيضين، أسدِلُ على براعتهما خطيئة اللون الذى أشتهيه.. وتشتهى الرواية أن تأتينى على غير هواى.. تزعجنى بتلصُّصِها، بتتبُّعها لكل البدايات التى كانت عنواناً للحاضر الذى أحياه، وللخيبات الكثيرة التى راكَمتْ رصيدى من الأخطاء. كان يبدو لى أنّ نسيان الأشياء أمر صعب، الآن أراهُ أقلَّ إيلاما من تذكُّرها.. لم أدرك النسيان ولن أدّعى بعد هذه الحقائق الروائية قدرتى على النسيان، رغم أنّنى قد حاولت بصدق.. هذه الرواية تضعنى أمام ذكريات كثيرة، ظننتُنى قد ضيَّعتُ تفاصيلَها فى عتمة السنين، لكنها تنبُت من جديد وكأنّها لا تنمحى.. إنها هنا.. إنها أنا الآن.. الذكريات ليست من الماضى.. واهِمٌ من يعتقد ذلك.. إنها الحاضرُ يواصِلُ التذكّرَ.. الذكرياتُ أصدقُ أصدقاء الحياة إخلاصاً.. تلاحقها لتحيا فى عمقها منتظرة سبلاً للتأثير، للاختراق، للأسْر.. وأجدنى أسيرَ ذلك الماضى من جديد.. نكايةً بالحاضر الذى نجحتُ أخيراً فى صنعِه على معاييرى.

مهدية لم تعد مهدية.. وعزيز لم يعد بدوره عزيزاً.. لستُ أخوض حرية الكاتب فيما انتقاه لنا من أسماء.. الأسماء ليست موضع اهتمامي.. لا يهم الرواية حرف ناقص أو حرف زائد.. الأسماء لم تصنع الإنسان يوماً.. قد تضفى بعض السحر.. قد تحجب بعض الألق.. قد تكسر نمطاً.. قد تمدُّ أفقاً.. لكنها لا تبلغ حد تشكيل الذوات أو بناء المصائر. أنا أقصد بقولى ذاك؛ أن مهدية تلك التى يحكيها الفصل الأول بدل أن يحكى عنها، لم تعد موجودة. كانت جنوحَ حياةٍ أقفلت دورات جموحِها حين أمسكت إرادة الفِعل.. قد يكون العالم أقلَّ حرية مما كنا نظن، لكن الحياة لا تقبلُ بين

قلاعِها المتردِّدين.. تطويهم بمحض رغبَتهم نحو الداخل، وتتركهم على قيد الموت يدَّعون الحياة.. أمّا عزيز الماضى فقد يكون بين جوانحى بعض منه.. قد أحمله مختبئاً فى ذلك الطفل الذى لا أريده أن يكبر.. أمدُّه فى كل فترة بما يشغله عن الاختفاء، وبما يمنعه من النضج.. يغوينى الاندهاش فى كل متاهة انفتحت أمامي.. يشدُّنى إليه فى عمق الفرح، وبين أدغال الحزن، وفى أقاصى الانتشاء، وفى شعاب التأمل.. عزيز ما زال فيّ منه الكثير.. غير أننى مختلف.. تلك حقيقة أخرى. لكن لحسن حظ الفصل الثانى، لا يمكن لهذه الصفحات إثبات تلك الحقيقة أو نفيها، لأنّنى أنا سارد موشى عِمران فى حكاية مهدية ضمن الفصل الأول، لم يحْك عن عزيز ولم يحكه.. وأجدُنى الصفحةَ البيضاء التى لم أكتب بعد حروفَها.. يمكننى أن أرسم ذاتى مثلما أريد.. أملك كل المفاتيح بين يدى لطرق كل باب أرغب فى ولوجه.. لى مطلق الحرية فى قول ما يحلو لى عن ذاتي.. تلك الذات التى تتيح لى سلطة السرد الآن أن أصورّها وفق أهوائي، ليست ذات عزيز سارد الرواية الذى اختار له الكاتب اسمى ورسمى، بل هى ذاتى أنا سارد الفصل الثانى بروحه قبل حرفه. لكن كيف أحكى عن ذاتى وأنا أتمّم تلك الحكاية المرصودة دوما لطقوس البداية؟

هى حكاية البدايات المختلفة دون أن تقطع أشواطها نحو نهاية يرتضيها كاتبها الذى تركها يتيمة دهره. كتمها عشرين سنة وحين أعاده الاحتفاء بالحِبْر إسحاق بن الوليد، إلى تطوان مثلما أعاد الكثيرين إليها للاحتفال بذاكرتهم وأمجادها التى تحفظها تلك المدينة العريقة التى يدعونها "القدس الصغرى"، واجه حقيقة الكتمان.. وخفق قلبه بذنب لم يرتكبه، ولم تكن له

فيه جريرة غير الصمت.. فأنطَقنى بحرفه وساعِده وخياله، ونصَّبنى نصْفَ السّرد، وأشرف على النصف الباقي.. ودفع بنا، أنا ومهدية، إلى معترك الحكاية أعزلَيْن من كل سابق معرفة أو تحوُّط من تعريات رواية لم نتَوارَ منها بما يكفي. كان وفاؤه لنا حباً.. وكانت كتابته لماضينا خيانةً. وبين الحب والخيانة يعتصر الماضى قلبى ويعيدنى إلى ذلك اليوم.

مرّت سنة على تسلّمى أوراقه من محاميه.. كنت فى كل مرة أفتحها أقرأ مهدية وأقرأ طيفي.. وأحكِم إغلاق صور ذلك الماضى كى أواصل الحب والحياة والإبداع. لستُ أدرى ما الذى تحدِثه فى تلك الأحرف المسالِمة.. لا أكاد أبلغ صورة مهدية مرميةً على الإسفلت فاقدةً الوعى حتى أفقد السيطرة على ذاكرتى.. ليعود كل ما حاولت نسيانه إلى الواجهة من جديد.. النسيان بالفعل ليس كافياً ما دمنا لا نستطيع العفو. لم أستطع العفو. ولا أقدر على اختلاقه. أعلم أن ذلك الماضى كان حافزى فى الحاضر الذى أقطف ثماره اليوم. أعلم أن تلك العثرات العديدة هى التى صنعتْني. لخيبات الأمل انعطافاتُ تغْنى حياة الإنسان، إن هو أحسن الإنصات لتراتيل الأمل المفارِق.

ليس سيئاً أن يكون المرء سائحاً بين الفينة والأخرى داخل فضائه المعتاد.. أن يقذف عين الألفة بعيداً وأن يرتدى نظارات الاكتشاف.. أن يتجول، ويتجول، فى أمكنته المعتادة لكن بعد أن ينزع عنه ذاته المعتادة.. ذاك ما عشته وأنا أتجول بين محكيات الأوراق الأولى. لكننى لا أحافظ على امتلائى عند الاقتراب من آخر الصفحات. تنسحبُ من داخلى مبرِّرات الاستمتاع بالنظر إلىَّ، إلى ماضيّ، بمنظور يفارِق منظورى وبذاتٍ لم تكنْ

لي، أو هي ليست ذاتي الفعليّة وإنما الذات التي ارتضاها أستاذي لي، أو رآني فيها. قد يكون مبهجاً أن تقرأ عنكَ وأنتَ تطالِع آخِر ما دونتْه أنامل مبدع فنّان.. لكن بمجرَّد أن تعي أنّك لن تقرأ تلك الأوراق بمفردك. وليس بمقدورك منع الآخرين من قراءتها والتلصُّص على محكياتك الحميمة.. تضيع حوافز البهجة.. فالأوراق ستصدر في مغلّف جميل بعنوان لافت، وبرنامج إشهاري وترويجي قيِّم. ودار النشر تنتظرك للبدء بخطوات الطباعة.. إنها رواية عمران الأخيرة. أو هي مسودة روايته الأخيرة. إنها ليست لك، أو ليست لك الآن وحدك. ولقد التزمت قانونياً باحترام شروط الكتابة والإتمام والنشر قبل استلام أوراق الرواية واللوحة. اطّلعت على بنود الوصية وعلى كل أوراق الرواية ومسودة التحضير للفصلين الثاني والثالث. لقد كانت الوصيّة تنصُّ بتدقيق على أن أحظى بالوقت الكافي لقراءة الوصية وأوراق الرواية، قبل البت في قراري بالتنفيذ أو بالرفض.. لكنني في الحقيقة لم أمتلك حق الاختيار.. فكيف أترك حكايتي وحكاية مهدية في يد كاتب آخر لا أعرفه، وإن كان ذلك الكاتب هو ميشيل صديق عِمران الفلسطيني المقيم ببروكسيل، ليتمِّمَ برؤيته الخاصة روايةً تحكيني أنا وتحكي مهدية؟ لم أمتلك حق الاختيار.. ولم يكن لي أن أضيِّع ما كتبه أستاذي عنّي ولو عبر وضعِه بين يديّ من لم يعش تلك الحكاية، أو من لم يكن طرفاً فيها، أو من لم تخالِط عيناه ألوان تطوان وحصونها وأبوابها وأزقّتها الضيّقة.. لم يكن بإمكاني الفرارُ مثلما فرَرتُ في المرَّة الأولى بفضل تلك الأزقة. ولم أتقبَّل أن أترك لآخر أجهَله حريَّة رسمي وتصويري وسردي على هواه ذي النزوع السينمائي. لكن أنْ تدرك أنّك لن تحكي عن أمر آخر سوى ذاتك.. وأنّك

ستبيح لكل قارئ منذ منطلق القراءة أن يشاركك أكثر تفاصيل سيرتك سرّيةً، دون أن تنفعك أى مواربات أو توريات، فتلك متاهة كبيرة.. أنت لم تختر أن تحكى الآن خبرات حياتك ورؤاك وأحلامك.. اختار عمران ذلك.. كان حرّاً وهو على قيد الحياة، ليقيِّد حياتكَ فى رواية.. ويتركك بعد الرحيل تندب قيد القلم الذى ستحررِّ به باقى الرواية..

تلك متاهةٌ قد ورَّطتَ نفسك فيها أيها "السارد بِروحِه قَبْل حَرْفِه"، ولن تجديك المراوغات أو التبريرات أو الملتمَسات شيئاً.. قمْ من مَرسمك واحكِ.. ارو.. اسرد.. ما كان وما يكون.. اكتب عن ذلك الماضى حلوه ومرِّه.. اكتب عنكَ.. عنها.. عن تطوان.. عن الحب الجميل.. عن بدايات التيه والضلال بين أقاليم القلب العاقل وسراديب الذاكرة الموحشة.. اكتب ما عرفته وما تعرفه.. ما لك دون غيرك.. وما لن يُعرَف إنْ لم تُعرِّفه.. ما لم يبلُغه مكتوب عِمران، وما سطَّره ليكون مكتوبَه.. ما غاب عنه ولم يغب عنك لأنه زمنك الذى عشته بمفردك.. اكتب ما لم تَفطِن إليه أوراقه عن حاضرك وحاضرها.. عنكما بصيغة المفرد والمثنى.. عن انصهار الماضى فى حبال المستقبل.. عن وليدهما المنعَّم بالأمل.. اكتب.. اكتب.

إن الرواية، هذه الرواية لحظةَ البوح، لك وحدك أيها "السارد بروحه قَبْل حرفِه".. فاكتب.. واغنم ما شئت وما شاء لك الحرف من فرح وترانيم للأمل.. لا تحاول النسيان الآن.. لا تسْعَ نحو مسالكه. اكتب وحسب.. دعْ كلَّ الماضى يحاصِر حاضرك.. اجعل الذكريات حاضراً يتذكّر.. ويواصل التذكر.. لا تعْفُ الآن.. اعفُ فيما بعد.. اعف بعد إنهاء الرواية.. بعد التزام الوصية.. بعد نشر الحقيقة. لسانك الآن ليس لك.. لم يعد لك.

أنت ضميرٌ مستَتِرٌ لمرحلة غائبة يعلِنُ توبته عن الصمت. أنت ضمير غادر الإفراد وارتدى أفراداً ثلاثة..

صوتُه ذلك الرّاحل الذى نطق بشهادته متأخراً، ليُلقيَ ذنبَ خريفه على انصرام ربيعِي، ويربطَ تقليدَ التاريخ بانحناء هامَتي.. وصوتُها تلك الفاتنة النّاعمة المنفلِتة من قيود الرسم أو الكتابة، الممتنِعة على التصوير والتشخيص، المتحرِّرة من كل القوالب والرَّواسم الجاهِزة.. وصوتُك أنت المغتَرب فى الوطن والمُواطن فى الغربة.. العاشق المباح دمه قبل الموت وبعده.. القربان.. المُشاهِد والمُشاهَد والمُشهِد والمُشهَد.. اكتب فضميرك حيٌّ، والغياب قبرٌ لا شاهِد ينتصِبُ فوق ثراه.. اكتب بصوتك وصوتها، عنكما معاً، عنها وعنك. واغفر له ذلك الرّاحل بروحه المخْلِصة وجسده المتفانى ورطةَ الشّهادة المتأخِّرة. يكفيه ما جاهدَه من ألم لتغتَسِل حروفه الأخيرة من كل الذنوب.. يكفيه ما كابده وهو يصارع الحياة كى لا يخذِل الأمانة برئةٍ واحدة وحيدة.. وفِّه حقَّه مثلما وفّاكما حقَّكما.. وخلِّدْ ذكرَه، فلم يدُر فى خَلَدِكَ يوماً، أنْ يخصَّك أستاذك - بين رواياته الجميلة - بالرواية الأخيرة التى ستَلْهَجُ بها أنفاسُ احتضاره.

اكتبِ أيها "السارد بروحه قبل حرفه".. دربُ الحكى سالِك.. وآلام الماضى تنتظر يدَك المربِّتة.. الرواية ستحتضنك بكل الرّحابة.. تحتضن حقيقتك، وتحتضن خيالك.. منازلك ومجازاتك.. أوهامك وأحلامك.. وسيحتضنك القارئ بكل الحب.. لن يتلصَّص على أسرارك وسرائرك.. سيراك بعينى قلب العارِف.. سيرى روحك فى سموِّها.. وجسدكَ فى تعاليه.. سيرى فيك ذاته.. سيرى فيك آيات الخالق.. وسيغدو للرواية وجود مكتمل وروح حيَّة.. اكتب أيها "السارد بروحه قبل حرفه".. اكتب. وسترى.

الورقة الثانية

كنتُ ألتمسها فى الغياب طيفاً يسافر إليّ من هناك، حيثُ كانت تقبَع مستسلِمة لنوازع تأملاته. أستدعيها لأعانق فى خيالاتها دفء الجسد الشهى المرسوم بانحناء الريشة، وانتصابِ البياض المرتَبِك. كانت لى ما شئت وما شاء لى اشتعال الاشتهاء فى مفاتن اللون النديّ، تلك الليلةَ وأنا أرسمها بجنون فى ذلك اليوم البعيد.. البعيد. لكن الاشتعال كان سريعاً وحارِقاً.. تركنى موزَّعاً بين المدن شريد الحُلم هائم المقادير.. هى الآن مستحيلة تلك اللوحة.. منيعة.. بهية. لكنى أواصلُ العشق المرصود للطى والنشر، بكثير من الارتياب. لم أقصد أن أتابع مسارها روائياً. لكن مشيئة اللوحة الخارقة كانت أن تتوسَّط غرفةَ مكتبه ليتابِع فرحَها المقتَنَص فى غفلة من الزمن الهادر. وكانت المشيئة كذلك أن أهفو إلى ما لا نهاية التوق، إلى تشكيلها من جديد بألْف لوْنٍ ولون دون أن يستَتِبَّ للصَّفاء ذلك الألق الذى كان له فى ذلك اليوم البعيد.. اللوحة ما زلتُ أحملها بداخلى.. نابضة بقلبى وقُربى.. لم يكن لكل اللوحات التى استنسختها لها طوال السنوات التى مرَّت أن تكون هى. هى لى، ويمكننى أن أعيد رسمها آلاف المرات، لكننى لا أرسمها هى بل أعيد ظلالها الشاحبة. وأرسُمها فى كل مرّة بلوحة جديدة.. من الغريب أن تظل مؤمناً لسنوات العُمر بحقائق لا يعتورها أدنى احتمال تشكيك فى ظنك. وتكتشف عند أول اختبار ذاتى حميم أنّ تلك الحقائق لا تعدو أن تكون أوهاماً تغذَّت على فائض الموضوعية وادِّعاءات الحياد.. اللوحات أرواح لا يعاد خلقُها.. تلك الضربات الخفيفة الرشيقة الناعمة

المتأنيّة المسترسلة المستفيضة السريعة القوية المفعمة الثقيلة... لا تستعاد أبداً.. إحياءُ اللوحات أو ترميمها أو تقليدها أو نسخها.. يظل كذلك اسماً على مسمّى، لأن روح اللوحة الأصل لا تلاحقها أيه فرشاة.. ولو أمسكها المبدع ذاته بعد أسبوع أو شهر أو سنة أو عمر.. اللوحة فريدة خلْقها.. فريدة لحظتها.. فريدة روحها.. والروح لا تُشكّل أو تُستَدعى أو تصنَّع.. الروح لا تعبّأ فى ألوان أو أقلام أو فراشى أو... الروح تَعالى معنى عن التجسيد.. أكتشف فى محاولاتى العديدة والخلّاقة والنّاجحة لاستعادة لحظة إشراق تلك اللوحة أنها لا تُستعاد.. لوحاتى التى أفرغت عليها روحى مبهرة مميّزة تسحرني.. حين أطل عليها بعد ابتعاد أحرص متعمّداً أن أطيلَه كى يفارقَنى نفَس التشكيلى وتغمرنى حصافة الناقد، أراها بعين أخرى ويبهِرُنى ما أراه.. لكنّها ليست هي.. لست مغروراً. لكننى قد راكمْتُ دون ادعاء، فى كل سنوات خبراتى مهاراتٍ تشكيلية مشهود لها بالبراعة والجدة والابتكار.. غير أننى أصل فى أكثر محاولاتى الإبداعية خلقاً ونجاحاً لاستعادة لوحة مهدية الأولى، إلى رسم لوحة جديدة فى غرفة مَرسَمي.. غريب كيف تغدو تمارين الصباغة الأولية أكثر موضوعيةً من كل تمارين الحياة التى ستعقبها.. ويصبح حرصُكَ فى توقيعاتك التشكيلية ليس على السخاء أو الفيض أو الاحتراق.. تغدو حريصاً على ادّخار بعضك، بعض من ذاتك وروحك وإلهامك لما سيأتى من لوحات لم ترسُمها بعد، وإن كنتَ تحيا لكى ترسمَها، لأنها الأجمل بين كلّ ما رسمتَ لحدود الآن.

فى ذلك الماضى البعيد.. فى صبيحة ثلاثاء السابع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٨٤، رسمتُ لوحتى الأولى.. ما رسمته قبلها كان محاولات لولوج

التشكيل، لا غير.. تلك اللوحة كانت شهقتى الإبداعية.. كانت ولادتى فنِّياً.. كانت مسقط روح الفنّان.. كانت بصمتى الفريدة التى ضيَّعتُها حيت تركتها على الحامل خلفى تجفُّ على مهل.. فجفَّت بدلاً عنها دماء الكثيرين، وما جفّ عرق لهات ركضى فى الدروب الضيِّقة..

حين تركناها ظهيرة ذلك الثلاثاء وأغلقنا خلفنا الباب، كان مفتاح الأستوديو الجميل فى جيب معطفي.. كنت مزهواً بما ألتقطه من إشارات قدر يانع.. شوقٌ حارق يعتمل فى الجوانح يخبرنى بأنّنى لم أعد ذلك المحلِّق الفرد، وأنّ ألفة تختِمُ ببصماتها المرهَفة على قلبى المنتشي.. ومدرسةٌ فنية مختلفة تفتح لى نوافذ عوالمها المغرية، وبجوارى من يقود خطو قدميّ وسياحة أناملي.. وكبرى مدُننا مدينة الدار البيضاء التى كانت منشغلة فى تلك الأيام بقمة المؤتمر الإسلامى تعانق حضوري، وتمنحنى أول ما أطرق أراضيها حيزاً فنياً وعزلةً إبداعية ومفتاحاً، يضعنى وسط ذلك الحيز وتلك العزلة متى شئت.

بداية الأسبوع.. ذلك الأسبوع فى ذلك الماضى البعيد.. البعيد، لم تكن تشبه بداية أى أسبوع آخر.. وما كانت نهايته، قطعاً، تشبه نهاية أى أسبوع آخر.. بين البداية والنهاية فى أسبوع واحد.. تناثرت فى سمائى كل ألوان الفرح والأمل والشّغف.. وتطايرت على أرضى كل ألوان الحزن واليأس والحقد.. كم عقدتُ من آمال على تلك البدايات المبهِجة.. كم رسمتُ من أحلام ورؤى وأطياف.. كم شيّدت فى بداية ذلك الأسبوع للغد القريب والبعيد من صور وأشكال وأبعاد، لا تختلف كثيّراً عن تلك التى تداولناها فى الحديث مزاحاً أنا وعمِّى البشير، قبل سنتين حين كنت أحمل بين يدى

اللوحة الفنية التى أهدانى إياها، مشاكِساً ميلى إلى التشكيل ومبارِكاً حصولى على شهادة الباكالوريا بتفوق. كان قد وجد اللوحة فى طريقه إلى المنزل، يبيعها رسام هاوٍ يعرضها إلى جوار لوحات أخرى على الرصيف الأيمن لشارع "محمد الخامس" بين مبنى الإذاعة ومبنى المكتبة العامة والمحفوظات. فوقر فى نفسه أن يساعد ذلك الرسام، ويضرِب كل عصافيرى المحلِّقة فى سماء الحلم بمنظر رومانسى واحد لشاب وفتاة يقتعدان كرسيا وسط حديقة، تتناثر حولهما ندف الثلج، وتغمر باقة الورد الأحمر التى تحملها الفتاة بفرح.

كان أكبر منّى ببضع سنوات لكننى لم أتمكن يوماً رغم التقارب الذى يلفّ علاقاتنا، من مناداته باسمه حافياً من صلة القرابة.. كان صديقى وكنت أنسى أحياناً بحكم تبسُّطِنا فى الحديث أنّه شقيق أبى الأصغر.. كنت حريصاً على المواظبة على زيارته فى شقّته بـ"حى المحيط" بالرباط، أو انتظار إطلالته كل صيف حين يقبل علينا لمشاركتنا بعضاً من عطلته المدرسية. كانت صلتى به أوثق من أعمامى الذين يقطنون إلى جوارنا وسط مدينة تطوان أو وسط "مارتيل". لا أعتقد أن الأمر كان يعود فحسب إلى التقارب بحكم العمر، بل كانت رؤانا متشابهة، ومنظورنا للحياة يمضى فى الوجهة ذاتها.. كان يمازحنى بلسانه الفرنسى وهو يمنحنى تلك اللوحة بألوانها المائية: "ها مستقبَلُكَ بين يديك، تشكيل فنّى وحديقة زاهيّة، وفتاة جميلة تشاطرك المقعد الخشبي، وورود حبٍّ تتفتَّح بين أحضانها". لم يحدِّثنى عن ندف الثلج التى كانت تتساقط على اللوحة من جميع الجوانب. حين بادرته بالسؤال فكَّر قليلاً، ثم أجابنى بفرنسيته الجميلة، وحاجبه الأيسر معقوفُ نحو الأعلى بتلك الحركة المعهودة فيه عند بوادر الشغب: "لنقلْ إنّكما فى رحلة شهر عسل نحو موسكو."

.. كم كان الشغب رؤيا صائبة.

بقدر ما كانت رؤى بداية الأسبوع صافيةً ومشرقة وفرحة، أتتها العواصف في المنتهى لتقصِف عمرَ تلك البراعم اليانعة. حلّت العاصفة ولم تكن ندف ثلجٍ بيضاء نقية يسرُّ مرآها الناظرَ، ويبعث جمالُها في القلوب دفء الانتشاء. كانت الريح هوجاء أذْرَتني مثل الهشيم.. اقتلعتني العاصفة من جذوري، وطوّحتْ بي في متاهات الاغتراب والغربة.. وضيّعتْ أحبّتي، مثلما ضيَّعتْني.. لم يعد للفتاة حينها وجود.. وورود الفرح تلاشت أوراقها.. والمقعد الخشبي بدوره لم يفلح في الصمود.. انجرفت كل تلك الحديقة الزّاهية مع نهاية الأسبوع.. وانمحت، وكأنّ تباشير الصباح المشرق التي ترنّمتْ بها ألوان بداية الأسبوع، كانت أطياف حلمٍ لا يمكن تلمُّسها. كم كانت طاقتي للحياة صاخبة مساء ذلك الثلاثاء.. شهيتي للفرح والحب كانت نهِمة.. عدتُ إلى المَرسَم حوالي الثامنة مساءً لأجد اللوحة في انتظاري على الحامل.. غصتُ في لهفتي من جديد.. أعدتُ احتضان تفاصيلها.. ارتشفتُ على مُهَل كل ذلك السِّحر الذي تومِضُ به عيناها.. رغبتُ في أنْ أعانقها، أنْ أحملها بين ذراعيّ عائداً إلى تطوان، ومخطِّطٍ فرحي بيوم الخميس يسبق شوقي إليها. كان شوقي إلى صاحبة اللوحة يكبر في غفلة مني، تلك الجميلة التي أراها أمامي ولا تعرف ما الذي أخبِّئه لها من اشتياق وشغف.. لكن الألوان الرّطبة خذلت انتظاري، وتواطأت على لهفتي بمقصّ شرِه.. وانتبهت متأخِّرا إلى خُدَع الزيت الذي يصبَغ اللوحة ولم أستعِّد له بما يكفي من صبر وانتظار. ليس بإمكاني أن أحمل اللوحة معي الآن.. وليس بإمكاني أن أباغت مهديّة بهديتي التي ستقول لها ما لن أجرؤ على قوله في موعِدِنا

الأول.. تلك سيرتى مع اللهفة. كلماً أردتُ أن أفعل أشياء كثيرة، كثيرة فعلاً، لا يسعُها إلا خيالي الخِصب، ينتهى بى الحال إلى عدم فعل أشياء كثيرة.. وقد ينتهى بى الحال إلى عدم فعل أى شىء إطلاقاً.. ذاك كان عنفوان زمن مضى؛ حيثُ كلُّ شيء يتعلق بلحظة، بلحظة واحدة، تلك اللحظة التى تمضى سريعاً ولا تعود. كنت أسابقُ الزمن.. لحظاتٌ عديدة خذلتني. وأخرى عديدة خذلتُها. بيننا كان الزمن فرَسَ سباق المسافات الطويلة.. لم تكن لى فى الماضى تلك اللحظات التى عولّتُ على اقتناصها.. ولم يكن للحظةٍ مضتْ أن تعود ثانيةً إلى الخلف.. أدركت حينها وخيبة أملى السرّى يخبو ألمُها أن اللهفة قد ضيّعَتْ حواسي، وأربكتْ تبصُّري.. وفطنتُ إلى سرّ ذلك المفتاح الذى يدفئ جيب معطفي.. كان أستاذى يدرِكُ وهو يستعدُّ لإقلاع الطائرة المفارِقة، أنّ لوحتى التى رسمتها بفائض الشوق ستظل زمناً على ذلك الحامل، ولن أفلِح فى اقتلاعها عنه مهما حاولت.. لذلك وضع مفتاح مرسمه بين يدى دون أن أطلبه.. أستاذى رحمه الله منحنى مفتاح مرسمه كى يسهل عليّ أن أعاود زيارة لوحتي، فى انتظار أن تفارق حامِلها.. فتركتها خلفى مرّةً ثانيةً وأنا أغادِر مدينة الدارالبيضاء فى اتجاه الرباط. وتركتها مرَّةً ثالثة وأنا أغادِر المغرب فى اتجاه إسبانيا.. وحين وجدها بعد عام من رحيلنا على الحامِل نفسه، حملها إلى مدينتنا. وأفاجأ بعد رحيله النهائى عن دنيانا، بأنّه قد أورثنى روايته عن تلك اللوحة الأثيرة، وأعادها إليّ تلك اللوحة الأولى، مسقط روح الفنّان الذى أنا هو..

كم من غنائم للحظة سريعة مرَقتْ دون أن نغنَمها وفق إرادتنا.. وكم من هزائم للحظةٍ منحناها أرواحنا، فانصرفتْ دون أن تغتَمَّ لجِراحنا. أغلقت

باب الأستوديو خلفى تلك الليلة للمرة الأخيرة وأنا أعتزم العودة إليه بعد مدة. كنت أجهل أننى لن أعود مطلقاً فى تلك السنوات. كنت أجهل أن زيارتى الأولى للدار البيضاء قد تكون كذلك الزيارة الأخيرة.

ألم أقل إنّ بداية ذلك الأسبوع كانت واعدة بالكثير، ونهايته كانت مريرةً وفاجعة؟.. لم تنتظر الفاجعة نهاية الأسبوع، بل أطلّت غربانها منذ ذلك الخميس الموعود للفرح والموسوم بالدم والسواد.. حملتُ معطفى فوق كتفيّ وتوجهت إلى محطة "بْنْجديّة" قاصداً مدينة الرباط. لم أرغب أن أقضى تلك الليلة فى سفر ممتد نحو تطوان، وكان وجود عمِّى البشير بحى المحيط يدعونى إلى وقفة استراحة أصلُ فيها قربَه، قبل المغادرة باتجاه مهدية.. كنت أعلم أنّ ساعات عمله ليست مشحونة كثيراً، فقد فسّر لى مراراً أنها تُتيح له وقت فراغ يمكننى السطوَ عليه.. كان عاشقاً للعلوم نابغة فى الرياضيات، ترصّدت خطواته فى تطوان دون أن أعى ذلك حين فارقتُ ثانوية القاضى عيّاض وانتقلتُ إلى ثانوية جابر ابن حيان حيث قضى مرحلة تعليمه الثانوى منذ سنوات.. كان تدريسُه لمادة الرياضيات بثانوية عريقة فى قلب مدينة الرباط، أمراً يسعده كثيراً، بالنظر إلى الصلة القريبة التى ظلت تربطه بجامعة محمد الخامس حيث درس، وبأساتذته تحضيراً للأطروحة التى يستعد لإنجازها.

لم يكن متاحاً إخباره بقدومي، كانت المفاجآت امتياز ذلك الزمن الماضى فى جميع الجوانب. فأنت تتحرّك بين فضاءات المدن دون نظام تحديد المواقع ودون هواتف محمولة أو ذكية.. وباذخةٌ هى الهواتف الثابتة التى تتصدّر المجالس وصالونات المنازل لتنتظر أخبارك.. جرس الباب الأعزل بمفرده

يعلن حضورك عند الوصول.. لذلك تتصيّد الأوقات التى سيكون مضيفُك حاضراً ببيته كى لا تظل حارساً للعتبة تنتظر.. وكانت تلك خطّتى.. بلغتُ بابه متأخِّراً واليقظةُ تفارق عينيه النّاعستين.. كان مثل المخمور يقاوم بكسل خدَر النعاس.. لكن حضورى أطلق لليقظة مرمى ساعات احتفل فيها بزيارتى غير المتوقّعة.. كان الزمن فيما بدا لى ملائما لأن أحكى له مثل العادة عن جديدى.. عن حديقتى الزّاهية وعن الفتاة والورد الأحمر. فلحقتُ به إلى المطبخ أسامره وهو يحضِّر عشاءنا الأعزب.. حكيتُ وأسهبتُ. وكان ينصت بتمعُّن وحذر أدركته فيه على غير معتاده.. كان أول من شاركته تلك البداية اليانعة، وآخر من أطلعته على تفاصيل قصة أوغرتُها فى صدرى وأنا أغادر تطوان خلسةً. لم يسألنى كثيراً.. ادّخر فيما يبدو كلّ أسئلته للغد. كان ينصتُ وينصت. وكنت أتحدّث وأتحدّث بإسهاب.. عن البارحة، عن الغد ويوم الخميس وعن أيام أخرى من المستقبل شرعتُ فى رسم ملامحها وتقصّى تفاصيلها. لم أدرك سر تلك الحالة التى أبعدته كثيراً عن الفرح الذى كنت أسكبه فى إقبالى على الحب. حاولت أن أجد لسؤالى جواباً، فغلبنى التعب. أرجأت استفسارَه إلى الغد. فليس هناك ما يمنعنى من مواجهته صراحةً بقلقى من الفتور الذى كان يبديه، وأنا أشاركه أسراري. نمنا تلك الليلة.. أو نمتُ باستغراق لم أشعر فيه بأدنى حركة. صباحاً أدركتُ بالنظر إلى ملامح عمى البشير أنّنى قد كنتُ النّائمَ الوحيد، فرغم ما كان يبدو على محيّاه عند قدومى من علامات النعاس لم يتمكن طوال الليل من صرف الأرق الذى ألمّ به.

وهو يشاركنى بإصرار استغربتُه بسذاجةٍ مفرطة حينها طريقَ العودة نحو تطوان فى تلك الليلة، لم يخطر على بالى ما كان يشغل بالَه فعلاً. كنت

أعتزم العودة ظهيرة الأربعاء، لكنه أقنعنى بتأجيل سفرى لساعات قليلة كى نتشارك الطريق والرحلة. تركنى فى شقّته وغاب اليوم بأكمله. عاد متعَباً فى ذلك المساء بعد أن أنهى مهام يومه فى الثانوية ورتَّب أمر غيابه ليومين.. فى طريق السفر على متن الحافلة بادل سؤالى الفريد بأسئلة لا حصر لها.. أظهر، رغم تعبه، الكثير من الاهتمام الذى استدعانى من جديد إلى الحكى باستفاضة.. أشبع بشكل عفوى رغبة الطفل الذى أتحدثُ بصوته راشداً.. أشبع رغبة ذلك الطفل فى إثارة انتباه المحيطين به والاستئثار بانشغالهم وعنايتهم.. كنت طفلاً فرِحاً وأنا أتحدث باسم ذلك الانخطاف الذى يتملّكني، حين أستدعى طيفَ مهدية التى كانت فى ذلك الأمس القريب.. فى ذلك الأمس البعيد. حدثته عن اللوحة التى تركتها خلفى على الحامل تجفّ.. حدثّته عن مفتاح المرسم.. عن عشق مهدية لفنونِ الرسم والتشكيل.. تركنى أحادثه فى كل أطوار الطريق.. منحنى قيادة الحديث، وكان يجارينى باهتمام يدعونى إلى إفراغ كل ما فى جعبتى السريّة.. لكننى فى عمق ردوده وأسئلته كنت أدرك أنّ انتباهه كان مشتّتاً، أو لم يكن أمامى صافى السريرة.. كان متضايقاً عكس ما كان يوهِمنى به.. أدرك التعب الذى كان واضحاً على قسماته، لكن الأمر كان يتجاوز التعب أو الإجهاد.. أخبرنى ونحن نقارب الوصول إلى تطوان ما كان يزعجه.. أخبرنى عن ما تعيشه منذ أسبوع مدن وبلدات عديدة فى وسط المغرب وفى شماله من أجواء مشحونة. أخبرنى عن ما يتردّد عن الاستعداد الذى يهيئ له الوسط الطلابى لتخليد يوم المعتقَل الأربعاء المقبل.. عن الإضرابات الاحتجاجية العديدة التى تشهدها صفوف التلاميذ فى المؤسسات المدرسية، والمظاهرات الشعبية

التى شهدتْها بعض مدن الرّيف فى تعبيرها عن الضيق بسياسة التقشف وغلاء الأسعار.. أطلعنى على علامات كثيرة تنذر بأن الاحتقان يوشك على الانفجار.. وكان يخشى أن تتكرر مأساة انتفاضة يونيو بالدار البيضاء، التى عاين عن قرب أحداثها سنة ١٩٨١، كان يخشى أن تتكرّر وأن تعم مدناً أخرى.. كان يبوح لى دفعةً واحدة بكل هواجسه وأفكاره التى حجبها عنّى البارحة، وقضّتْ مضجَعه.. لم يترك لى فرصة لمشاطرته ما يتحدّث عنه.. وكأنّه يعفينى طوعاً من الخوض فى ذلك الحديث الذى يدرك أنّه يحرّكُ فىّ شجوناً لا يستطيع غيرُه توقُّعَها.. لم يكن ما يخبرنى به جديداً علىّ. ولم تكن تلك الأخبار بالغريبة على مسمعي.. كنت أعرف الكثير.. وما زلت أعرف الكثير.. قد لا أكشف كل الأشياء الآن.. قد لا أبوح بما أعرف فى هذه الرواية.. لن أتخذ وصية أستاذى عِمران مطيَّةً لرسم صورتى الشخصية.. لن أصحِّحَ بها ما قيل عنّى، أو ما لحِق سيرة انسحابى أواخر شهر سبتمبر لسنة ١٩٨١ من الاتحاد الوطنى لطلبة المغرب أثناء مؤتمره السابع عشر من أقاويل.. لا يهمنى فى سياق هذه الرواية أن أحكى ما رفضت الحديث عنه لسنوات عديدة.. قد يأتى أوانه.. حينها لن أكون مجبراً على الالتزام بمسودة عملٍ حرَّرها غيري، وقيَّدنى بالسير على خطى أسطرها.. حينها سأكون حرّاً بالفعل فى قول ما أريده وفق ما أريده بالكيفية التى أريدها.. قد لا تكون لوحة مهدية حينها ملء القلب والعين والخاطر.. قد لا يكون طيف عمران المتواطئ خيالا مخاتِلاً يلقى بظلاله على الأحرف التى أكتبها، والصفحات التى أطويها.. لكننى سأكون حينها الكاتبَ والساردَ والشّاهدَ.. وقد أكون المؤرِّخ.. فالحقيقة التى لم تُسجَّل تظلُّ وجهاً محتمَلاً

وخفيّاً لا صوت يظهره أو يثبتُ صدقه.. أوجهُ عديدة قائمة لها كلُّ الحق فى السطوة والسيطرة والسيادة لأنها قائمة.. كثيرةٌ هى الحقائق التى تطويها الصدور، ويعجز من يمتلك قلم التأريخ أن يخترق أسرارَها.. سأجلو يوماً عنّى التأجيل.. وسأحكى ما عرفتُه وما أعرفه.. سأحكى ما عشته وما شهدْتُه.. يوماً ما سأكشف كلَّ الحقائق.. لكنى الآن ملتزم بوصيّة الكتابة وبمسودتها.. وسأكتب ذاتى فى ضوء ذلك.. سأكتب مهدية.. سأكتب تطوان.. أما تفاصيل ذلك الماضى الآخر، فأتركها للغد مشروعاً مؤجّلاً..

الورقة الثالثة

كنا نردِّد كثيراً ونحن نقتطف ثمار الفواكه الناضجة، "ألذُّ الفواكه الفاكهة المسروقة". لم تكن مسروقةً بالفعل تلك الثمار التى كنّا نتلقَّفها قبل أن تسقط.. كان سكان قرية "تَارْغَة" الجبلية البحرية المتوسّطية يتيحون أشجارهم للزائرين بكرم وإلحاح.. وكانت الثمار تتدلّى بإثارة لا نفلح فى مقاومتها.. مهما ادّعينا الاتزان والنضج.. يكفى أن نمرَّ أمام رائحة تلك التِّينات المحرِّكة لكل أشجان الاشتهاء، كى تمتدّ الأصابع لتداعب دمعات حبّات التين الدَّبقة، ولتلتَصِق بحليْمات الحليب المندلِق.

كانت "تَارْغَة" حين نغزوها بصخبنا الهادر خلال فصل الصيف تفارق الهدوء الذى كان لها فى باقى الفصول، وترتدى ضجيجنا. منذ اليوم الأول لوصولنا يكون الخبر قد عمّ كلَّ السكان.. كنّا نختارها كل صيف مكترين بيتاً مستقلاً يسع تِعدادنا الضخم، يقف بإطلالة سخية على المرتفع الصخرى الصّلب، ويترك الساحلَ زرقةً منبسطةً تصافِح النوافذَ والشرفات والأسطح. حاولنا تجربة المصيف فى "آزْلا" وفى "آمْسَا" وفى "واد لَوْ"، لكن الألفة كانت تعيدنا إلى ذلك البيت الذى أصبح وكأنه ملكية محجوزة لعائلتنا كل سنة دون اتفاق مسبق. عمى البشير شاركنا ذلك المصيف لسنوات.. بل كان يسبقنا أحياناً لنلحقه على دفعات.. كم كان يحلو له أن يجهِّز المطبخ بكل المؤونة قبل وصولنا، ويعد لنا حفل السمك الشهى يوم [illegible]ول.. كان يستمتع بجولات اقتناء المواد والحاجيات من الأهالى فى [illegible] ومن وسط القرية.. وكانت له علاقات مميّزة مع البحّارة

تُفرِغ على مائدتنا طيلة المصيف أشهى السمك المتوسطى وأطرى لحومه.. كان ينسى الفرنسية التى علِقت بلسانه ووجدانه، ويخوض بلسان جبلىّ مع الساكنة فى أحاديث طويلة لا تنقضى.. أخبار البلدة فى سنة كاملة نجدُه قد جمَّعها فى أسبوع واحد حين نلحقه. لم يكن أبى المحامى المبجَّل رحمه الله، ينجح فى التواصل مع أهل القرية قدر نجاح أخيه الأصغر.. أما أمّى المُدرِّسة فكانت تعتمد على عمّى فى كل شيء.. كانت تَعدُّه ابنها الأكبر منذ احتضنت التحاقه بثانوية جابر ابن حيان، وأصرّت على أن تخصَّه بغرفة فى بيتنا بدل أن يظل متنقِّلا بين منزل جدِّى وزوجه فى "مارتيل" والثانوية بتطوان.

كانت كل الثمار مباحةً لنا على كل أغصان "تارغة".. وكان لعمّى البشير كل الحق فى اقتطاف ما يشاء طيلة فترة الصيف.. لكن ثمار التين التى كنّا نلتقطها من تلك القرية الغافيّة على جبال الريف كانت ألذ ما استطعمناه من فواكه فى كل العمر.. كنّا قد اعتزمنا آخر الصيف الماضي، فى آخر مصيف جمع متفرِّقَنا، أن ننفرد برحلة ثنائية العام المقبل نستكشف فيها "السطيحات" و"امْتَار" و"الجَّبْهَة"، بعد أن تستقر أحوال الجميع بـ"تَارْغة". وكنا نتمنى أن تبلغ استكشافاتنا شرقاً مدينتى الناظور أو الحسيمة.. كان من مخطَّطات الرحلة أن نتذوق فواكه الشريط الساحلى الذى سنزوره.. كنّا سنغِير على الثِّمار الناضجة ونقطفها قبل أن تسقط على الأرض وتضيع.. لكن الأيام لم تترك لنا فرصة تنفيذ ذلك المخطّط إلى اليوم. ظلّت الثِّمار هناك.. أو قطفها غيرنا.. أو سقطت فى غيابنا.. أو فسُدتْ ككلِّ الأشياء التى لحِقها الفسادُ.. لم أقطف تلك الثِّمار.. ولم تبلُغها يداً عمِّى البشير..

سقطنا معاً قبل أن يحين أوان سقوط الثمار.. أو سقَطْنا قبل

أن تيْنع أزهارها وأزهارُنا كذلك.. كم للسقوط من كَمين.. وكم من كمين لعثرةٍ واحدة.. وكم من عثرةٍ لحبٍّ خالص، تحمِّلُكَ أوزارَ من خذلتَهم، وأوزارَ من خذَلَتْهم الأيامُ حيثُ خذلَتْكَ.. تنوء بثقلها تلك السنين التى مضتْ وأنتَ تستعيدُها.. تنوء بأحمال الماضى التى ما زالت فوق كتفيك.. تنوء بإثم هروبٍ كان أقصى ما تستطيعُه شجاعةُ كلِّ مقدام.. تنوء بحسرة تلك الأيام التى تبسَّمت فى وجهكَ صباحاً لتقتطِعَ منكَ فى لحظةٍ واحدة.. فى ثانيةٍ واحدة.. العمر كلَّه.. لتَتيه فى دروب لم تختَر المشى فيها من قبل.. لِتحترف الغربة قبل أن ترتوى من ندى الوطن.. لتقتَرِفَ بالحُبِّ كلَّ الذُّنوب التى تساوتْ مع جريرة غيابك..

بضغطة واحدة على الزِّناد تشتعلُ آلاف الحرائق على امتداد مدن وأجساد وتواريخ.. ويغدو رماداً زهو البدايات الجميلة.. تغدو كل المنى التى تفتّحت فى غفلةٍ من الزمن، بداية الأسبوع، مماطلةَ أسبوع مخاتل.. لم تكن الحرائق لكَ، لم تكن وازِعها، لم يكن لكَ فيها أدنى حظ سوى الهروب والهروب والهروب.. مضيتَ تجرى وتجري، وتركت خلفك كلّ الذين تحبُّهم.. ذهبتَ أنتَ وحدكَ، وتركتهم خلفك جميعاً.. وتركته هو كذلك خلفك. تركْتَه.. نسيْتَه.. نسيتَ أنْ تكونَه للحظةٍ كى تظلَّ رفيق دربه العسير.. مضيتَ بخطاك تسابق قدراً كانَ لكَ، فأخلَفَ اللّحاق بك، ذلك القدر، ومال نحوه ليعتقِلهُ بديلاً عنك.. إنّه يشبِهك فى كلِّ شيء.. يكاد أن يكون أنتَ.. يكاد.. أنْ يكونَك.. لكنه ليس أنتَ.. مضيتَ دون أن تلتفت إلى تجليّات الغد الذى ينتظِرُكما معاً..

زارنى بعد رحلتنا تلك إلى تطوان بحوالى ثلاث عشرة سنة. كنتُ قد فارقت "مَالَقا" حيث بدأت طريداً، و"مدريد" حيثُ تحولتُ إلى لاجئ، نحو

"إشبيلية" حيثُ ارتديتُ أندلسيّتي من جديد، أنا الموريسكي المغترب حيث حللت.. لم يكن لي من قبل صلة بأندلوسيا، ذلك الحنين نحو الأندلس الفيحاء.. لكنني ولِدتُ من جديد هنا بإشبيلية بعد أن فشلتُ في أن أموت مراتٍ حين ترصَّدتْني للقنص أكثرُ من طلقة، وترصَّدني لليأس أكثر من احتراق.. أنا طائرٌ يحلِّق بأنين لا يهدأ، يسارع لاختراق الريح بأجنحته.. يريد أن يذهب إلى "هنا"، حيثُ أنا الآن.. يريد أن يذهب ويختبئ بعيداً كي يموت.. لكن الحياة هروب آخر.. والهروب موتٌ يتلبَّسُ الانتظار.. والانتظار حنين إلى زمن مضى هناك. وبقيتُ أنا هنا.. أنا الحنين إلى نبع كان هناك حيثُ ظلّوا هم جميعاً، تركته قبل أن يلتفت إلى ظمئي.. قبل أن أمد يديّ لاغتراف شربته الزّلال.

ماتَ أبي ولم أودّعه. مات ولم أره. مات ولم يكن لي أن أحمل نعشه، لم يكن لي أن أهيل التراب على قبره، وأنا أكتم دمع قلبي الذي جفَّ وسط اللجوء القاسي. تركته قبل سنوات طويلة بحسرة الهروب، وما ظننتُ أنه سيتركني هو الآخر بحسرة الموت.. كأن الزمن لا يحفل بالوعود التي ندّعيها ونحنُ أصغر من أن نفيها. يدرك أنّ الوعد يبقى وعداً، مهما ألبسناه مواثيق إخلاصنا وعهود صفائنا.. وعدني أبي قبل سنتين حين سافرَ لأول مرّة خارج المغرب فقَدِم نحو إشبيلية كي يراني ألاّ يموت.. فمتُّ ألف مرّة في انتظار عدم موته. قدِم ليراني وكأنّه قدِم ليودِّعني قبل الرحيل النهائي.. كان مريضاً ومتعباً، ولم يؤلِمني مرضُه ذلك قدر الألم الذي أحسسته من الإنهاك الذي استغرَقه في غفلةٍ منّي أنا الهاربُ الوحيد. لم تكن تلوح عليه أي رغبة في الحياة.. شعوره بالعجز كان قد استنفد كل

قدراته على الصمود أكثر. وكنت أعلمُ أنّنى مبعثُ إرهاقه.. تيهى بعيداً لاجئاً طريداً كان يقتل شموخه المتوارث، ذلك الموريسكى سليل القضاة والعلماء. لم يعد يجرؤ على الفخر برصيده الحافل بالقضايا والمرافعات، وأصغر أبنائه محكوم بخمس وعشرين سنة حبساً نافذة، قضّى أكثر من ثلثيها لاجئاً هروباً من سيف العدل الجائر دون أن يتغيّر من ذلك الماضى المأسوف عليه شيء. أبى مات بحسرته لسنوات قبل أن يواريه التراب، وأمّى ظلّت بمفردها، بعد وفاته، شجرةً وارفةَ الظلال تكتوى بالهجير الأخرس والجدب يقتلعُ فؤادها الفارغ، كى تفرغَ الرحمَة فى جوف من اكتوى بغيابى. كم يقتلنى عجزي.. هذا الأخرسُ الأصم الأبكم الذى يلتحِف جسدى ويحرِقُ روحى. كم قتلنى من قبلُ.. ويواصل الآن قتلى والصفحاتُ تشهد.. صفحات هذه الرواية تشهَدُ أنَّنى لم أسرف فى الألم، أنَّنى لم أخُن هروبىَ الأول.. تشهد أنّنى جاهدتُ لأقطِف ثمار الهروب دون أن تسقط قبل أن أجنيها ودون أن أسقط قبل أن تنضَج.. تشهد الصفحاتُ أنّنى لم أمتحن صبرى ليكون محرَقتى الأخيرة.. واصلتُ الحياةَ لأكون أميناً على حياتهم التى تركتُها خلفى مُلتاعة تندبنى قيد حياتي. واصلتُ الحياة كى أكون أميناً على حياتِه التى ضيَّعَها بسببى ذات سفر أهوج.. حياته التى أفقدْتُه متعَها برصيد إفلاسى المبكِّر، وديون هروبى المستعجِل.

لم تكن تلك الرحلة فى الساعات الأولى من ذلك الخميس الأسود موفّقة، وما كان اختيار أن نعود معاً من الرباط فى ظل كل ملابسات التوتر والمشاحنات اختياراً صائباً.. كم تاهت بنا أقدامنا وهى تبحثُ فى ذاكرتها عن طريق لا يقطنُه الموت.. كم من دروب سألناها أنْ تدارى ضعفنا بالقليل

من الإسمنت.. أن تدارى لهاث أنفاسنا بالقليل من الصّمت.. أن تغسلِ فائض دمائنا بالقليل من بياض الجير.. كم كبُرَت فى عيوننا مساحات الالتفاف والالتفات.. كم ضاقت فى صدورنا نوازع الحياة.. تطوان فى ذلك اليوم البعيد.. البعيد.. القريب.. القريب.. كانت ساحة الدم المهدور المنذور لعقاب "الأوباش".. ذاك اللقب الذى كلّفنى عمْرَ هروبٍ، وصكّ لجوءٍ، وحنين طريد. وكلَّف عمّى البشير اعتكاف الزنزانة وخبث السجّان وندوب الإذلال.

تطوان فى ذلك اليوم البعيد.. القريب لم تكن موطني. لم تعد موطني.. لم تكن الحمامة التى تبسط جناحيها البيضاوين لاحتضان القادم إليها من لواعج الشوق.. لم تكن الأقواس والساحات والقلاع والمآثر والدروب والأبواب والشوارع والأسواق والمبانى والعمارات... كانت بنادِقَ مؤسّسة واحدة بمسميات مختلفة وأزياء متنوعة وألوان متباينة.. كانت بنادقَ ذات شهية مفتوحة للقنص والطرد والعبث.. لم يكن القناص يحمل البندقية فحسب، بل كان من خلف المدفع يركب الدبابة لتجول وتجول.. وتطحن وتطحن، باقى كرامة رفعت شعار خبز وكرامة، وخذلهما الصوت والصيت والانتماء إلى الريف الكَليم..

لم يتِح لنا سفرنا معاً فى ذلك اليوم الأسود غير رصيد حقد وغبن، وصهيل ذاكرة مُرَّة لا تغفو..

زارنى صديقى القديم.. البشير بالفرح الموعود للشجن.. هو لم يزرنى فعلاً.. لقد قدم نحوى إلى إشبيلية لكى يصالِحنى على ذاتى.. قدم لكى يصالح بلقائنا من جديد ماءً أسِنَ فى البعد وفراغاً حشته الطحالب.. كان أكبر بكثير مما كنت أتخيّله، حين يدلُّنى حلمُ الغفوة على أطياف ذلك

الماضى.. شيبُ وتجاعيد ونحول وتهدُّل.. جزْر ارتد خائباً بعد مدٍّ لم ينْمُ فيه ذلك الشاب على هواه.. أحببتُه أكثر.. أحببته بقلب الطفل الذى كان لى فيما مضى.. أحببتُه مثلما كنت أحبه وأنا الطفل أراه الرجُلَ الذى أريد أن أكونَه حين أكبر.. لم تكن تترك لى الابتسامة التى لا تفارق ملامِحَه فرصةً لاختيار أبى الوقور.. ولم تترك لى الشجارات التى كانت تنشب بين طفولتى المشاغِبة، ووصاية إخوتى ميْلا إلى الاقتداء بأحدهم أو إحداهن.. كنت أجاهِر فى سنوات الطفولة بولعى بعمّي، ورغبتى فى أن أكونَ مثله دون غيره. كان نموذجي وقدوتى ثم صار صديقى، فغدوتُ جلّادَه وسجنَه.. منذ وعيتُ وجودى وعيتُ وجودَه جنبي.. كان يكبرنى بتسع سنوات.. وكنّا نحلُم معاً.. ونصحو معاً.. ونرتّق على هوى رؤانا العالَم بشقوقه وسراديبه.. وحين فارق تطوان، وفارَقنا إذ نادتْه الرباط من أجل إتمام الدراسة ومن أجل العمل.. لم نستسلم لبعد المسافة.. كانت لنا الرّسائل والوصايا واللقاءاتُ والمواعيد، التى تشغلُ امتداد مفارِش العطل البحرية على السواحل، وانتصابَ خيام النزهات الجبلية على المرتفعات.. كنّا لحمةً لا تفصلُ المسافات روابطَها.. لكننا بعد الخميس الأسود لم نعد معاً.. غدونا اثنين لا يلتقيان.. لا تتواصل سبلنا.. ولا تتقابَل مرايانا.. كنتُ خَجِلاً فى البداية من تورُّطى فى الجحود.. من تورُّطى فى العجز.. من تورُّطى فى الهروب.. كان خجلى دعوةً لنسيانه.. ونسيتُه مثل ذبيحٍ لم يعد همسُه مزعجاً.. نسيتُه مثل فراشة جميلة ظللتُ أراقبُها من بعيد وهى تغازل لهيب النار، حتى أسلمتْ تيْهَ حومَانها للهب فاحترق الجناح وضاع درب التحليق.

نسَيْتُه دون وعى..

بل نسيتُه بوعي.

كنت أسعى إلى أن أنسى.. كنت أحاول أن أنسى، أن أحذف من سجل ماضى كل ذلك العبث، كلّ ذك الألم، كلّ ذلك الهروب.. كنت أسعى بوعى إلى أن أفارق ذاتى التى استُبيحتْ هناك على أراضى ذلك الخميس الأسود.. كنت أسعى إلى أن أنسى بوعي، كى أجد لحاضرى معنى غير الهروب.. لم يكن للغد الذى سأواصله على قيد الحياة صلةٌ بذلك الماضى البعيد القريب، لذلك ابتدعت لحاضرى سقفَ النسيان بوعى وترصُّد، كى لا تظلِّلَ جدرانَه خيالاتُ ذلك الخميس.

حين زارنى بإشبيلية كان أكبر بكثير مما كنت أتخيّله. تعلو ملامحه تجاعيد مسترسلة، ويغمر سواد هامته بياض كثير، ووجنتاه غارتا خلف نحول غير جميل. كانت ومضتا عينيه تطلّان من وراء الوجوم الذى يغلِّف وجهه.

الومضتان أليفتان.. الومضتان رائعتان.. الومضتان كانتا عمّى البشير الذى ما زال صامداً، فى عمق نحول جسده وتهدُّل قامته وانسحاب الصّفاء الذى كان له.

لم يتحدّث طويلاً. كان صمته متغيِّراً آخر لم يفتنى التقاط غلافه الأبكم. كان يصمت للحظات ممتدة والشرود يكسو نظراته. لا ينظر إلى شيء محدَّد رغم أن بصره موجّه بدقة فى اتجاه ما. فى البداية كنت ألتقط خيط الكلام المنفلت، وأصوغ على منواله جملاً تُلائم ما كان يجمعنا من أخذ ورد. لكننى بعد وصلات صمت متتالية شرعتُ فى التماس هدنة كلام، قبل أن نلج معاً من جديد فى مدّ خيوط الكلام طولاً وعرضاً. كان جسده جليّ الإرهاق

بعد اثنتى عشرة سنة من الاعتقال.. ولم تكن روحه بالمُعافاة من كلّ ما كابده.. حين زارنى كان قد استعاد حريّته قبل أشهر. قرّر فيها منذ اليوم الأول مغادرة البلاد، لكن السفر لم يتيسّر له وفق ما كان يبتغي.. وجواز السفر لم يتمكن من استعادته أو استخراج آخر بدلاً عنه.. لذلك غادر نحو سبتة وتحيّن الفرص السانحة للانتقال نحو الضفة الإسبانية.. مثلما فعلت صباح يوم الاثنين ٢٣ يناير سنة ١٩٨٤ وفشلت، فكان مركب البحّارة ينتظرنى مساء الغد فى شاطئ "مَارْتِيل"، لأفلح فى الهروب بزى صياد سمك دون هويّة.

لم يستطع أن يغادر مباشرة إلى بلجيكا حيث كان ينتظره أصدقاؤه الذين قد هيّؤوا له فضاء جديداً لحياة يستعيد فيها قدرته على العطاء والنضال. اختار أن يزورنى لكى يعيدنى إليّ من جديد. أراد أن يرانى وأن أراه.. أراد أنْ أدرك أنه لم يُدِننى لأننى فررتُ وتركته قيد الاعتقال.. أراد أن يخبرنى بزيارته ما لم تقله كلماته.. كان الصمت ناطقاً بألف حرف وحرف.. لم تنبس شفتاه بتلك الحروف، لكن صوتها بلغَني.. صراخها امتلَكَنى.. صدحها أشجاني.. لا يحاسبنى على قدَر استدعاه إلى تطوان ليكون رفيق سفري. فتمَّم باسم النضال ما كان قد وسَمَ سجلَّه الحافل بالجامعة من داخل مجالس الطلبة والتعاضديات والبرامج الطلابية النضالية المختلفة وفصيل "رفاق الشهداء".

أنا لم أكن جباناً فى يومٍ ما.. أعرف أنّه من حق الكثيرين أن لا يلتمسوا لى العذر، وأن يفسِّروا انسحابى من الحركة الطلّابية وفق ما يستهويهم.. لكننى لست معنياً بذلك الأمر الآن.. عمّى كان يعرفنى أكثر منهم ولم يحاسبنى فى ذلك الماضى الذى كان قبل الخميس الأسود.. ولم يحاسبنى على ذلك الماضى الذى كان بعد الخميس الأسود.

لم يكن ليزورنى بملء رغبته لو كان يحاسبني. كان الماضى بالفعل منحوتاً على جسده وروحه، بينما جسدى يشدُّ عنفوانَه نحو المزيد من الرِّفعة. لكنه كان يريدنى أن أنفضَ عنّى ذلك الماضى مثلما قرّر أن يفعل هو الآخر.. أراد أن يباركنى بفيض عطائه.. أراد أن يبارك لى هروبي. أراد أن يدعونى إلى نسيان إثم تلك الدروب الضيّقة التى خذلته ذاكرة أقدامه فى سلكها دون غيرها. أراد أن أمحوَ عن ذاكرتى إثمَ أنّنى لم أهتِف باسمه كى ينحرف يميناً بدل الانحراف يساراً، لمّا نادانا حشْدُ من كان يبحثُ عنّي، أو عنّا، أو من عنَّ لهم أن يبحثوا عنه..

أراد أن يقول ذلك الشارد فى شجونِه بصمته الصارخ: صوتى كذلك لم يعد قادراً على الصراخ. سبقَتَنى ذات رعبٍ إلى الخرس، وها أنا ألحق بدرب هروبك وصمتك وخرسك وتيهك متأخراً.. لا تبتئس يا ابن أخي، أنت طفلى الذى لم يكن لى أن أنجبه بعمر التسع سنوات.. ولن يكون لى أن أنجبه ما حييت، لدناسة ما فعلوا بي، وبنا جميعاً.. أنت ابنى الذى لن أريدَ له أن ينالَه ما نالنى من أذى.. أنت بضعةٌ من روحى انفلتَتْ من قبضتهم العابثة، لأحيا فيها وبها.. لا تكترث بما أنا فيه الآن.. أنا أقوى بك لأنّك هربتَ.. أنا أقوى بهروبك.. لم يكن بقاؤك معي، اعتقالُك إلى جانبي، مشاركتى الزنزانة، إلا ليقتُلَنى ألف مرَّة فى كل الميْتات التى كنت أصحو منها نكايةً برغبتهم فى موتنا. لا تكترث بصمتي، لا تكترث بصوتي، لا تكترث بموتي.. أنا حيٌّ بك، وسأحيا قريباً فيّ، هناك حيث تنادينى الحياة إلى بدايةٍ جديدة.. لا أدرى كم تبقّى لى من رصيد العمر كى أقتنصها بدل ما فاتني، وفات كلَّ من شاطَرنى هول ذلك الماضى القريب القريب.

الورقة الرابعة

أيكون للحلُم وجهان لا نفلَح إلا فى قراءة أحدهما مهما جاهدنا؟

ذاك السؤال أيقظه من حلِمِه متدثّراً ببقايا نعاسٍ لم يتمكّن من طرد أطيافه.

لم يكن الحلم واضحاً.

لكن الوضوحَ لم يكن له يوماً فى الحياة.. كان دوماً رفيق الغموض.. تظل الأسئلة تتلو خطواته. ويتركها شاردةً، ويمضي.. ما كان مهتماً لما يراكمه الأصدقاء والمقرّبون من رفاقه من استفهامات. كان زادُه صفاء سريرته ونقاء صورته الداخلية.. أما اللغط الذى كان يتقفّى آثار اختياراتِه فلم يكن يتيح له مساحة تضيِّق عليه ما أفضتْ إليه حياته من آفاق شاسعة.

حين أراد أن يتابع حلُم التشكيل بدل الالتحاق بالمدرسة المحمدية للمهندسين بمدينة الرباط بعد الباكالوريا، استغرب منه رفاقه هذا المنحى.. وعارضه أبوه قليلاً.. أمه كانت دوماً تدرِك أن الفنّان فى داخله سيطغى يوماً ما على كل ما يرسُمه له زوجُها من مسارات.. قوة الإرادة كانت تدفعه إلى أن يجلو عن أحلامه كلَّ الشوائب.. اختياراته كانت تبدو له مثل المعتاد جليّةً قبل الخطوة بأمد.. لم يكن يتصيَّد الفرص، أو يميل على هوى الريح.. بل كانت ملامح الغد تناديه نحوها بيسر وتمهّل.

وحين رغب فى أن يلتحق بالمعهد العالى الدولى للسياحة بمدينة طنجة بعد سنة من دروس الرسم والتشكيل بالمدرسة الوطنية للفنون الجميلة خشى الأب أن يكون ابنه قد ندم على اختياره الأول، ويرغب فى أن يستدرك

دراسته بمسلك أكاديمى واضح المعالم.. لكنه لم يشجِّعه بل تراجع نحو الخلف، وأخبره ببساطة: "تلك حياتك.. تلك اختياراتك.. فانعم بتحمّل مسؤولية الحرية فيما تريده وفيما ستكُونه".

مازال يذكر تلك الكلمات.. كان اعتراض أبيه على الالتحاق بمدرسة الفنون الجميلة فى البدء متشنِّجاً قليلاً. عزيز كان يدرك، منذ حدَّد ملامح حياته بعد الباكالوريا، أنّ الاعتراض سيأتيه من وجهة أبيه. كان يعرف أنّ أمه ستبارك له اختياره لميلها هى الأخرى فطرياً نحو الجَمال. لكن أباه سليل القضاة والعلماء ما كان ليستكين إلى هوى الفنون ببساطة.. لكنه استسلم فى الأخير، ودون تعنّت.

أفرغ فى جلسة واحدة بـ"نادى تطوان الثقافي" كل ما فى جعبته أمام عزيز.. وأنصت بإمعان لصوت ابنه الأصغر، يكشف له لأول مرَّة بصوت واضح ودقيق مطامحَه فى الحياة.. وبارك له ما وسِعته شخصيتُه من إدراك وتبصُّر وعمق. كان ذلك آخر تدخّل لأبيه فى مسارات حياته. يذكر له من طفولته بعضَ الصرامة.. بعضاً من الحسم.. حدةً تتراوح شدَّتُها وفق المواقف والظروف.. لكنه كان القائد دائماً. يستدرج أبناءه إلى ما يرغبه.. يستدرجهم إلى ما يراه الأنسب.. يرسم لهم بخيوط المحبة المستقبلَ الذى سيهْنَؤون به وله.. فى التقاء مسار الأب والابن لم تكنْ للأمور تلك البساطة أو ذلك اليسر.. مرّاتٍ عدة كانا يصطدمان بقوة.. اعتراض من هذا، أو اعتِراض من ذاك.. عزيز لم يكن ليِّناً، ولم يكن طيِّعاً.. كان أكثرَ إخوته، ربما، رهافة حسٍّ واستيعاباً للاختلاف. لكنه لم يكن متساهلاً كثيراً فيما يخص رغباته أو أحلامه أو مطامحه.. كان يدافع بكل قوة منذ كان طفلاً عن

حـاجـيـاته حين يستبدّ بها أحد إخـوته.. لم يكن من طبعه الرضوخ أو الاستسلام.. كان يقاوم حتى آخر قدراته، قبل أن يتدخل أبوه أو أمه أو عمه البشير لحسم المواجهات التى كانت تنشب بينه وبين إخوته.. لم يكن صغر سنِّه أو رهافة عوده ليدفعانه إلى التراجع أو التخاذل أمام معاركه الكثيرة فى شغبه الطفولي. كان يقاوم.. ويقاوم.. حتى يتيقن الطرفُ الثانى بأن جولاته المستقبلية مع هذا الصغير يجب أن تبتدع خُدعها، كى لا يطول العراك وتضيعَ لذة النصر.

فى اعتراض أبيه على دراسة الفنون الجميلة لم يتغيّر مسلك عزيز فى الدفاع عن ذاته وحياته. كان أبوه ينظر إليه بعين صارمة وقلب مُغرَم.. يتطلّع إلى المرافعة الطويلة التى عرضها عزيز أمامه بقاعة "نادى تطوان الثقافى"، وهو يحاول أن يخفى انبهاره بطفله الرّاشد.. رآه لأول مرة يستميت فى إثبات حقّه فى اختيار نمط الحياة الذى يشتهيه.. يستميت فى الدفاع عن حقّه فى الخطأ.. فى الإخفاق.. فى التعثر.. كى تعيد الحياةُ بعد الخطأ.. وبعد الإخفاق.. وبعد التعثر عركه من جديد.. كان الأستاذ جعفر يتابع حديث ابنه الرزين ونفَسه المندفع وحماسه المتوثِّب.. كان يتابع بعينى المحامى الذى خَبِر أبواب القانون ومسالك القضاء وغرف المحاكم وفروع النيابات، وهو يعلم أنّ هذا المحامى الشاب الذى لم يتلقَّ أيَّ درس فى القانون؛ يعرف كيف يكسب معاركه حتى وإنْ ظنّ خصومُه أنّه قد خسرها.. فلم تكن الجولات المتوالية بالنسبة إلى ذلك الشاب سوى قوة ذاتٍ تبحث لنفسها عن تصريفٍ أفضل.

كان يتابع ابنَه يتحدث، وحسرةٌ أخرى تكبر بين جوانحه. فبعد أن أدرك أنه قد وجد بين أبنائه من يمتلك قوة إرادته وشراسة هدوئه، اكتشف أنه

لم يتمكّن من توريث مكتبه وسجِل صيته لأحد من أبنائه.. كان يصارعهم كى يرثوا مكاسبِه.. لكنه فى العمق كان يدفعهم إلى ابتداع اختياراتهم الخاصة.. فشل فى جعل شغفه فى الحياة والعمل زاداً لأبنائه إناثاً وذكوراً.. لكنه نجح نجاحاً مبهراً فى دفعهم إلى البحث عن ذواتهم بسرعة قبل أن يحتويهم زى المحامى ورفوف خزانة مكتبه الضخمة.. نجح فى وضعهم أمام اختبارات تصقل قوتهم، وتحثّهم على الإنصات إلى أصواتهم الخاصة، ليدركوا ما الذى يريدونه فعلاً فى الحياة.

أحلام عزيز كانت متعددة.. متباينة.. متقلِّبة.. لم يستوعبها من قبل مسار أحد من إخوته.

تفوّق مثل عمه فى العلوم الرياضية.. لكنه خذل أصدقاءه وشركاءه فى التنافس المحتدم على الرتبة الأولى فى امتياز الباكالوريا وتوجّه نحو الفنون الجميلة.. ثم بعد سنة واحدة رغب فى الالتحاق بالمعهد العالى الدولى للسياحة بمدينة طنجة، فى مسار لم يتوقّعه أقرب أقربائه.. ولم يستوعبه أصدقاؤه من الرياضيين ومن الفنانين.. وبعد الهروب الكبير.. بعد اللجوء والتيه.. اهتدى متأخراً إلى شغفي الهندسة والمعْمار الذين وحَّدا تلك الأقاليم المتباعدة فى ذاته المعرفية.. وظلت اللوحة رفيقةَ قلبه ويمناه.. تتعدّد سحناتها، وتتباين مرسوماتها، وتختلف مساحاتها، لكنها من تشكيل ذات واحدة آلت على نفسها توزيع الاختلاف ليمتد نحو معمار الأندلس وإرث التاريخ.. وكأن المُوريِسْكى التائه استدلّ بعشق تطوان على درب العودة نحو الفردوس المفتَقَد.

إشبيلية كانت مدينته الثانية.. لم تشدّه مدريد التى صالحت تيهَه على درب اللجوء السياسى.. وكانت إشبيلية المآل.. سافر لما يقارب السنة إلى

لندن حيث كان يعتزم فى البدء الاستقرار.. لكنه عاد سريعاً إلى إسبانيا، ليكتشف مدينته الثانية ويستكينَ إلى حضنها.

كانت أحلامه فى كل تلك المتاهة التى اجتذبَتْه نحو أبوابها المغلقة ودروبها الشائكة واضحة بالنسبة إليه.. لكنها لم تكن جليةً بالنسبة إلى الآخرين.. كان طبعه الهادئ يجعله غامضاً بدل أن يجلِّى خواصه.. هو عزيز، ولم يكن من طبعه مكاشفة غيره بأفكاره أو أسراره.. كانت تلك حصيلة شغب الطفل التى ادَّخرها بعيداً عن أعين إخوته الكبار.. تعلَّم أن يدارى رغباته كى لا يسبقوه إلى نيلها فيغدو طفلاً أغرَّ يقلِّد ما يأتيه إخوتُه من مكاسب، أو ما يطمحون إلى نيله من مبتغيات.. كان ينجح فى مراوغة أسئلتهم المستكشفة.. ويخاتل جسَّهم لنبض اشتهائه.. يوهِمهم بعكس ما يريد.. ويبنى لذاته أمامهم صورةً غير أصلية.. لم يكن سهلاً عليهم أنْ يقبَلوا منه وهو الأصغر بينهم زهو النصر الذى كان يومض فى عينيه، كلما تبيَّن لهم الوهم الذى وقعوا فى شراكه.. لكنه كان يكبُر ويكبُر بإخفاء رغباته وبمواراة أحلامه.. ولم يتمكّن يوماً من أن يصغُر ولو قليلاً لتكون ذاته واضحةً بعض الشىء.

حين فارق الحراك الطلّابى بعد المؤتمر السابع عشر للاتحاد الوطنى لطلبة المغرب، لم يعُد خطوةً واحدة إلى الخلف ليفسِّر انسحابَه أو رفضَه المشاركة فيما بعد فى الأنشطة والخلايا والفصائل.. لم يكن واضحاً كل الوضوح حتى مع عمِّه البشير.. أخبره فى جمل مقتضبة عن رغبته تلك.. وأطلَعَه لاحقاً على تفعيل تلك الرغبة.. لكنه لم يكشف له التفاصيل.. وعمُّه لم يطالِبه بذلك.

كان رفضه التفسير أو التبرير مبعثَ لغط وسوء فهم شديدين، دون أن يجد فى نفسه الرغبة فى التصدى لهما.. كان يضع نصب عينيه مشروعاً مؤجّلا، قد يكون عملاً مستقبليّاً يشرح فيه كلَّ ما فات، ويقدِّم فيه شهادته عن مرحلة كانت أكبر بكثير مما يعتقد من شارك فى صنعها.. فى قرار نفسه، كان يعلم أنه ليس صادقاً تماما فى تأجيل ذلك المشروع.. أو فى جعله عنواناً لعمل مستقبلى سيدوِّن فيه توثيقَه لمرحلة من عمره وعمر رفاقه المختلفين. كان يعلم أنّ التأجيل هروب آخر يعلنُه وينصرِف إلى وجهة أخرى. وكثيرة هى الوجهات التى اختطفته، دون أن ينصرف إليها.

يذكر سنة الإقامة بلندن. ويذكر كمّ العزلة التى راقته هناك رغم الألم. كان المقام هناك مصراع باب نحو عالم آخر مختلف كلِّيا، شدّه نحوه بسحرٍ لغرابته فى البدء، وأبعدتْه عنه تلك الغرابة فى نهاية المطاف.

.. أن تجد نفسك وسط لغة لا تتقنها، لا تفهم أحرفها.. سائق سيارة الأجرة، صاحب الفندق الصغير، البوّاب، نادل المقهى، الباعة، المتاجر، التلفاز، الصحف، الناس، كل شيء غريبٌ عنكَ، مغايرٌ لمعتادكَ.. تغمرك الوحدة من كل جانب. وتحكِمُ العزلةُ عليك أسوارَها. فتجد نفسك فجأة وحيداً بالفعل.. وحيداً مثلما لم تكن من قبلُ.. وحيداً مثلما لم تكن فى كل مكان.. مثلما لم تكن فى اختلافك عن كلِّ الآخرين.. إخوتِك.. رفاقِك.. زملائك.. أصدقائك.. مثلما لم تكن فى اغترابك هناك بمالَقا.. مثلما لم تكن فى لجوئِك هناك بمدريد.. مثلما لم تكن هناك فى مسقِط قلبكَ بإشبيلية.. هناك بِحى "ويستْ إنْد" لندن كنتَ تنسحب شيئا فشيئا إلى داخلك دون هروب أو لجوء أو خوف.. كنتَ تنسحبُ إلى داخلكَ شيئاً فشيئاً وأنتَ تتجول

وسط الشوارع والمآثر والمنتزهات.. قدماك تقودان خطاك، والصمت يغلِّف دواخلك بهدوء لا يملكه خارجك الصاخب الذى تكتشفه، وأنت تزور "كوفنت غاردن" و"ليستر سكوير"، وتسيح بين الفضاءات الفاتنة.. وأنت بين الأنفاق، والمترو يغدِق صمتَ الركَّاب على هدير عبوره تحت الأحياء.. وأنت تعود مرةً بعد مرّة إلى "بِيكاديللى سيركاس" وإلى "ترافلغار سكوير" لأنك لم تتمكّن من الانعتاق من أسرهما طوال إقامتك.. وأنت تقتنى احتياجاتك من متاجر ومكتبات ومعارض وأسواق تُحسِنُ الإمعان فى الاستقلالية والقراءة والهدوء.. تتأمل بشكل متواصل.. تغدو التفاصيل البسيطة التى لم تُعِرها يوماً أدنى انتباه محفلاً بالغ الأهمية، تحشِدُ له الساعاتِ والأيام.. تتابعه بكل تأنٍّ واهتمام وحرص.. تفكِّر.. وتفكِّر.. ليس فى تلك الاهتمامات الكبرى التى كانت تشغلك فيما قبل، ومازالت تشغلك.. ليس فى القضايا الكبرى التى كانت تستأثر بالرأى العام محلياً أو دولياً أو كونياً، بل فى ذاتك.. فى الحياة البسيطة المرسومة على تخوم الشهيق والزفير.. فى الصمت الذى يطبِق على النفس، فيطلِق للأحاديث الصامتة ألْفَ شجنٍ وشجن.. فى ذلك الامتلاء الذى لا تراه.. لا تلمسه.. لا تشمّه.. لكنه هناك.. كان دوماً هناك دون أن تعيه، دون أن تراه أو تلمسه أو تشمّه، لأنّه بداخلك.. لأنه روحُك.. لأنّه أنتَ.

تطلِق لقدميك العنان. تمشي.. وتمشي.. السلام الروحى يرخى على دمائك الفائرة بعض الزرقة.. والأيام تتوالى بعيداً عن أى احتدام. كم كانت الحياة غريبة ذلك العام. كم كان الصمتُ أليفاً.. صمتٌ رغم الهدير.. رغم الضجيج.. رغم الصخب.. لم تكن الأمكنة مُهمَّة، لم تكن أسماؤها الفيصل،

كلها ترتدى زى الهدوء ذاتَه. ولم تكن هى الهادئة. كانت أحياناً تضجُّ بكلِّ الأصوات نافرةً بألف زعيق. لكنها لم تكن تعْنيكَ أنتَ المعزول عن العالَم الخارجي. تمضى وسط تلك الأصوات وكأنّها لوحة نابضة بالألوان، يخترقها بحياد مُسرِفٍ فى بذخِه سوادٌ لا يكشِف أسرارَ وحدته. لا يعلِنُ اسماً لمروقه. لا يفضحُ ليلَ غربته. كنت ذلك اللون الأسود متقنِّعاً برمادك الذى مازالت شعلةُ جمراتِه الغافية تتوهّج. تمرقُ فى كل الأمكنة الملوَّنةِ بغير الرماد، وتمضي. اكتست الأمكنة كلَّ الألوان وتاهت الفرشاة منكَ، أنت الرماديُّ فوق الجمر الغافى. وكنتَ تمضى وسط الصمت الذى يغمرُ عبوركَ هناك، فيفيض عن الجلبة هدوء لم تجدْه فى مكان آخر. وتغترفُ من دواخلك بعض الامتلاء لِتفكِّر فى كل شيء. تفكّر فى الماضى والحاضر والمستقبل. كان شهيقك وزفيرك دليلَين على صمودٍ لم تعتقد أنّك ستبتَدِعه فى هروبك الكبير، وكانَ...

مرّت سنتان على مقامك بإسبانيا قبل أن تتجه نحو لندن. ولم يكن للزمن المعايير المألوفة سابقاً قبل الهروب. لم تعد الساعة مجرَّد ساعة، أو اليوم مجرّد يومٍ. كانت لدقّات قلبك موازينُها التى غيّرت فى واقع حياتك كلَّ النُّكهات. لم تعد الأشياء حينها تمتلك المعانى التى كانت لها من قبل. لم تعد الأشكال أو الأحجام أو الألوان مجرّد أبعاد لوجود مترامى الامتداد، لحياة تسير على خطى إنسان يصنع للطبيعة الغدَ الذى يرتضيه. تحوَّل كل شيء. وعلى سندان التحوّل كانت المطرقة تواصل إيقاع ضرباتها الرتيب. خرجتَ من مدريد وبدا التحول فى داخلك أنتَ كذلك. وقفة "ويست إند" بلندن كانت مرآةً لم تعتزم البحث عنها.. لكنها كانت مرآةً عرَّت حقائق الأشياء أمامك. رأيت داخِلكَ وخارجكَ بوضوحٍ تام. قد لا يكون المكان ساحراً عتيداً امتلك

بفيض قدراته ذلك الأثر الخلّاق على روحك. لكن الصمت كان هناك فى ذلك المكان، ينتظرك بدواخلك ليفجِّر فوضاه.. فتعيد بناء ذاتك وأنت تستجمع القطع الصغيرة المبعثرة لإنسان كنتَه قبل زمن الهروب واللجوء. كانت القطع المبعثرة صغيرةً، متناهية فى الصغر. لكنك كنت تمتلك من الوقت والهدوء والعزلة، ما أحاط غوصكَ فى داخلكَ بشجاعة لم تُدركها فى مالَقا أو فى مدريد. لم تكن مَهمَّةً يسيرةً أن تتبعثَر فى قطع متناهية الصّغر وتعيد تجميع ذاتك، وأنت المبعثَرُ المُقطَّع المتناهى فى الصِّغر. لكنك استطعتَ، ونجحتَ وعدتَ من جديد. عدتَ فى واقع الأمر إلى إسبانيا وتوجهّتَ نحو إشبيلية حيث تبنّيتَ مسقِطَ قلبِك الجديد. فكانَ استقرارك وقرارك. لكنك عدتَ أنتَ من جديد. عدتَ عزيز الذى كان قبل أن يخترقَه الهروب الذى كان، وقبل أن يرميه ذلك الخميسُ الأسود بنبالِه السّامة.

عدتَ إلى فرشاتك وألوانك، ونفضت عنك الرّماد للتوهّج بكل ألق. هناك بإشبيلية ولدتَ مرّةً ثانية، ولم تكن حينها تدرى أنّك ستولَدُ مرَّةً ثالثة بعد سنوات عديدة، حين سيطرقُ الحبُّ بابكَ على موعد قهوة صباح الأحد دون سابق إشعار...

إشبيلية كانت عشقاً ادَّخره العمرُ للموريسكى الذى كنتَه فى تطوان، دون أن تتصالح مع تاريخك الأندلسى. إشبيلية أيقظت فيك ما لم تعتقد وجودَه فيكَ. كلُّ ما خزَّنتْه ذاكرتُك، كلُّ ما وعتْهُ ذاتك، كلُّ ما اخترقك، واستوطنَ خلاياك، كان يطفو على سطح أيامك بإشبيلية. لم تكن شبيهةً لمدينتك الأولى، لمدينتك البهية تطوان، لكنك رأيتَها كذلك.. لم يكن الأمر متعلِّقاً بالمعمار الأندلسى بحجارته وروحه ورياضه.. لم يكن الأمر متعلِّقاً بالوجود

الأندلسى الذى كان يصلُ فى عمقك بين تاريخ هاته والحنين إلى تلك. لكنك رأيْتَ إشبيلية بقَلْب العارف.. وجعلتها مدينتَكَ هى الأخرى. أأردتَ أن تكونَ لك فى الغربة مدينةٌ تأنس إلى ألفتها؟ أكان اختيار إشبيلية حظاً رائقاً يصالح بجماله فوضاك المبعثَرة؟ أكنتَ ما تزال تحت غواية صمت "ويست إند" فسحرتْكَ إشبيلية لضعفك عن مقاومة إغراءاتها الكثيرة؟

تغيَّرت أحلامك بعد المقام بها لأشهر، وقد تكون تغيَّرتْ قبلها..

أنتَ أنتَ لا تتغيَّر؛ طفل يختبئ خلف جسد رجل يعْبُر للدهشة بعينين مفتوحتيْن على آخرهما.. أنتَ أنتَ، لا يمكن أن تنفضَ عن نفسكَ جلداً كان لها قبل الرحيل. لكنك كنتَ قد تغيَّرت بعد عبورك إلى مالَقا. أثناء الهروب على متن قارب الصيد الصغير كنتَ مخطوفاً، كنتَ مأسوراً، كنت مذهولاً، لم يكن نبضُك يستطيع العودة إلى معتاد الهدوء. كان صخب الانفعال يشغلكَ عن ذاتِ ذاتكَ التى كنتَ عليها.. كنتَ آخَرَ يرتديكَ، يمسِك بروحِكَ ويستدرجكَ إلى مصير لم تخترْه. يقبِضُ على جمرِكَ المشتعِل، ويكوى باللهبِ بقاياً يقظةٍ اصطفتْكَ حين نادت قدميكَ نحو أزقة "المَلَّاح" الخلفية، بدل "الطرّافِين" و"المَصْدَع" و"باب العُقْلة"، أو "سوق الحوت القديم" و"الغَرْسَة الكبيرة"، أو "الخَرَّازين" و"النيّارين"... كل الطرق كانت تفضى إلى الموت بأشكال وأسماء مختلفة. الموت لم يكن موتاً واحداً، كانت سجاياه تُحكِم الطوقَ على كلّ العابرين، سقطوا أو اقتُنصوا أو اعتُقلوا. دربك أنتَ كان سالكاً. ودربه ذلك الغالى كانَ معفَّراً بكيدٍ يترصَّدُك أنتَ، لكنّه استعاضَ به عنكَ، فاعتُقِلتْ أحلامُه لتُغَيِّر أحلامُكَ الطليقة أجنحتَها وتفارق ألوانَها. تركتَ أحلامك القديمة وراءكَ هناك أثناء الهروب.

كانت تتبخَّر مع العرق الذى كان ينزُّ عن كلّ بدنكَ. بعد الوصول إلى شواطئ ضفة اللجوء ارتدى واقِعُكَ أحلاماً جديدة على مقاس الغربة والتشرد والضيّاع.

لندن أعادت إليك روحك الهادئة.

حين تعيد النظر فى ذلك الماضى الذى كان، وما زالت أغصانه تتدلَّى على أيامك بظلالها وأوراقها وثمارها كذلك، تدرك أنّ المُقام بأحياء "ويست إند" لندن كان ضرورةً وجوديةً تمهِّد لعناق إشبيلية، وتفرِغُ على الطفل الواجِف فى مخبئِه بعض السكينة، وتعيدكَ إلى ذاتكَ مثلما كنت من قبل، أو مثلما لم تكُن. المهم أنّك استعدتها تلك الذات، ذاتك، بعد ضياع دام ثلاث سنوات.

فى إشبيلية تغيَّرت أحلامك بعد الإقامة لأشهر فى تلك الشّقة التى تتغذى كل أرضيات غرفها على الفسيفساء، وغدتْ للغد شمسٌ قد تشرِق، أنت فى انتظار دفئها. لم تنس عمّك البشير حينها لكنك مع توالى الأيام تناسيتَ أن تنساه، أو أن تفكِّر فيه. مع توالى الأيام انشغلت بيومكَ قليلاً عن ذلك الأمس الذى قطعاً لم تنسه، ولن تنساه.

الورقة الخامسة

«حين استفاقت كان قد مرّ وقت طويل على لحظة ارتطامها بالإسفلت الصلب. لكن رائحة الدم ما زالت عالقة بأنفها، وإحساس الوهن والألم يلفُّ كلّ جسدها. أول ما فتحت عينيها سألت عن المرأة الملثَّمة التى سقطت عليها. لم تسعفْها أمها في العثور على الإجابة، ولم تستطع أيٌّ من الممرضات شفاءِ غليلها.

كانت تدرك وهي تسقط فى غمامة غيبوبتها البيضاء أن الدم المنسابِ الدافئ الغزير الذي غمر وجهها ورأسها، لا يمكن أن يكون دمَها هى، بالتأكيدِ لم يكن دمَها هى، بل هو دم تلك المرأة التي لم تتبيّن ملامحَها. لكنها تذكر لون جلبابها البنّى وتخريمات لثامها الأبيض المتناسقة. كانت لفتةٌ واحدة، لم تعقُبها أيةُ حركة. ارتمت عليها تلك السيِّدة بجسدها الضخم، فسقطتا معاً على الإسفلت الصلب. سقطتُها أفقدتها الوعى، ويبدو أنها قد أصابت ذراعها اليسرى بكسر كذلك، تلوح آثاره من الجبس الأبيض الذي يشلّ حركة الذراع. المرأة لم يعرف خبرها أحد. لا شك أنّ تعثُّرها بجسد مهدية الفتىّ وهى تسقط أرضاً كان آخر حسناتها، فالدم الغزير كان يندفع من صدرها الممتلئ ليغمر وجه مهدية وملابسها. حمَتْها بجسدها من تلقّى الرصاصات الغادرة، ومضت نحو عالم آخر. لو كانت على قيد الحياة لكانت رفيقتَها بإحدى غرف مستشفى سانيَة الرَّمل

المدنى. لكنها ليست موجودة به، ولم يتمكن أحد من بلوغ أخبارها. لقد فارقت الحياة وفق ما يلوح، إثر غدر رصاصة طائشة أرْدَتها. وظلّت لمحةُ البياض يلفُّه البنّى آخر ما تذكره عنها مهدية، وكأنّهما كفَنٌ يحفُّه التراب. تلك اللمحة هي الشىء الوحيد الذى تعرفه عن تلك المرأة التي أنقذتها من ميتةٍ على هوى الدم المستباح. لقد كان الموت محقَّقاً، يومَها. ومهدية كانت وفيّة لموعدها. خرجت دون أن تدرك هى الأخرى أن ذلك الخميس ليس يوماً لمغادرة المنازل، أو للاصطفاف وراء غدر الشوارع والدروب والأزقة».

تطوان يومها لم تكن مدينةً أليفةً كالمعتاد. كانت ساحةً مفتوحةً للدم. لم يفلح الكاتب فى تغيير مسار الحكاية، لم يفلح فى مخاتَلَة مصيرٍ كان ينتظِره هو الآخر قبل إتمام فصول روايته الأخيرة. ولم يتمكّن السارد فصلاً إثر فصلٍ من مراودة نوازع الكاتب الأخيرة للكتابة وللحياة. لم ينجَح الكاتب فى كتابة الرواية من جديد ليحميها من اللون الأحمر. وكان أحمرَ أكثر من اللازم، أغدق حمرته على بيت مهدية دون أن تستعدَّ له أسرتُها. ولم ينجح الساردُ فى خذلان الرواية والوصية والمسودة. كل النوايا الطيبة تفضى إلى فجيعة واحدة. كلُّ النفوس المسالِمة تقترف باسم الحب والولع والإبداع القتلَ ذاتَه.

مهدية لم تكن تعلم، ولم يكن مقدَّراً لها أنْ تعلمَ وهى تستفيق، أنّ أسبوعاً كاملاً قد مرَّ على الحادث، قد مرَّ على سقوطها المدوّى على إسفلت الشارع بأكثر من صوت وصدى وأثر. كان الارتجاج الذى تعرّض له رأسها قد أبقاها بين الوعى واليقظة، دون أن تكون لها القدرة على إدراك

المستجدات. أشياء عديدة طوتها أيام ذلك الأسبوع المفجع دون أن تفطن مهدية لمروقها السريع. أحداث ومشاعر وأحاديث وخطابات كلّها مرَّت فى غيابها، دون أنْ تأبه لغياب تلك الفتاة. هى على العموم فتاة طائشة كلَّفت الجميع سواداً فاحماً استوطن القلوب فى غفلةٍ من اللحظات الهاربة. مهدية لم تكن تعلم كلَّ ما وقعَ. كانت وهى تسأل عن السيدة ذات الجلباب البنى واللثام الأبيض المطرَّز، لا تفهم الألم المرسوم على وجه أمها. لا تعى انكماش جسدها المرهَق وغور عينيها خلف الهالات السوداء التى حفرتْ عميقاً مَحجريْها. لزمها وقت طويل لتنتبه إلى أنّ البياض الذى يغلِّف المكان ليس لوناً محايداً مثلما يبدو. لم تدرك أنّه ليس بريئاً. ليس نقياً. ليس صافياً. لم تنتبه فى بدء استفاقتها إلى أنّ الأبيضَ بديل الأحمر الغائب، أو بديل الأسود المتوارى عميقاً فى القلوب الفتيَّة. وبعد توالى مرور المرضات والأطباء المناوبين بوِزْراتهم البيضاء أكثر من اللازم، غشيَ اللون الأبيض عينيْها فلم ترَه فى جلباب أمها. ساءها أنّ أباها وإخوتها لم يكونوا إلى جوارها. فاستفسرت عنهم جمعاً واحداً، ولم تبحث عنهم مفرداً متعدِّداً. أمها بلعَتْ غصَّتها بصعوبةٍ قبل أن تجيب: "كلٌّ فى عالمِه".

كان جوابها عاماً فضفاضاً.. أبيضَ هو الآخر.. أبيض أكثر من اللازم.. لا لونَ له. لكنه ليس محايداً. ليس بريئاً. ليس نقيّاً. ليس صافياً. كان الأبيض غشاءً ماكراً يلفُّ أمام عينيها حقائق عديدة، لم تتنبَّأ بها فى سقوطها المدوّى على إسفلت الشارع بأكثر من صوت وصدى وأثر.

له ذلك البياض خدعٌ كثيرة. تخاتِل العين الناظرة والقلب النابض. له ذلك الامتداد غير المحايد أنْ يكون مغوياً.. مغرياً.. له أن يكون دعوةً صريحة إلى

بدايات أخرى فاتنة.. كاسحة.. خلّاقة. له أن يسدلَ نقاءه حين يريد على ذمّة البداية.. ويهتِف باسم الخلْقِ.. "ارسُم.. ارسُم..." لا يصمتُ حينها.. ولا يتوارى خلف البراءة.. يشدُّكَ نحو مساحاتِه بإكراه الغواية.. يقتنصكَ بإصرار مغرِق فى الطّيبة.. ويأسركَ بإسراف موغِل فى الشدَّة. له أن يكون توقاً.. وعشقاً.. وسيلَ ياسمين فوّاح بحاجة للَوْن يوشى بالفرشاة أحلامَه. له ذلك البياض أن يكون أشياء عديدة. لكنه ليس محايداً مثلما يدَّعي، مثلما يريد أن يبدو.. ليس بريئاً من دمنا البنى المتخثِّر أو القانى المنساب أو الأزرق البارد أو الأصفر الماكر أو الأخضر النَّزِق. فى ذلك اليوم، يوم استفاقت مهدية، لم يكن البياضُ فتنةً ممتدة على حائط الدهشة.. لم يكن غوايةً مسرَجةً على حبِالِ الانتظار..

كان البياضُ يوارى أحداثاً عديدة سقطت من يوميات مهدية المَغشى على سُباتها، وهى توقِّع سقوطَها على قارعة غياب دام أسبوعاً كاملاً. مضت الأيام إلى جوارها دون أن تزعج صفاءَ الشحوب الذى كان مرسوماً على وجه غيبوبتها. أحداث كثيرة تنهك قلب أمها المنزوية هناك على ذلك الكرسى بجوار الحائط. صمتها مريب وعيناها مطبقتان ورأسها يميل نحو الأسفل. لم تكن تتحدث، أو تتدخلُّ فى أحاديث باقى المرضى أو عائديهم فى الرواق الكبير. خرزات السّبحة تكرُّ بين أصابعها تقنْع بأنّ فى السيدة نفسٌ مازال يعلو، رغم صوتها الغائب."

«حارتْ حين أدركت أن زىَّ أمها مختلفٌ بعض الشىء.. بل مختلف كثيراً. كان بلا لون.. أبيض هو الآخر.. أبيض من قمّةَ رأسها إلى أخمص قدميها. غطاء الرأس العلوى والسفلى.. الجلباب.. القفطان الطويل الذى يظهر ذيله من

أسفل فتحات الجلباب.. الجوارب.. الحذاء. لم ترها فى البياض من قبل، ولم تكن رقدة غيبوبتها تستحق كلَّ ذلك البياض الذى انهال على أمها دفعةً واحدة. لم ترَ كلَّ ذلك البياض من قبل عند استفاقتها. وحين اكتشفته بدا لها وكأنّه اندلقَ على أمها دفعةً واحدة دون سابق إشعار. ازداد وهنها حيرةً غير منتظَرة. من أين أتت أمها بتلك الملابس الغريبة التى لا تعرفها خزانةُ ملابسها... لماذا تقابِل ضعف مهدية المريضة بإشعال كل الأسئلة المقلقة فى دواخلها؟ مهدية لم تكن تستطيع إجهاد كل تلك الأسئلة.. فغفت من جديد.

حين استفاقت للمرة الثانية لم تجد أمها مقابلَها. كانت وحيدة فى سكون يغلّف الرواق كاملاً. كانت كل الأسرَّة تأنس إلي النوم. والضوء الخافت يأتى من الممرّ الخارجى، ينبئ بسواد الليل الذى يغسل المستشفى من كل أضواء. وحدها كانت مستيقظة وسط الغرفة الكبيرة. شعرت فى نفسها بعض القوة للتفكير.. قطعاً تخيّلت مرأى أمها بمفردها.. وتخيّلت أنّ أباها وإخوتها غائبون عن يقظتها.. وتخيّلت أمها غير مكترثةَ باستعادتها وعيها.. وتخيّلت أن الوجوم الذى يطبع عائدى المريضات الأخريات، لامبالاةَ حرجٍ غير مفسَّر.. وتخيّلت ذلك الزى الغريب الذى يسدِل بياضه على جسد أمها. ستزورها كل أسرتها صباحاً، سيغدقونَ اهتمامهم على استعادتها بينهم من جديد، وسينسون خروجها المختلَس فى ذلك الخميس المرهِق. ستعود الآن إلى النوم، وغداً ستبينُ الأشياء أمام

ناظرَيْها دون خيالات أو أطياف أو أوهام. ستستجمع قواها للقائهم يوم غد. ستكون فى انتظارهم بكامل يقظتها. ستفاجِئهم جميعاً حين سيأتون صباحاً لزيارتها. ستنام لتكون في الغد أقوى وأشد. سيطمئنون على استقرار حالها غداً. فى الغد سيكون الجميع بخيرٍ، وبحالٍ أفضل» ..

كم كانت مهدية واهمة حينها.. كم كانت تتخيَّل وهى تسرِف فى تفكيرٍ مجانِبٍ للحقائق التى غابتْ عن غيبوبتها.

لم تزرها فى ذلك الصباح سوى أمها. وفى كل الأوقات كانت تزورها وحيدةً، أو رفقة ممّا شمس الضحى إلى أنْ فارقت مهدية غرفة المستشفى الكبيرة. كانت أمها تأتيها فى كل مرّة بزى البياض ذاته. ستدرك شيئاً فشيئاً طعم الفاجعة التى رافقت خروجها المختَلَس. ستعرف أخيراً صوت النحيب الذى دوّى بعد سقوطها على إسفلت الشارع. ستعرف أخيراً صدى الفجيعة التى لم تكن فى استقبالها لحظة وقوعها. ستعرف أثر غيابها عن البيت فى ذلك الخميس الأسود الذى جبَّ بسواده كل الألوان خلفه، وترك البياضَ أرملةً تندبُ فى وحدَةِ بياضها فجيعةَ الفقدان.

بعد خروجها فى ذلك الخميس الأسود بحوالى ساعتين، خرج أبوها للّحاق بها بعد أن بلغَه الخوف على ابنته التى توجّهت نحو بيت ماريا. كان يعلم أن حصة الخياطة تستغرق ثلاث ساعات، لذلك خرج مبكراً شيئاً ما.. كان يريد أن يصاحبها فى طريق العودة ليؤمّن سلامتها. كان يعلم حبَّها الشديد لدروس الخياطة وولعها بكل ما تتعلمه من مهارات، وكان يرى فى الأمر انشغالاً سيفيدها فى أمور البيت والأسرة حين ستتزوج قريباً.

لذلك لم يعترض حين استأذنته أول مرة فى التوجه نحو بيت المْعلمة ماريا. كانت سيدةً محترمة وقوراً، يذكرها الجميع بكل خير. لكن خروج مهدية فى هذا اليوم لم يكن اختياراً يستحسنه أو يوافق عليه. لو علم باعتزامها الخروج لكان قد منعها. لم تُجْدِه فى شيء غضبتُه على زوجه، قبل أن يصفع الباب الخشبى الضخم خلف انصرافه الغاضب. كان يعلَمُ منذ صلاة الفجر أنّ أحوال المدينة ليست بخيرٍ. أخبر زوجه بذلك، لكنه لم يطالبها بأى أمر. كيف لها أن تدرك تلك المخاطر التى يتحدث عنها وهو يغلى غضباً، وهى التى لم تتخطَ عتبة البيت منذ أربعة أيام.. كيف لها أن تدرك أنها ما كان عليها أن تترك مهدية بمفردها فى الأسفل وهى تصعد الدرج فى اتجاه الطابق العلوى.. كيف كان بإمكانها أن تعرف أنّ هوايتَها القديمة ستنغِّص يومها وتحرق غدها.. كيف كان بإمكانها أن تعرف أنّ انشغالها البسيط بغَزْل الصوف فى الطابق العلوى سيقضى عليها بأن تكتوى بغضبٍ وحُرقة وفجَيعة.. سيقضى عليها بأن تفارق الحاَجَّ لآخر مرّة وهو غير راضٍ عليها مثل المعتاد.. سيقضى بأن يحمل إلى قبره سخطَه على زوجه، وخوفه على ابنته، وقلقه على أبنائه. لم يغادر البيت تلك الظهيرة وهو على سجيَّته مطمئِن البال. لم يغادر البيت راضياً على أحد. كيف كان بإمكانها أن تعرف أنّها لن تراه من جديد كما هو. غادر البيت ولم يعد مطلقاً.. فتّشوا عنه طويلاً قبل أن يبلغهم خبر سقوطِه هو الآخر. لكن سقوطه كان مختلفاً عن سقوط مهدية.. كان مدوِّياً.. سقطتُه كانت مميتة قاتلة.. الطلقة الجائعة التى أصابته بنهم، ألقته أرضاً بعد أن اخترقت جسد شاب آخر فى ظهره، وخرجت من صدره.. الشاب لم يمت، ظلّ على قيد الحياة.. لكن الحاج لم

ينج. خرج من البيت ليلاقى حتفه. كان على موعد ذلك اليوم مع وفـاته. لكنها لم تكن وفـاةً عادية.. ليتها كانت وفـاة عـادية دون غضب وسـخط وقتل..

لم يكن كَشْف وفاته واستلام جثته ودفنه بالأمر اليسير.

موته كان ألـماً متواصلاً.. كان حرقة وتَيْهاً.. ضياعاً سكبَ فجيعته فى قلوبهم جميعاً.. ومضى.. كان الجميع يرسُم ليوم وفاته سجدةَ خشوع على سجّادة الصّلاة، لا تستقيم وقفتُه بعدها.. أو جلسةَ تلاوة فوق حشيّته الأثيرة، وآيـات القرآن ملء قلبه وصدره ولسانه وعينيه ويديه. موته كان وجعاً مفجعاً. مهدية الوحيدة التى لم تنل نصيبها الكامل من الوجع القاتل. لكن ما ظلَّ ينتظرها هي، لم يكن مجرَّد وجعٍ مؤجَّلٍ ليُتْمٍ لفَّ كفَنَه سريعاً دون أن تَلحقهُ دموعُها، أو تغمُرُه أدعيتُها، أو تنوحُ لفراقِه مسامُّها.. لم يكن فجيعةً وارَتْها الترابَ قلوبٌ واجفة تسلَّل إليها فى غفلة من الضّياع حقدٌ ومقاديرُ أخرى...

«كان البحث عن مهدية وجهاً آخر للفجيعة.. لكنهم حين عثروا عليها، كان فقدان الأب قد قتَلَهم جميعاً بلا رحمة أو تأنٍّ؛ فلم تعد تلك البائسة الغافية فوق أحد أسرّة سانية الرمل تعْنيهم كثيراً. لم تعد تعنيهم في شيء. لم تعد لهم ما كانت قبل الخميس الأسود.. لم تعد بالنسبة إليهم ما كانت بالنسبة إليهم قبل أن يروْها بأعين القبيلة والعشيرة والدم المراقِ. كانوا ينظرون إليها من قبلُ من زوايا الخوف ويكمّمون صوت انطلاقها. بعد الخميس.. بل يومَ الخميس غدتْ شرفاً وعِرضاً وثقلاً مرهقاً. نسوْها فى عمقِ بحثِهم عنها.. وهم ينثرون تيْهَهم المبعثَر والأهوج بين المستشفيات وثلاجة الموتى

وأرصفة مغسولة بالدم حديثاً لم تحفظ من دفء كَرَزِه القاني سوى الجلطاتِ اليابسة وطنين بعض الذباب اللاهي.. نسوْها مثلما لم ينسَوهاَ من قبل..

كانوا يبحثونَ عن ذواتهم وليس عنها.. كانوا يبحثون عن اسم عائلي يخصُّهم، ما زال عالقاً بها رغم انفلاتِ خطوها. كانوا ينصتون لغَضْبة أبيهم الأخيرة وِفق ما تشتهي نفوسهم الأمَّارة بالاَقْتصاص، بعد أن احتبَسَتْ صرخةُ غضْبته الأخيرة فى صدَرِ أمِّهم البائسة، وقصمتْ ما تبقَّى من ظهرها المنتكس. لم يروا فى أمِّهم الزوج الرضيَّة المقهورة.. لم يعوا أنّها أَرملةٌ تنازِعُ ثكلى كى تغفِر لنفسِها خذلانها لابنتها قبل زوجها.. لم يعوا أن أمِّهم فى منتهى الوجع قد فقدت حنكتها فرمتْ كلَّ ألمِها علي الفتاة الطائشة التى أوصدت الباب الخشبي الضخم خلف خروجها، دون أن تُعلمَها بأنها متَوجِّهةٌ إلي دروس الخياطة.. لم يعوا أن الألم قد محَق كل التفاصيل البسيطة المعتادة، ولم يُبْقِ سوى على الغلِّ والعجز والوجع الحارق.. لم يعوا أن موعد خروج مهدية في كل صبيحة لم يتغير ذلك اليوم فى شىء.. لم ينتبهوا إلى أنّ جريرتها ذلك اليوم كانت جريرة الآخرين الذين لم يرصدوا لخطوتِها الأمان المعتاد، فلا يمكن أن تكون جريرتُها مواصَلةَ السير مثل المعتاد.. مهدية خرجت فى ذلك اليوم ككل الأيامِ. وأبوها عاد إلى البيت فى ذلك الوقت ككل الأيام، ليجد زوجه وحيدةً ككل الأيام. لكن اليوم لم يكن ككل الأيام.. كان

الخميس الأسود.. وسواده كان جريرة لم يقترفها أىٌّ منهم. الآن لا تعنيهم تلك البائسة الغافية فوق أحد أسـرَّة مستشفى سانية الرمل لا تعْنِيهم كثيراً أو قليلاً. يكفيها أنّها قتلَته وهو يبحثُ عنها.. فلْتكن على قيد الحياة.. يكفيها أن تكون علي قيد الحياة.. ماذا تبغى غير ذلك.. إنها حيَّةٌ سامّة رقطاءُ وقاتلة.. لن يزورها أحد.. سمُّها بلغَهم جميعاً.. لو لم تخرج من البيت خلسةً صبيحة ذلك الخميس، لما كان أبوهم فارق الحياة... ستلقاهم فى البيت حين ستغادر المستشفى.. ولتتحمّل ما ستلاقيه منهم.. إنها تستحقُّ أكثر من ذلك، لم تعتقد أمها فى يوم من الأيام أنّه سيفارقها غاضِباً ودون وداعٍ. كانت حريصةً فى كل عمرهما المشترك على رضاه. كانت تتلو دعاء رضاه فى كل صلاة.. وحين يموتُ يموتُ حاقداً عليها.. يموت بعيداً عنها وقلبه غاضبٌ عليها وعلى أبنائها.. يموت غدراً.. ولا يستلمون رفاتَه إلا بعد أن يحكِم السوادُ آثارَه على قلوبهم جميعاً.. لو لَم تخرج مهدية من البيت خِلسة صبيحة ذلك الخميس الأسود لَما، ...

أحداث ومشاعر وأحاديث وخِطابات عديدة مرَّتْ فى غياب الفتاة..

أشياء عديدة طوتها أيام ذلك الأسبوع المفجِع دون أن تفطن مهدية لمروقها السريع. كلّها مرَّت فى غيابها دون أنْ تأبه لغياب تلك الفتاة. تلك الفتاة الطائشة، تلك الفتاة التى ينادونها مهدية كلَّفتِ الجميع سواداً قاتلاً استوطن القلوب فى غفلةٍ من كلّ اللحظات المستعجِلة.

حين استوت مهدية على سقف اليقظة أدركتْ أنّ الغياب كان رحمةً لم تَطُل.

تمنّتْ مهدية حينها لو أنها لم تستفِق من غيابها.. تمنَّت لو لم تكن على قيد الحياة أساساً.. لو لم يكن هناك خميس أو جمعة أو أى يومٍ آخر...

كم تغدو الحياةُ عابثة حقود حين تمارس ذاتَها بتشفٍّ مغرقٍ فى الوجع. أنْ تواصِل مهدية الحياةَ بفضل حسنةِ ملاكٍ ارتمى على ضعفها فى ذلك الخميس الأسود، لتموتَ أخيراً فى قلوب من تحبّ.. منتهى عبث الحياة.. أو منتهى ما يصِلُه موتُها على قيد الحياة.

وكأنَّها مستدعاةٌ إلى ضفاف غيابٍ آخر، عليها أن تمارِسَه بأقلِّ قدْرٍ من الحياة.. بأقلّ قدر من الوجود.. بأقلّ قدر من الفِعْل.. بأقلّ قدر من القوة. عليها أن تموتَ لكى تحيا معهم.. عليها أن تستسلِمَ.. أن تقنعَ.. أن تصمتَ.. أن تكونَ ما يريدون..

...عليها فى الأخير أنْ لا تَكونَ..

الورقة السادسة

تلك المِرآة التى نطالعُ وجهنَا النّاعِس على صفحَتِها كلَّ صباح...

تلك المِرآة التى نُعانِق فيها ملامِحنا بعد العودة صباحاً إلى الحياة، مثل الشمس بعد موتِ الليل القصير.. ليست صادقةً تماماً.. ليست بريئةً تماماً.. ليست واضِحةً تماماً.

بدورها تأنس فى الكثير من الأحيان إلى السُّبات.. تغفو مثلما نغفو جميعاً. لا تميِّز بين رحلة الشتاء والصيف. ولا يعتورِها شىء من خوفٍ أو جوعٍ. تظلُّ هناك معلَّقة علي جدار خُلوتِنا بصمتٍ مريب، لا يثيرُها فى كثير من الأحيان مُرُوقنا السريع أمام برودِها. تظل ترقُبُنا. تنظر إلينا نعبرُ أمامها.. نتفرَّسُ فى ملامِحِنا.. لحيةٌ تعاندِ شفرة الحلاقة.. شاربٌ يسابق فى تناميه سرعة ذقن بطىء.. شعيرات بيضاء تطلُّ قبل الأوان.. هالاتٌ تَسْوَدُّ.. ندْبٌ قديم من جرح طفولة مشاغبة.. بريقٌ يومِض دون موعد سابق...

ننسى أحياناً أن نتفرَّس فى ملامحنا.. نمضى عابرين أمامها. ليس كسلاً بل لأنّنا نمارِسُ خلسة الهروب من مواجهتِنا.. من مواجهَة أعيُنِنا المتفحِّصة.. ونمضي.. وتمضى الأيام..

ونفاجأ فى صباح غائم من صباحات فصل الخريف أنّنا نسينا المِرآة المعلَّقة هناك علي جدار خُلوتِنا، فى مروقنا أمامها كلَّ صباح.. أو هى أمعنَتْ فى نسياننا بعد أن تجاهلناها طويلاً. وحين نرفع أعيننا أخيراً، بموازاة محيّانا المرسوم بقلبِ المِرآة، نَرَى أنفسَنا بغتةً آخرين.

لم أكن أرانى حينها.. بل كنت أرى آخرَ لا أعرف من يكون.. أو أنا فى الواقع أعرف من يكون، لكننى أستغربُ أن أكونَه فعلاً.

كيف غدوتُه؟؟

متى.. وكيف.. ولماذا؟؟

الأجوبة ليست مهمّةً حينها لأنها بمثابة تحصيلٍ حاصلٍ يفضى إليه جرسُ السؤال المزعج.. الأهم هو لحظة التأمل المفرَغة من الرياء.. الخالية من اللامبالاة.. المُفْعَمة بالعمق.

من أكونُ فعلاً؟

كنتُ أراودُ ذلك السؤالَ قبل إشبيلية، لكننى عدت إليه وأنا أغوص فى عشقها.. عدتُ إليه وأنا أستعيد ألوانى لأرسمكِ فاتنتى من جديد.

وأرسمكِ فى لوحة الروح بيضاءَ كندف ذلك الثلج المشتهى.. زرقاءَ كالحلُم الغافى.. صفراءَ كالشعلة الموعودة.. حمراءَ ككرزٍ لا يخجل. وأنتِ لي.. لى وحدى فى نهار ليلي الذى لا ينام.. أستعيدك ناراً لا تحرق.. وماءً لا يروي.. وأرسُمُكِ.. أنتِ أنتِ.. وأرسُمُكِ.. وأنتِ أنا.. وأرسمُكِ وأنتِ تُعيدينَنى إليَّ أخيراً.

تعددت لوحاتى عنكِ.. وتعدَّدت مراياَيَ المنكَسِرة.

فى كل لوحة كنت أكسر مرآتى إلى شظايا. أكسِّر من أكونُه، كى أغتسِل من ملامحى، وأرتدى ذاتى الجديدة، القديمة. فبين الجديد والقديم كنتُ مُتْرعاً بالشوق إلى الحياة. كانت مِرآتى تخذِلنى فى كلِّ مرّة حين أعانِق ملامحى على سطحِها صباحاً.. من فرط ما اعتادتْ غفوتى المتواصلة.. لم تعدْ ترانى.. ولم تعد تريدُنى أنْ أُرانى كذلك.. وكان ضرورياً أن أكسِّرها كى أرى ذاتى دونها.. دون نفاق الصباح النّاعس.. كان ليلى المظلِم قد طال أمدُه، والصبُّح يطلُّ بمحاذاتى ولا يغمرنى بنورِه..

واكب ظهورُ "أنّابيلاَّ" في حياتي تلك المرحلة.. مرحلة بحثي عن الصفاء.. توقي إلى تصالحٍ جديد أبنيه بصوتٍ مرتفعٍ هذه المرة، وليس بهمس مثلما كان حالي في مسالك "ويست إند" لندن.

أحببتُها دون أن أنساكِ.. قد أكون أحبْبتُها لأنّها ليست أنت.. أحببت اختلافها عنك.. لم تكن تشبهك في شيء.. ربما كانت ما ظننتُكِ ستكونينَه لو أتاحت لك الحياة في تطوان، ما أتاحَته لها نشأتها المنفتحة هنا.

أنتِ نشأتِ في بيت يمارس الحبَّ في حواشي الليل تحت جنح الظلمة. وفي النهار يجانِبه كي لا يخجَل مما اختَلسه في خلوة شرعية بعيداً عن أعين المتلصِّصين.

أما هي فنشأتْ في بيت لا يخجل من الحب ولا يراوغه.. يمارسُه في وضَحِ النهار، على العلن، أمام الملأ.

ستشاكسينني أدرك ذلك؛ وكيف كان بيتُكَ أنتَ أيها المتباهي في صلته بالحب؟ بيتُكَ أنتَ في مدينتنا الأثيرة، في ماضي مُقامك بها؟؟

كان الحبُّ موجوداً في بيتنا. ندركُه جميعاً. يلقي بظلالِه على لَمّتِنا دون مواربة.

كنّا نحسُّه ونلمسه ونسمعه دون أن نراه. بيتنا كان بيت فرح وشغب لا ينقضي. لا أذكر أننا رأينا أبي وأمي يتبادلان قبلةً ساخنة.. لا أذكر أنّنا كنّا نراهما يتبادلان حتى تلك القُبل التي كنا نتبادلها بيننا نحن الإخوة إلا إن كان أحدهما قادماً من سفر، والثاني ينتظره بشوق لا يستطيع مهما داراه النجاحَ في إخفائه. كان الحب بيِّناً في تصرُّفاتهما اليومية. أبي اليميني المحافظ حين كان ينزع رداء المحامي ويعود إلى البيت كانت عيناه ترتَديان

نظرات مختلفة، وهو يطالعُ وجهَ أمّي. عند التَّلاقي كانا ينفردان بأحاديث كثيرة فيما بينهما.. لا يملّان من تناقل ما يمتلكانه من مستجدات هنا وهناك. يحكي لها عن أخبار منتديات المدينة، عن موكِّليه الذين تعرف قضاياهم، وكأنها سكرتيرة المكتب أو أحد المحامين المتدرِّبين. يقصُّ عليها أخبار المرافعات والمَقَالات المفتوحة وعرائض الدعوى وعرائض النقض... لم يكن لأحدٍ منا أن يمتلك قدرتَها على مجاراته ومحاورته في أمور مكتبه وخباياه. كان الحوار بينهما يتمُّ بهدوء، يشعرنا بأنَّهما يتناولان وجبةً تخصُّهما بمفردهما في خشوع.

وكانت تحكي له عن يومها بالمدرسة.. عن أصدقائها وزملائها المعلِّمين والمعلِّمات والمدير الجديد وتجاذباته مع النائب الإقليمي.. عن التلاميذ وطرائفهم وحكايات أُسرهم.. عن أخبار الحركة الانتقالية وصادراتها ووارداتها.. عن أخبار المدينة وأهلها وساكِنتها وضواحيها.. كلُّ يومٍ يحمل الجديد. وكلٌّ منهما يشرك الآخر فيما يحياه خارج مساحة تغطية البيت. وكانت الحياة بينهما تمضي في دعَّةٍ وهدوء.. لم يعكِّره إلا ما اقترفه قدري من هروبٍ جاحِد، وما أملاه قدر عمّي البشير من اعتقالٍ مُجحِف.

الحب كان زاد بيتنا الذي كنّا نرتوي من نبعه البيِّن. وكنا نشاكسُه بشغب حين كانت علاماته تطفو على وجه أحد إخوتي أو أخواتي.. بل كنّا أحيانا نتطاولُ قليلاً لنحثَّ خدَّي أمّي على التورُّد، أو لندفعَ صوتَ أبي الجهور إلى الارتباك.

لم يكن الحب في بيتنا يمارَسُ في حواشي الليل تحت جنح الظلمة وفي النهار يتوارى، كي لا يخجَل العشّاق مما تبادلوه في السرِّ والخفاء والخُلوة..

كنا نتعلَّمه من الحب المضمَر حيناً والظاهرِ حيناً بين أمي وأبي. ما كان بينهما لم يكن مجرَّد ألفةٍ أو عِشْرة.. ولم يحاولا في يومٍ من الأيام إيهامنا بذلك.. كنّا نعلَمُ أن خالي محمّد صديق أبي المقرَّب، كان وسيط قصة الحب بينهما، وأنّ ثانوية القاضي عيّاض المَجيدة جمعتهما في سنة واحدة.. أمي كانت تلتحق بسنتها الأولى وأبي كان يغادرها نحو كليَّة الحقوق بالرباط. كانت لهما أسرارهما التي ينثرانِ الإشارات إليها في أحاديثهما العديدة، فيتحولان بغتةً إلى عاشقين يُربِكان، دون إدراك أو تعمُّد، حضورَ كل من يجالِسهما.

أنا نشأت في بيتٍ لم يُوَارِ الحبَّ كثيراً، بل كان يفخَر بعطاياه.

قد تكون تلك النشأة هي التي جعلتني لا أفلَحُ في منحِ "أَنّابِيلًّا" ما تطمح إليه من أمانٍ عاطفي.. لم أفلح في إقناعها بإخلاصي، رغم أنَّني لم أنشغل يوماً طيلة التزامنا بالحياة المشتركة بامرأة أخرى غيرَها. لم أفلِح في إقناعها بإخلاصي وهي ترى تلك الغائبة التي تقطنُ كلَّ لوحاتي لا تترك لها حيِّزاً للحضور أمام عينَيَّ، أو في أغوار قلبي. حاولتِ المسكينة كثيراً استيعاب ماضي. بذلتْ كل ما في وسعِ الحبّ من قدرةٍ على النَّسخِ والمَحْوِ والخلْق. لكنّني لم أكن مكتملاً. كنتِ تنقصينَني.. ربما، لم أكن جاهزاً للحبِّ من جديد. لم أتمكن من مسايرتها بشغف كانت تطلبُه باستمرار. أحببتُها بصدق. أحببتُها بكلِّ ما كان في وسْعُ الحبِّ أنْ يسَعَني حينها. لكنه لم يكن الحبَّ الذي يرضيها.. لم تكن تشعر فيه بالشرّارة التي تحرِق كلّ لوحاتي بِاسْم طيف عابرٍ قديم.

كانت دوماً تتوق إلى أكثر.. وأكثر.. وأكثر.. ولم يكن في استطاعتي منحها ذلك الأكثر.. لم يكن في استطاعتي منحها ما تتوق إليه. في يومٍ من

الأيام سحبَتْنى من مرسمي، كانت عشيّة سبتٍ معتدل من شهر مايو، ودعتْنى إلي العشاء خارج المنزل. كانت تلك طريقتها في اتخاذ القرارات الكبرى. شعرت منذ ليلة الاثنين السابق بأنها ليست على طبيعتها. طقس الاحتفاء الذى خصّت به ليالى الحبِّ مثلما تسميها كان احتفالياً أكثر من اللازم. سأدرك لاحقاً بعد وجبة العشاء تلك، أنّ الفراق في عُرف أنّابِيلّا كان يحتاج بدوره إلى احتفال كبير. لا بد أن نتذكَّره لاحقاً بفخر، وأنْ نخلِّد ذكراه بوصفنا أصدقاء.

فى مساء ذلك السبت الذى انتقتْ تفاصيلَه بعناية مفرِطة وكأنّنا نستعدُّ لحفل عائلى فخم.. فستانها.. الحذاء.. حقيبة اليد.. تسريحة شعرها الكستنائى.. عطرها.. زينتها.. الطقم الذى حلّى جيدها وأذنيها وأناملها الرقيقة.. لم تكن الأساور تستهويها.. بل لم تكن تحبُّ قيودَها إطلاقاً. كل التفاصيل انتقتها بعناية مفرطة فى التّرف.. طقمى الرسمى الباذخ.. قميصى الوردى الحريرى.. ربطة العنق.. حذائى.. ساعة معصمى.. عطرى. أخبرتنى أنّنا نستحق احتفالاً أخيراً.. أنّنا نستحقُّ أن ننفرِد عن العالم.. وأن نكون عاشقيْن جميليْن.. وأنْ نكونَ معاً بحبٍّ للمرّة الأخيرة. أخبرتنى بأنها تريد أن نظلّ أصدقاء وحسب.. أن نتركَ خلفنا كلَّ ما كان يربطنا من قبل وأن نفتَح صفحة جديدة.. كتفى لها وكتفُها لي، متى شئتُ ومتى شاءت. أخبرتنى أنّها قد تعرّفت قبل أسبوعين على شخص وتريد أن تكون بدايتها معه بداية نظيفة دون خداع أو زيف.. أخبرتنى أنها قد أحبّتنى بعمق.. لكنه لم يعد بإمكانها أن تواصل ذلك الحب، وهى ترانى أسير صاحبة اللوحات، مالِكة قلبى الوحيدة.

لم أتفاجأ كثيراً.. كنتُ أعلم أنّ أنّابيلّا لا تحبُّ المداراة ولا تعرف المراوغة.. كنتُ أعرف أنّ أوان انفصالنا قريب. لكنني لم أتخيّل أن توفرَّ له كلّ ذلك البذخ. كان الانفصال احتفالياً بكل المعايير. ودّعتْني بكل جوارحها. وتركت لكل جارحة نَصْب احتفائها الخاص.. الجسد.. والعقل.. والروح.. والقلب.. سمَّتْني في الأخير صديقَها.. بعد أن غدت لي صديقةً.. كانت في الأيام والليالي السابقة لمساء ذلك السبت تتوِّجُ كلَّ تاريخنا معاً بآخر تذكار. وكانت تريد لذلك الأخير أن يكون الأجمل. لم يفتني كلُّ الفرح الذي كانت تنشره في منزلنا، وهي تنتظر أوبتي من العمل مساءً.. لم يفتني مرأى الشموع، أو التقاط أنغام المعزوفات، أو استنشاق مختلف العطور والورود.. أو عدُّ المآدب الكثيرة المتاحة.. أو إدراك كلِّ العطايا التي غمرني فيضُ نعيمِها. كنت أراها ترسُم على طريقتها في فضاء منزلنا لوحاتِ الحبور والفرح والمتعة.. لكنني لم أنجح في فهم مقصدها.. ظننتها تودُّ أن تزيح الرتابة التي مضت في نسقها الأسابيعُ الأخيرة.. لم أعتقد أن كلَّ الحب الذي أغدقَتْه عليَّ في أسبوعنا الأخير كان عربون انفصال راقٍ ورائق. لم تترك خليَّةً في جسدي لم ترْوِها فرحاً وانتشاء وسعادة. وتركت للنهاية أفضل فصل ختام، بعد أنْ أتخمتْني بكل ما تعلَمُ حبِّي له، أهدتني في الأخير قلبي حرّاً.. قالت إنّها لن تأسره أكثر، وهي تعلَم أنّه ليس ملكي ولم أكن يوماً صاحبه. لم تلُمني لأنّني لم أمنحها ما كانت تتوق إليه من حياتنا المشتركة طيلة سنوات.. لم تحاسبني لأنّني لم أفِ بعهودي التي أصرَّت كثيراً على أنْ أكتُبها حرفاً حرفاً وأن أتلوها مرَّات عدة.. أذكر أني قد تلوْتُها في أولى ليالي ارتباطنا، تلك الليلة التي احتفلنا فيها رفقة بعض

الأصدقاء في شقّتنا المشتركة. وتلَوْتُها مرَّةً ثانيةً الفجرَ الموالى حين دعانا الشغف إلى إشعال اللهفة فى ثنايا الجسد.

لم تتهمْنى. حررّتنى كلّياً من كل أثقال القلب. ومضت بكامل أناقتها.

كان فصل الختام الذى اختارته لحياتنا بالفعل أجملَ لوحة عشْتُها فى حياتى.

كان أجملَ لوحةٍ عشْتُها ولم أرسمها.

كان أروع ذكرى.. صعبٌ أن يتخيّلَ إنسانٌ ما كلَّ ذلك الرقيّ.

أنّابِيلّا.. أنّابِيلّا..

قد أكون أحبَبْتُها بعد ذلك الاحتفال أكثرَ من كلّ لحظات الشغف السابقة.

شعرتُ بألمٍ لفقدانها. لكن لم يكن لى أن أستبْقيها.. أو أطمح فى الرجوع قليلاً نحو الخلف لاستعادة حياة أنهتْها هى بكلِّ حبٍّ وصفاء واحترام.

لم يكن فى مقدورى خذلان كلِّ التّسامى الذى أبانتْه فى تفاصيل أسبوع كامل انتقت على معاييرها جمالَه واتّزانه، لتعلِنَ أنّ صداقتنا أهمُّ من كلِّ ما لم نفلَح فى تحقيقه بيننا.

لم يكن فى مقدورى خذلان الصديقة التى تقف عند نهاية الحلم الجميل، لتقول لى:

Porque yo te amoÅ, eligo no odiar lo que fue entre nosotros..

E porque yo no quiro perderte, eligo liberarte. A.

"لأنّنى أحبُّك أختارُ ألاّ أكره ما كان بيننا.. ولأنّنى أريد ألاّ أفقِدَكَ أختارُ أنْ أحرِّركَ.."

تقابلنا كثيراً بعد ذلك الموعد، لكننا لم نعد إلى ما كنّا فيه.

عرَّفتنى على خوليو، وتشاركنا أحداثاً عديدة.

وجدتُ نفسى بعد ما يقارب سنتين أحضر حفل تعميد أبُولُو وأغدو حاضناً له، ولفرح أبويْه أنّابِيلًا وخوليو به.

بعد سبع سنوات قضيناها معاً ما آمَنَتْ أنّابِيلًا لحُبّى كى تدَعَه يثْمِر. وبعد سنة واحدة مع خوليو أشرقت الحياة فى رحمها لتهبها الفرح الذى كانت تتوق إليه.

قد أكون حمدتُ للقدر تصاريفَه حين زارنى عمّى البشير بعْد حفل التَّعْميد ذاك ببضعة أشهر، ليجدنى وحيداً تائهاً من جديد. وجدنى بمفردى مرّة ثانية. وحيداً لم أفلح فى الخروج من طور العتبات. كانت الوحدة والعزلة رداء يلائم الغربة الحزينة..

كنت وحيداً.. وكان ذلك عزائى وأنا أستقبِلُ صمتَه وشروده فى سكينة بيتى.

لم أبحث بعدها عن الحبّ. كانت أنّابِيلًا قد زوَّدت قلبى بتطعيمٍ ضدّ أى اختراق. جعلتنى أرى بشكل واضحٍ أننى لم أعد صالحاً للحب. أدركتُ بعدها أنّ أيا قصّة حبٍّ جديدة فى حياتى لن تعدو أن تكونَ مغامرةً عابرة. لم يكن قلبى لى، مثلما ختمت لقاءنا فى ليلة السبت تلك. ولم يكن لى أن أمنح لأيه امرأة ما لم أكن أملكه. ما دون ذلك كنت أستمتع بمنحه وبسخاء. أما الحب.. فلم أعد أطمح إلى الاستقرار بين ظلاله.

لكن الاستسلام أحياناً لا يفيد التصالح مع الأعطاب. هو وصْلة للاستراحة، يظل النقص ثاوياً فى عمقها. وكانت وصْلتى طويلة.. وكان النقص قائماً لا ينمحى أو يزول.

قد يكون للإقامة خارج منعطفات الحب سحرُ البدايات التى تبزغ بغتةً على إيقاع رنَّة جرسٍ أخطأ مواعيده، وأنشد معزوفته بعيداً عن انشغالاتكَ برأب صدع صمتٍ كان هناك قبل حلوله.

لكن منافسة الزمن فى المروق سريعاً أمام دهشة الساعات، ذلك ما كان يعنى العتَبات التي كنتُ أقف بمحاذاتها تماماً. لم تكن العتبات تعبأ كثيراً بالانتظار. ولم أكن أنتظر شيئاً أو شخصاً. كنت مكتفياً بمنصب الشَّراكة المريح فى المؤسَّسة؛ مشاريع هندسية كبرى ودخل جيد ومبالغ استثمارية سنوية، ومكافآت تحفيزية مواكبة لنسب الأرباح، ورهانات ابتكار وإبداع وتنافس لا تخمد.. ولوحاتى ومرسمى ومعارضى تجتذبنى نحوها فى فسحات تنشُدها الروحُ لاغتراف الجمال.

لم أكن مغرماً بالعتبات، لكنها كانت تستدعينى نحوها كثيراً. ويقف خطوى بمحاذاتها، لا يستهوينى عبورها. ولا أفكرُّ فى العودة نحو الخلف. أظل هناك زمناً. وتمرُّ جوارى أزمنةٌ دون أن أنتبه إليها.

مرّت ستُّ سنوات على وحدتى دون أن أنتبه إلى ذلك. لم يكن حظى من الخطو قبل الهروب يصيبنى بكل هذا الارتباك. لم أعرف البطء. ولم أكن متسرِّعاً. دوماً كنتُ أضعُ قدميَّ على أرض صلبة، وأحثُّ الخطى نحو الأمام. بعد التيه واللجوء ضلَّت قدميَّ هدْيِ السُّبل. انفتحت أمام حيرتى متاهاتُ عديدة. وغشىَ قلبىَ دَمعُ الأحباب. كانت رائحةُ الدم المسفوح ما

زالت عالقة بأنفي. وشرودي بعيداً عن زنزانة عميّ البشير يقصِمُ باقي يقيني. عالَمٌ تهاوى بداخلي. صوتُ التهاوي كان شريكَ صمتي.

صباح ذلك الأحد حين توجهتُ إلى الباب كي أفتحه، كنتُ أحملُ معي تفاجئي من جرس باب يخلفُ مُعتاد مواعيده. فلم يكن مألوفاً أن أسمع صوتَه مع قهوة الصّباح في يوم الأحد، حيث الكل يمارس طقوس نهاية الأسبوع بخشوع. لكنّي حين فتحتُ الباب لم تنصرف دهشتي بل تحولت إلى صعقةٍ لم أعرف كيف أحسِن التعامل معها. لم أتعرَّف على تلك السيِّدة التي تطرُق بابي. كانت ملامحها مألوفةً شيئاً ما لكن دون أن أفلح في تذكُّر من تكون. توتري كان بادياً على ملامحي. وارتباكي كان منحوتاً في شكل جسمي الذي ظلّ متمسِّكاً بالباب بيدي اليمنى ومستنداً إلى الجدار باليد اليسرى، وكأنّني أصدُّ به أيةَ محاولةٍ للدخول. كانت تبتسمُ لي وصُورَةٌ أمامي تتخذ بعض ملامحها دون أن تتحول إليها. ظلّت واقفةً.. صامتةً.. مبتَسِمةً.. وظللتُ في ارتباكي.. أغرق في صمتي أكثر.. فأكثر.. حين استوى لساني في منتصف فمي بعد أن تحرَّر من التصاقه بالدهشة وانطلق صوتي من تلعثمه، بدَل أن أسحبَ معطفيَ من حاملة المعاطف بجوار الباب وأدعوها لمصاحبتي خارج البيت إنقاذاً لما تبقّى من جموح الجنون الذي سيكْنَني فجأة، ضمَمْتُها إلى صدري بكل ما وسِعَ شوقُ السنين الهاربة.. خبَّأتُ رأسي في عطر جسدها. احتميتُ بدفئِها من جليد الضياع الذي أفناني.. قبَّلتُها بجنون ما ادَّخَرْتُه للحياة في كلِّ السنوات التي لم أحْيَها.. غمرتُها مثلما يغمرُ الندى وريقات الوردة العطشى، ومثلما يغتَصِرُ السيلُ وريقات الشجرة الخجلى.

أدركتُ حينها لأوّلِ مرّة بجلاء متصوِّف، أنَّني كنتُ في كلِّ لوحة أرسمها لها في كلِّ السنواتِ الماضية أستدعيها كي تأتيني.. أستدعيها كي تعبُر الماضي الأليم وتأتيني.. وكأنّ الألوان وهي تتلمَّسُ الطريق نحو ملامحِها في كلِّ مرَّة، تستجديها صامتةً أن ترحَمَ المسافاتِ من وهَنِ الانتظار. لم يهمني حينها كيف اهتدتْ إلى عنوان ضياعي، كيف استطاعت أن تسلك درب اغترابي. لم يعْنِنِي حينها أن أستَأذِنها قبل أن أطويها بين ذراعيّ، لم يعْنِنِي حينها زيُّها الذي كان يضعها داخل حصنٍ أسود مغلَق، وهي على مرمى قبلةٍ. كان وقوفها ذلك الأحد على باب بيتي في موعد قهوة الصبّاح، لا يقْبَل احتمالات كثيرة. كانت عتبة ولوجي الحياة تناديني، وحسب..

«انغلق باب المصعد على وحدتهما. كان الصمت ثالث الخلوة، ولم يكن هناك من يشهد حديثه المتواطئ. لم يكن أحدهما يقابل الآخر. كانت الخلسة تقتنص أفكارهما التي تمضي بعيدا عن لحظة المصعد تلك. لم يسبق لهما الالتقاء ضمن فضاء خاصٍ كذلك الذي جمعهُما منذ البارحة، كان لهما بمفردِهما.. وكانَ لفرَحهما المشاغِب وظمئهما المكسور. ما انفتحَ أمام ضيق المصعد ذاك وهما يغادِران صباحِ الاثنين البناية من امتدادات وجودية كانت تستحق مفاتيح رواية أخرى. باب المصعد المغلَق علي أحلامِهما السادرة في تحليقها، وقبضتيْهما المتلاحمتَيْن كان مروجاً للحياة الممتنعة، تتسّع برؤيا نافذة إلى خارج الحديد الصلب».

أنا أرانـى أخرى

الورقة الأولى

«أنْ تُعيدى اكتشاف ذاتك وأنت تقرئين ما ظننته رسائل حبٍّ لم تُرسَل، أمرٌ مذهِل. تنفتِحُ لدهشَتكِ أمام صفحاته صفَحاتُ تاريخٍ منسى.

وتُواصلِين الإمساك بذلك الخيط الرَّفيع الذي كلَّما قلَّبت الصفحاتَ تلتفتين إلى كمِّ الألم الذي غلَّف مداداً يتعرّى من كل الأقنعة، وهو يري ذاتَه، ذاتَك الكونية، لوحةً تلتحفُ كلَّ الأزمنة التى أدْمتْها وأرهقَتْ صفَاءها دون خجل أو مواربة.

وتُسرعين إلى بياضكِ لتُغلِّفى به سواداً كان هناك في الماضى. لَزِمَ أنْ تُصالحيه بوجع، منذ زمن، لكي تكونى أنت أنت التى تمسك بزمام اللحظة الآن. كان التصالحُ اعترافاً، أو ميثاقاً، لم تعقدْه فى صمتكِ سوى ذاتكِ الفردية مع تلك الذات الكونية، قبل أنْ تدركى بعد قِراءة الصَّفحاتِ واستيعاب ما تداولَتْهُ الحكاية، زادَ الكتابة أو يدركك.

ويدْفعك اعترافُ الحروف الشهية الدَّاميةِ إلي الانسكاب غيمةً تمحو ما تبَقّي من رواسبَ لم تتبيَّنى أنها ما زالت هناك إلى حين انفتَحَ أمامَك عالَمُ الرواية.

لم يكن مقدَّراً لك أن تظلى على هامش حكاية تحكي عن أخري تُشبهِك، وهى تحكى عن مهدية. أو تحكى عنهما معاً، لتحكيك أنت. لَيس سهلاً أنْ تجدى الرواية تُفرط فى تشريح حياتك دَون أن تستَعدّى بالمخدِّر الملائِم لكل غُرفِ العمليّات

التى عبرْتها فى ملامح أخرى، هى أنت وأنت هى. ليسَ ممتعاً أنْ ترىْ عريك معروضاً لفتنة القراءة، وأنت التي صامتْ بسبق إصرارٍ وشبهةٍ وبعضِ إدانات لئيمة عن اقتراف الإغراء أو مسايرة الغواية.

وضعتك صفحات عزيز وعمران أمام اكتشاف ذاتك الكونية، وأنتِ تقرئين ما يُفترض أن يكون كتاب مهدية، أو كتابك أنت. مررْت بصمت بجانب انعكاسات مرايا كثيرة صقلتْها الرواية بمواربةٍ حيناً، وبهدير أحياناً. لم تستغربيها. لأنّك تعلمين فى عمقِ الانتشاء السرّي باحتفاء لم تنتظريه أنّ الصوّر بطبيعتها تقلب الاتجاهات وهى تجاهر باستنساخ الأشياء، وأنّ المرايا تعقد للبصر خديعة الانعكاس وهى توهمه بمطابقة الأصول.. وانفتحتْ فجأةً لدهشتك أمام صفحاتها صفحات تاريخ منسى لعلاقة تلك الأنثى المتوارية فيك بجسدها.. جارحةً كانت تلك المرآة التى أقامتها الروايةُ بشفافية الإبداع وجرأة الرسم.

وتقفين بانفراد أعزل فى مقابلِ اللوحة، لوحتك أنت، لوحة تلك التي تشبهك، لوحة مهدية التى تداخلتْ فيها الألوانُ حتى لم يعد بالإمكان توقُّعُ مساحة تشعُّ منها أضواء وظلال جديدة. ويدعوك عزيز إلى مواصلة الكتابة».

لم تطمح أحلامى البسيطة فى يومٍ من الأيام إلى أن أغدو شخصيةً لكتابٍ، أو بطلةً لمؤلّف شهير. ولم أعتقد أنّ ما قدَّمته لى ظلماتُ الليل بالصبرِ والمُثابرة حين سلبَتْنى القدرة على الجهر بصوتى، سيضعنى أمامَ تحدّى أنْ أكتُب سيرتى بمدادِ غيرى. لم أخطِّط يوماً لأن تباغتَ فوضاى روايةٌ لم تُعلِمْنى بأنها موجودةٌ لتحكى عنّى، أو لتحاكى صوتى.

حين ولجتُ عالم هذه الرواية، وأنا بعدُ فى الداخل لم أفارِقْ أزقَّته أو دروبه المتداخلة، كان الوعى بمكر الكتابة حاضراً فى ذهني. لم أتسلَّل إلى ما ترسُمه من شخصيات وأزمنة وأحداث... حافيةَ القدمين بل حملتُ شغف الطفلة وانتعَلْتُ احتراز السيِّدة وارتديْتُ تهيُّب الفنّانة. كنتُ أتنقَّلُ من رواق إلى آخر، ولهفة الاكتشاف مصحوبة فى دواخلى بدبيب الرعشة يُخامِر النفسَ ويصدُّها عن المتابَعة. كانت القراءة تُنضِجُ أمام صدمتى صوراً مُثقلَة بأحمال ذلك الماضى وهو يحكى عن مهدية.. عن تلك التى تشبِهُني.. عن تلك التى كانتْ "أنَا".

لم تكن المرايَا التى نُصبَتْ أمام لوحة مهدية باسم الحكاية صافيةً تماماً. وليس لى أنْ أدعِّى القدرة على رسمِها من جديد بصفاء لم يكن لى فى ماضى حكايتها، أو حكايتي، ولم يكنْ لى فى نَسْغِ الرواية حين كتَبَتْني. الرَّسمُ كان دوماً حُلمى الممنوع.. توقى الأخرس.. صوتى الصّارخ.. والكتابة الآن تمكُر بى وهى تستدرجنى نحو حروفها، مثلما استدرجَت عزيز قبلى منذ سنة كاملة. كيف للوحةِ أنْ تنطِقَ بصوتها الأخرس عبر حروف أتعلَّمُ الرسْم بها فى ظلال الرواية؟

الوفاء لمدينتنا الجميلة تطوان التى جمعتنا على حبِّها بمصائر متعدِّدة، يغرينى برسمِها للمرّة الألف باللون والحرف والجسد. أيكون ذلك مدخَلَ الغواية الذى وضعَهُ الكاتِبُ بمكرٍ، لكى يستدعى ولهاً لا نداريه أمام بياضِ لوحتها الشهية؟

طُرُقاتنا تقاطعتْ دون أن نلتقي.. وألتقيكَ أيها الكاتب بفيض ترصُّدِكَ لأحلامى وتتبُّعِكَ لأهوائى، وسكَنِكَ بين جوانِحى... وتريدنى أنْ

أمضى خلف خطاكَ لأُهديكَ باقى أيامٍ لم يغتَرِف نبعَها سيلُ إبداعك. ألمْ يكن بمقدوركَ أن تُتِمَّ ما كانَ لكَ دون أن يكونَ لنا؟ ألمْ يسَعْ مخبوءُ سردكَ غافيَ الذات، وانتفاضَ الجسد، وانتصارَ الرّوح... فلم إمعانكَ فى استدعاء أصواتنا وقد كانت لك دون تنازع؟؟

ليس لى من ذلك الأمس الصامت إلاّ ما كتبْتَه.. فما يُجدينى تقفّى خطوٍ لم أكنْ فيه إلا على هواكَ لوحةً مرفوعةً فوق خشب مكتَبك؟

ليس لى فى ماضيكَ، ذلك الماضى الذى اخترْتَهُ لي، ودفعت عزيز إلى تزيين حواشيه، علاقةُ بالكتابة. وتريدنى أن أغفرَ لك وأتابع رغم فارق التوقيت ضبط ساعاتِ الكتابة وإعفاء علب الألوان والفُرَش، لأواصل مجداً لم يكنِ لي.. تريدنى أن أروى ذلك الماضى الأجدب لتخليص روحك وتكريم ذكراك. وتدفعنى كرهاً إلى الكتابة وأنتِ تدري، أنّك لم تمنحنى مفاتيحها فى سردك المنغَلِق عليَّ وحدى. لم تترك لأناملى فيما رويْتَه عنّى أنتَ وساردِكُ المنتَقى فسحةَ قلَمٍ أو حبر. لم يكن لى من عالم الروايات سوى قراءات مسروقة لكل ما كان يتكدّس فوق أرفف إخوتى من كتب تجاوزْتَ إثمها وأنت تحنو على مهدية، وأغفلتها وأنت تقسو عليَّ.

كأنّ شغفى بالفرشاة أنساك من أكون. أو كأنّ شغفكَ أنتَ بالقلم والفرشاة، فى الآن نفسه، أغواكَ بحق امتلاكهما دون أبطالك الطيِّبين.

وتريدنى أن أختِمَ ببصماتِ روحى علي لوحتِك التى رسمتْنى لتُنصِفنى فخذلتْنى حيثُ أنصفَتْني. عزيز ليسَ أمين أسراري. ولم يكن له فى ذلك الماضى الذى حكيْتَهُ أن يمتِلك حكايتى الفعليَّة.. أن يروى لك عن مهدية التى كانت والتى يريدها.. أن يدفعكَ إلى أن ترغب أنتَ الآخر فى امتلاكها تلك

الفاتنة التى لم تُدرِك يوماً جمالَها، وأدركتماه أنتما معاً، الفنّان باللون والفنّان بالحرف. رسمْتُمَاها معاً، من عمق ذاكرتيكما المنتشيَتَيْن، شغفاً أو ولاء.. ولم تكن لكما مهدية بالفعل.. ولم تمتلكا حقيقة اللوحة.. أو حقيقة الحكاية.

اللوحة لى الآن.. هى لى أخيراً.. تحرسُ ليلى حين أغفو ببراءة طفلةٍ بعد فرح مترَعٍ يملأ القلبَ. تغمِزُ لى صباحاً حين ترتدى روحى بهاءَ جسدى من جديد، لأواصل الحياة باليقظة. ترقُبنى فى غدوى ورواحى أمامها، والمرآةُ تُصالحنا معاً بعد جفاء السنين.. تغمرنى بالاكتمال لدَفْع ظلال الألم ومراودة الأمل يوماً إثر يوم.

أما الرواية فقَيْد إبداعي، بعد أن كُنْتُ قيد وجعِ الحياة التى رسمَتْها أو التى رَسَمَتْنى فيما مضى. فكَيْفَ أكُونُ لها ولم تكُنْ لى خالصةَ النيّة والإنصاف والخِذلان؟ لم يكن لى ذلك الماضى، فكيف يمتلكنى غيرى فيه؟ كيف يسألنى غيرى أنْ أكونَ لهُ؟ كيف يسألنى أن أكون مالا أستطيعُه، وأنا لم أكُن لى؟؟ وكيف تريدنى أنتَ أيها الفنّان بالحرف أن أواصِل الخطو فى درب حفرَتْهُ خطواتُ من مَشى فيه قبلى، دون أن يسعِفنى الجَرىُ لأكون أُولى من يرصُفُ أراضيه ويلوّن سماءَه؟

صوتى يتلو أصواتكم جميعاً، أنتَ وسارِدُكَ وحبيبي. تمشى خطايَ على هدى خطاكم جميعاً، وأنا الحكاية وأصل الرواية وفصل المَرايا. أرى ذاتي بأعيُنكم أخرى. لا أرانى، ولا أفلحُ الآن فى ارتداء ما اخترتموه لى من أهواء وأحلام. من تكون مهدية هذه؟ ليس لى منها اليوم إلا ما سأخطه على هذا الورق المحايد. ليس لى منها إلا ما سأكتبه عن ذاتى التى كانت. ليس

لی منها اليوم إلا الظلال الشاحبة التی تبقی عالقةً علی جدارٍ وحيد تعرّی من لوحاته المنصوبة منذ زمن.

سأعيد كتابة ذاتی، وأنا أصقلُ مرايا الرواية. فذاتی تكتُبُ كلَّ يومٍ ذاتَها بإبداعٍ مختلفٍ علی صفحاتِ الحياة التی اخترْتُها أنا، ولم يختَرْها لی غيري. تلك الأوراق التی أكتُبُها فی حياتی الآن، لم يرغِمنی علی كتابتها أحد بل اخترتها طواعية لي، دون أنْ أرخيَ الجَفنَ لذلك الماضی الذی كان، والذی كتَبَنی ذاتاً أخری لم أعُدْ ألتقيها إلا لِماماً. ما كان لن يعود لأعيد رسمَه، أو كتابته مثلما أريد له أنْ يكون. والصفحات التی أكتبها فی الرواية التی كتبَتْنی، لم أختَرْها.. لكننی أجد نفسی أمام مهدية أمّاً حانية لا تغافِلُ الألَمَ الذی كابدَتْهُ ولا القدَرَ الذی عاندَتْه.

مهدية تلك، كانت أنا فی زمنٍ غابر.. فی تاريخٍ ساذج.. فی حزن أخرس.

مهدية تلك كنتُها دون أن أعرف حينها من كنتُ.. وحين عرفْتُ.. كانت قد فارقتنی إلی غير رجعة. ليس للضحيَّة أن تكونَ ضحيَّةً حين تعرف اسم جلّادها.. حين تحفر تقاسيمَ وجهه فی ذاكرة يومِها.. حين ترفض أن تغفو علی هدْهدة لياليه.. حين تقطف من حدائقه ثمار أحلامِها اليانعة.. حين تلعن الظلمة وتشعل للنور وقودَ العُمر. الضحيّة كانت قبل أنْ تدركَ أنّها ضحية. عندما رأيْتُنی أخيراً ضحيَّةً كنتُ قد غادرتُ جلدها.. رمَّمْتُ دواخل الروح المنكسِرة.. نضيْتُ عنّی أثواب الاستكانة.. ووقفت أمام شاهد القبر الذی نحتُوه لی علی مقاس ضعفی.. نبشتُ نقوشه بأظفاری اللَّينة.. ورسمت براعمَ ميلادی.

«أن نواجِه من يكرهُنا، أمرٌ قد لا يبدو مكلّفاً. لن نخسَرَ من لم ننجح فی جعلِ قلبِه ينضَحُ بحبِّنا ولو قليلاً.. لن

نخسَرهُ، لأنّنا لم نكسبْه منذ البدء رغم أنّنا حاولنا بجُهد وصدق.. ورغم أنّنا سعينا إلى اقتراف إثم حبِّه نكاية بالكره الدّفين الذى يدِّخره لنا. أنْ نواجِه من يكرهنا دون أَنْ نحبَّه أو نكرهه بالضرورة قد لا يبدو أمراً مكلّفاً، لأنّنا دأبنا على أنْ نسقى المسافة التى تفصلنا عنه.. عنهم.. باللامبالاة يوماً بعد يوم.. سعينا إلى أن لا يتحولوا إلى نَدْبٍ آخر، يُضاف إلي ندوبنا التى لا تعرف تحديد النّسل.

أما أن نواجه من يحبُّنا أو يدّعي أنّه يحبّنا على طريقته ومقاييسه فى الحب والادعاء والطريقة والقياس، فأمر ليس مكلّفاً وحسب.. بل هو شاقّ وجارح. أن تنظرى فى عينى من لم تتعلّمى منذ حليب الثدي الذي أرضعكما معاً إلاّ اللّهْجَ بحمده وشكره ورضاه، وتعلِنى أنّ لك أنتِ الأخري صوتَك الخاص الذى لا يشبِه أصواتهم، ولا يُساوى العورةَ التى يريدون سترها فيك، وبك.. أنتِ تلك العورة التى تكشف سوْءاتهم جميعاً، فذاكَ موتٌ آخر تقترفينَه عسى أن تهَبَكِ الحياةُ بعد الموت، الحياةَ» ...

لم يكنْ يسيراً أن أنتقض.. لم يكن يسيراً أن أكسر الطوق الذى نشأتُ داخله.. لم يكن يسيراً أن أولد من جديد.. لكننى قرّرتُ أن أولَد.. وما عادت صرخاتُ الاستنكار أو التهديد تعنينى.

حينَ يسكُنكِ الخوف من كلّ فعل.. حين يغدو ردّ فعل الآخر وازِعَ صمتكِ.. أو حين يغدو صمتُ الآخر رادِع فعلكِ.. حين تختلط فى أعماقكِ

مشاعر الرهبة والخجل والحسرة والشك والألم والغثيان.. حين يعتصر السؤال قلبَكِ في غور الجمود الذى تسكُنين إليه.. حين يقف أمام صوتك ألفُ حاجزٍ وحاجز.. وينهالُ عليك الضعفُ من كلّ الزوايا.. لا تخسرين شيئاً إنْ رفعتِ صوتَك قليلاً.. إن شذَّبت امتداد الصّمت ببعض الهمس، شيئاً فشيئاً.

لم يكن جمالى يعنيهم كثيراً وهم ينصبون لحياتى القبر الذى يرغبونه. كان عقابى يتمى الذى أتانى فى غفلةٍ.. وكان يتمى بداية موتى. صوتى لم يكن طيِّعاً كثيراً فى طفولتى الهادئة.. كان خافتاً.. مسالماً.. وانسحب بدوره إلى ضفافِ موتى.. حين أراد لى يُتْمى أن أموتَ أخيراً كى أحيا.

لم يخبرنى أحدٌ أنّنى فتاة جميلة.. أو جميلةٌ لأنَّنى فتاة.. ولم يخبرنى أحد بأنّنى مميَّزة بكونى فتاة.. لم ينافقنى بلَّور المرآة الصغيرة الكاذب ويقلْ لى إنَّنى جميلة.. كنت أقف على أطراف أصابعى كى أصلَ إلى المرآة الصغيرة العالية فى الحمّام.. كانت معلَّقة بطول يناسب قامات إخوتى يحْلقون أمامها وجوههم، حين كانوا يحلِقونها. ولم يكن لى أن أطلَّ على ملامح صورتى المنعكسة فى المرأة إلا فى بيت مَمَّا شمس الضحى رحمها الله. كانت تضع فى غرفة الصالون مرآتين كبيرتين متشابهتين. تعرَّفتُ على ملامحى فيهما، مثلما تعرَّفتُ على ملامحِ ممثلات وممثلين مصريين كثيرين على شاشة التلفاز التى تقف فى منتصف زاوية ذلك الصالون. لسنوات عديدة ظلت السينما الكلاسيكية المصرية مرتبطة فى ذاكرتى بتلك الشاشة البلاستيكية التى تميل إلى اللون الفيروزى، يضعونها فوق الشاشة الزجاجية لتغليفها.. فى ذلك البيت الصغير الدافئ.. ومَمّا شمس الضحى فى جلستها الملتصقة

بالشاشة. لم يكن لى أن أشاهد أشرطة شادية أو اسمهان أو فاتن حمامة أو سعاد حسنى أو صباح أو ليلى مراد أو فريد أو عبد الحليم أو عبد الوهاب أو... إلا فى حضرة مَمّا شمس الضحى، بينما التلفاز فى طابقنا العلوى محجوز لأخوتى ولضجيج متابعاتهم لمباريات الليغا الإسبانية، ولشغفهم فى كل وقت ببرامج القنوات الإسبانية.

لم يكُن لى فى يومٍ سابقٍ أن أقول.. لم يكُن لى أن أفعل.. لم يكُن لى أن أكون.. ولم أكُن أعرفنى فعلاً.. لأنَّنى لم أكُن موجودة داخل جِلْدي.. على تخوم جسدى كان الكفَنُ يحفِرُ عميقاً قبرى الذى يمشى على الأرض.. لم أمتَلِك صوتى.. لم أمتلك جسمى.. لم أمتلك حتى موتي.. كانوا يفعلون.. ويقرِّرون.. وأستجيبُ.. بل أخضعُ لما يريدون .. ولما يقرِّرون.

منذ تغيَّرَت ملامحُ جسمى وهم يكيلون له الحقد. لم أكن أعلَم سرَّ كلِّ الإدانة التى كانت تنْهال على جسدى دون أجسادِهم. كم كنت أضيقُ داخل ذلك الجسد من فرط ما استدرجنى إلى الاختباء داخله، دون أنْ أكُونَه.

وأنا طفلة.. وأنا مهدية تلك التى تحكى الروايةُ سرائرَها وأسرارَها.. كان يدهْشنى ما يتفتّق من تحت جلدى من انحناءات وانثناءات وتلوينات وامتلاءات.. كنتُ أتوق إلى أن أراه بعينيّ عارياً.. لكن الأمر كان مستحيلاً، ليس لأنّ المرايا كانت سلعة مذمومَة أو محظورة، بل لأنّ ذلك الافتتان بالتَّفتُّق الوليد لم يطل كثيراً. كنتُ فى سنتى الثالثة عشرة حين وعيت جسدى المؤنّث لأول مرّة.. تغييرات لا حصر لها يشهدها جسدى الفتيّ، وهو يقبِل على مدارج التورُّد والاكتمال.. لم أدرِك حينها بلوغى الأنوثة، كنتُ أستوعبُ جسدى فحسب. لم أعِه من قبل مثلما وعيتُ حدودَه

في تلك الأيام. ولم أستوعبه نفسياً مطلَقاً.. بل كنت أعيه حسِّياً منذ بدء بزوغه. ما كان وعيي حينها لينقلَني إلى معنى الأنوثة التي يمكنُها أن تتفجَّر من داخلي بموازاة مظهر جسدي البارز والمكتمِل.

كنتُ أسيرة نظرات أمّي وتعليقاتها. أسيرة تلميحات إخوتي التي تصلني عبر أمي. صور عديدة سَقتَني حتى الامتلاء كلَّ المحظورات والمحرّمات والممنوعات.. أسلاك شائكة كثيرة نبتتْ فجأةً بيني وبين الجسد الذي كنتُه في سنتي الثالثة عشرة.. خشيتُ أن يقتُلَني ذلك الجسد بلَعْنتِه.. واقْتَتُ في باقي السنوات على تلك اللعنة المرصودة للخوف.. للخجل.. للعار. كانت الأسلاك الشائكة تكبِّلني كي لا أصِل إلى جسدي فأصالِحَ يومي الذي يمضي على صدى العرف والعادة والتقليد. حاصرتْني تلك الأشواك.. وأخرستْ صوتي.

أبي كان حنوناً.

بعد اليُتم وعيتُ معنى أن يَختلَّ توازُنَ كفَّتيكِ بغتةً لغياب من كان ينصِفُ طفولتي. أبي لم يثقِل رؤيتي لجسدي بأكثر مما كانت أمّي قد حمَّلَتني من أوزار. كانت كلّ رؤاه تصلني عبرها، ولم يكن يحتاج إلى أنْ يحدِّثني بلسانه.. كان لسانها يرتِّلُ أفكارَه دون أزياء مستعارة.

وكنتُ فتاةً صغيرة على براعِم التورُّد تكتشِف ذاتها.. تعي جسدها.. تلاحِق وجودها في عمق ذلك الجسد.. لكنّه لم يكن من حقّي كلُّ ذلك. حين أوقَفَ أبي مسارَ تعليمي لُمْتُه كثيراً في سرِّي. لكنّني لم أجرؤ على رفع صوتي ولو قليلاً بما كان يملأ صدري من أحاديث. كنتُ أتساءل: لماذا يرونَني عبر منظارِ جسدي، ولِمَ لا يدعونني وأنا الموجودة داخله أُراني عبره؟؟

لم يعدُ ذلك السؤال بوابةً كبرى لكل تأملاتي إلا بعد أسبوع الغيبوبة وإرث الكَفَن الأحمر.. ووجع اليتمِ الحارق.

بعد الوجع لم أعد موجودةً بين إخوتي، بل أصبحتُ مجرَّد جسد عليهم سَتْره. شرخٌ كبير تركَه اليتم القاتل بين ذاتي وجسدي.. بيني وبين إخوتي.. بيني وبين أمومة أمي. عطبٌ كبير أفاض على أيامي انكفاء لم أتقصَّدْه.. وخجلاً لم أرتَكِبْه.. ورهبةً لم أترصَّدها.

أصبَح العالَمُ ما بَعْد جسدي المعزول.. الملغوم.. المسلوب.. المقتول. العالَمُ غيري وأنا هباء. العالَم آخرُ ليس أنثي. العالَم لا يُرى في جسد أنثي، ولا يمكن له أنْ يكون نقيضة. العالَم رجل، والمرأة نقص لا يكتَمِل.

خاصمتُه، ذلك الجسد. خاصمْتُه وأنا أحاولُ كسبَه. حاصرتُه وأنا أبغي تحريره. أدَنْته وأنا أنشُدُ براءته.

لم أكن أحيا فيه، بل كنت أحيا بأثقالِه.. وكم كان ثقيلاً ذلك الجسد الذي كنت أحملُ أعباءه، منذ سنتي الثالثة عشرة. براءته كانت منحوتة على كلّ خلاياه، لكنّني الأنثى في عيونهم، هم الذُّكور، كنتُ مرصودةً للغواية.. للفتنة.. للمكر.

ولم يملِك صوتي سوى خذلان الجسد الذي يتحدَّثُ باسمه. سنوات عشتها بعد الموت، لم أكن فيها سوى ما أرادوني أن أكونَه..

لم أكُن أنا.. كنتُ مهدية..

بالفعل، كنتُ مهديّة، وحسبُ.

الورقة الثانية

وأخيراً وأنا أشرف على عتبة الأربعين، تفصلني عنها سنتان اثنتان، أمتلك صوتي وجسدي. لم أمتلكهما دفعةً واحدة. مرّ زمن طويلٌ عليّ لم أتوقّع أنهما لي. ولم أسْعَ إلى المطالبة بهما. ليس لأنّني لم أعرف من ذا الذي يمتلكُ سلطة مساعدتي على استرداد جزء من هويّتي.. ذلك الجزء الذي لا أعرفه لأنَّني لم أكتشفه من قبل. ولكن لأنَّني لم أفكِّر في أنّ العمرَ عارضٌ لجواهِر عديدة، تصقلها الأيامُ والخبراتُ والمِحن.

الآن أنا أشعرُ بهما.. أشعُر بهما بقوَّة.. وأعرِف بقوّةٍ كذلك أنَّه لم يكن لي أنْ أمتلكَهما من قبل، ولم يكن لي أنْ أصلَ إلى هذا الامتلاك إلاّ في هذه اللحظة.

هو كان يتابع ببسمة صامتة تقلّبات أمزجتي وأزيائي، ولا يتكلَّم. أدرِك في ابتسامته تلك أنني أتغيَّر، وأنّه يلاحظ ما أستَعيدُه من نزق طفلةٍ خذلتْها أعمارُ الطفولة. لم يكن يتدخَّلُ وأهواء خزانة ملابسي تعلِنُ الانفتاح على أزياء لم أتجرأ يوماً على ارتدائها. بل لم أفكِّر في عدِّها ضمن احتمالات الملابس المُمكنة، لأنها ببساطة لم تكنْ لي... ولم تكن طقوسُ تفكيرها الحيوية تلائم جمودَ الذُّنوب العديدة التي أحملها في مخزون ذاكرتي.

في البدء، كان جسمي يصاب بالتصلُّب وأنّا أجرّب ـ على فترات متباعدة ـ قطعة ما مختلفة. كانت القصّاتُ والألوان والأشكال إمكانات معانٍ جديدة، لم أطمَحْ إلى التقاط دلالاتها من قبل. وكانت وهي تغلِّف تصلُّبي بمَرَحِها

وحُبورها وانفتاحها، تشعرنى بمزاجها الخاص. وتنقُلنّى من حالة إلى أخرى. لا أتذكَّر متى بدأتُ في اقتناء القطع الأولى من تلك الملابس، لكنى أذكر أنّنى كنتُ أقتنيها لمجرَّد أنها أعجبتني. وفي أكثر درجات الإعجاب كنت أزمعُ أن أغيِّر بها ملامحَ ما أرتديه داخل المنزل. لم يخطر لى أنّنى أمضى فى مسار أفارقُ فيه ذلك الماضي. وأفارق ذاتاً كنتُ أعتقدنى إيّاها. لم يكن ذلك العالَم الذي يحتضن غربتي يجتذبنى نحو قيمه. ولم تكن صلتى بذاتى ضمن آفاقه تتجاوز الحدود التى وضعتْ لنا منذ زمن فى فضاء آخر، لأننى ما زلتُ لم أعرفنى حقّ المعرفة، ما زلتُ أكتشفنى بعيداً عن ذاكرة التأثيم.. كنتُ أنا، أصحو داخل جسدى المعطوب.. كنتُ أنا، أستعيد روابطى بالأنثى التى كنتُها فى رسْم الولادة..

كنتُ وأنا أمعنُ فى تأمُّل صغيرتي "تَودُّد" تكبُر وملامحُ شخصيتها تقوى وملامِحُ الأنوثة تكسو جسدَها الطفولي، أدركُ أنّ زيّ الأمومة الذى يغمُرنى بفيْضِه سيُخرجنى من إهاب أمّى من جديد. وكأنَّنى أولدُ هذه المرَّة من رحِم طفلتى التى تشرف على بلوغ عمر الخمس سنوات، وأفارِقُ شيئاً فشيئاً صورة أمّى التى ترسُمُني.

لكننى لم أتوقّع أنّ جسدي بدوره سينتفض. ويرمى عن جلده ما علقَ به من أزياء وأفكار وذنوب. كان يكفيني أنْ أفكِّرَ فى غد صغيرتي، لأدركَ أنّ يومى ليسَ مناسباً لأحلام ذلك الغد. وأطيل التفكير، كيف لى أن أسقى براعمِها بقطْرٍ يحنو على وريقاتها الهشة دون أى إتلاف.

بعيداً عن انشغاله بحاضرها الذى كان ينتظره منذ توق وغربةٍ وحنين، لم يكن اليوم الواحد يمضى على ثلاثتنا إلاّ وتغييرُ ما يرْشُمُ دواخلى بأثره. لم

أتبيّن تلك التغيّرات الكثيرة فى أوانها.

الآن، وأنا أبصرُ من منظور صوتى الذى تحرَّر من خرسه لوحات ذلك الماضى فى تطوان، أفقه أشياء عديدة غابتْ عنِّى فى حينها لأفاجئ ذاتى بما أنَا عليه. آمنت دوماً بأنَّنى نِتاجُ كلِّ ما عشته فى حياتى إلى غاية الآن. صنَعَتْنى تلك الدروب العتيقة والأقواس الواطئة والأبواب الشامخة والجدران الرطبة والسَّقايات المعطاء، وشريطُ الخضرة الممتد بين الأرض والسماء والمنتشر بين الحدائق والأصص، يعلو حينا على مزاج الجبل استوطنه المعمارُ، وينحنى حينا على مزاج السهلِ يغدِق حنانَه على الإنسان.

صنعنى كلُّ ذلك الصمت والخوف والانكسار.. صنعتنى الدّهشة والشهقة والوجفة.. صنعنى الألم والأمل والفرح والحزن.. صنعتنى الأسفار والهزائم والأحلامُ... كل ذلك قد شكَّلنى فعلاً. لكننى أكتشف، وأنا أفرِغُ روحى على هذه الأسطر التى لم أفكِّر يوماً فى كتابتها لأنّ ذاتى لم تقبَل يوماً أن تتعرى سوى أمام عزيز، أنَّنى أخفى فى أعماقى أخرى لم أصل إلى أغوارها.

أيمكن أن أكون أخرى سأكتشفها حين أبلغ عُمر الأربعين؟ أتكون الذاتُ ذاتاً غير سويَّةٍ ليكتَمِلُ نضجُها ذات أربعين سنة؟

جسدى الذى كان يحملنى كل هذه السنوات أراه لأول مرة بشكل مختلف، لأنّنى مختلفةٌ. أو لأنَّنى أدرك أنَّنى أختلف عمن كنتُ أظُنُّنى.

أذكُر فى طفولتى كيف كان حبلُ الغسيل بما يحملُه من أزياء مختلفة يثيرُ فضولى. كنت أمعنُ البصر من أعلى سطح منزلنا بشارع "الوحدة" فى الأسطح والشرفات والنّوافذ المجاورة، وأتأملُ بشغفٍ. لم تكن أمّى المسكينة

تستوعب ما يرتسم على ملامحى من فرح، حين تصعد للبحث عنّى بعد استبطائها لعودتى إلى الطابق الأرضى. كانت ترتفع محيطةً بالجوانب الثلاثة لمنزلنا بناياتٌ عالية تحجب انسلالَ الشمس من مداخلها. وكانت تترك لنا السّماء تظَلِّلُ سقف سطحنا، بينما جدرانها الرّطبة تعلو لتحصر إطلالتنا المضيئة فى واجهة وحيدة يحتكرها منزلُنا تاركاً لمنزل ممَّا شمس الضحى الملُحَق به متنفّسَ الباحة من وجهة واحدة. كانت الشّمس رغم ذلك تُزاوِر فضاءنا. تُطِلُّ علينا بسخاء من فسحة تقاطُع طريقين تمدَّدت البناياتُ بعلوُّها على أجزائه الأربعة، تاركةً للشمس أن تمنحنا دفئها كلّ الظّهيرة. كم كان يستهوينى، لو خيِّرتُ فى ذلك، أن أقطُنَ غرفة السطح التى تملؤها المُهملات وبقايا الأثاث، لكن الأمر لم يكن متاحاً للفتاة الوحيدة، فكان نشر الغسيل وحباله حبلاً يربطنى بالحياة التى تجرى خارج البيتِ فى غفلةٍ من ركوده. كنتُ أراقب حبال الغسيل وأقرأ الملابس لمعرفة الذوات التى ترتديها. وأتابعُ انشغالات الأسر عبر ما ترتديه فى أيامها. وأرقبُ الضيف الوافد عليها زائراً أو مقيماً. أعرفُ عدد الصغار وجنسهم وحجمهم. وألتقط خبر المولود الجديد، وأتابع قطع ملابسه الصغيرة وهى تكبُر، وأتبيَّن جنس الأنثى وجنس الذكر. أمعِنُ فى الملابِس وهى تغيِّر جلدها حسب الفصول. الفساتين السميكة والبناطيل ذات الحشية الداخلية والبدلات القطنية والمعاطف والجوارب الثقيلة والكنزات الصوفية فى الخريف والشتاء. والقمصان القطنية والفساتين الخفيفة والتنانير والقمصان دون أكمام والسراويل القصيرة فى الربيع والصيف. كانت قطع الملابس الداخلية تخجلُ قليلاً وتتوارى خلف غيرها، وكانت بعض الملابس الممزّقة أو الرثة

تتقن إخفاء عمرها بمساعدة ملاقط النشر. كنت أرتِّبُ الحكايات بعينى الطفلة. وأتمِّمُ التفاصيل بحبكة السيِّدة الناضجة. كانت كلُّ الملابس تخبرنى عن أصحابها وأعمارهم واهتماماتهم وأهوائهم. ولم تكن تخميناتى تخطئ. كنت أقابلُها لاحقاً على أجسادهم وتحيِّينى من بعيد، وكأنَّها تخشى أن أروى ما كشفتْه لى من أسرار. كانت جلسات السطح متعة تفتَح أمامى أبواب السَّماء ونوافذ البيوت، حين كانت أمى تمنعنى بصرامة من مفارقة البيت.

فى سنٍّ سابق كانت جلستى تتوسّط صحن البيت بالباحة جوار شجرة التين التى تفصلُ منزلنا عن منزل ممّا شمس الضحى. وحين اطمأنّت أمى إلى أنَّ طول قامتى يمنعُ السّطح من أنْ يشكِّلَ خطراً عليّ أو اطمأنّت إلى أنّنى لن أقفز عن علُوٍّ يمكننى أن أطِّل عليه، وأوكلتْ إليّ نشر الغسيل، أصبَحَ سطحُ البيت ملاذاً ثانياً لى يأتى مباشرةً بعد دروب المدينة العتيقة. كنت أستمتع بصلتى الجديدة بالناس التى تعقدها لى فى غفلة الملابسُ المعروضة لأشعة الشمس وهبوب الريح. ربما عبرها تقوَّت لدى فراسة التعامل مع العلامات والأشكال والألوان والدلالات البعيدة، قبل أن أواصل مسارَ شغفٍ لم يقبلْهُ أبى أو إخوتي. كنت أتساءل وأنا أضعُ على حبل الغسيل ملابسَنا التى أعرف أشكالها وألوانها وفُصولها، لماذا كلَّما مالت ملابِسُ إخوتى إلى القِصر تُحافظ فساتينى وفساتين أمى على الطول نفسه. ولماذا تهفو ملابسهم نحو الخفَّة فى الصيف وتظلُّ ملابسنا سميكة فى كل الفصول.

وكانت تذهلنى أولئك العجائز المتقدّمات فى العمر اللاتى كنت أصادفهن فى كل زوايا مدينتى تطوان. أذكر إلى اليوم كيف كانت سيقانهن مسبوكةً

فى بياض ناصع وملفت للنظر، تعلوها على الركبة أو أعلى قليلاً تنانيرُهن أو فساتينهن القصيرة. وأذكر كيف كانت أكتافهنَّ وأذرعهن البضّة العارية تُطلُّ من أكمام القمصان القصيرة أو المنحسِرة. أذكر أنَّنى سألتُ أمى يوماً، ربما فى سنّ السادسة أو السابعة، عن سبب الاختلاف الواضح بين أزيائهن وجلبابِها الرمادى الذى يغمر كلّ جسدها ويغطى شعرها، ولثامِها الأبيض المطرَّز الذى يخفى نصف وجهها من منتصف الأنف إلى العنق.

لا أذكر جوابها الآن. هل لسبب أنَّها لم تجبنى أم لأنّها لم تُقنِعنى، لا يهمُّ... ما أذكره بقوّة عن ذلك اليوم، هو بداية وعيى بالاختلاف بين البشر. منذ تلك اللحظة أدركتُ أنّ أبى ليس النموذج الوحيد للآباء، وأنّ أمى قد تشبِه الكثيرات لكنها ليست صورة وحيدة عن الأم. أدركتُ يومها أنَّنا نحنُ "الأطفال" يصنعنا آباؤنا كيفما يريدون. وأنّ آباء آخرين غير أبويّ يصنعون أبناءهم بأشكال وأزياء وأفكار تشبِههم. قد يكون ذاك اليوم أول يوم أقيسُ فيه نفسى بالمقارنة إلى أمّى وإلى مَمَّا شمس الضحى التى تشبهها رغم الاختلافات، ولم ترقنى نتيجة القياس. فرفضتُ أن أكون مثلهما. لكنّ رفضى كان أمنية خفيَّة، أسرَرْتُ بها إلى الله فى مناجاتى له. ولم أتمكّن من امتلاك الجرأة على تحقيقها، إلا بعد أكثر من عشر سنوات عن وفاة أبي. وظلت الأسئلة رفيقة وفيّة لطفولتى المتعثِّرة... كنت أفكِّر كثيراً، وأتساءلُ كثيراً.

لم أكن أعثر لأسئلتى على أجوبة. ولم أكن أبحث عنها خارجي. ولذلك فى كثير من الأحيان كان بحثى عن الفهم يعيينى فأستسلمُ أمام واقع لا أقدرُ على تغييره أو الجهر برغبتى فى تغييره. كانت الأمور هى الأمور. ولم يكن أى فردٍ من أفراد أسرتى يعتقد بأننى أختلف عنهم كثيراً، إلى غاية عام

١٩٨٤، كنت فى الخامسة عشرة حينها، أزهو بما أطوى عليه دواخلى من أحلام ويحاصِرنى ما يفهَمونه من معادِلاتٍ للخارج. كنت مشدودةً إلى الحركة والتجول فى أحياء المدينة وأزقتها. وكانت أسرتى تمانع كثيراً خرجاتى تلك. لم تكن أمى الاستثناء. لكنى كنت أفاجئها بمغادرتى البيت حين تحاصرنى للبقاء.

عزيز كان يعرِف أنّنى سأهزِمُ فى الأخير ضَعفى.. ذاك الضّعف كان يضعني في متناوِل جهلِهم بقوّتي. كنتُ أتراجَعُ قبلَ الخطوة وقبل التفكير فيها، أو فى اقتراف خطوِها. كنتُ أستسلِمُ أمامَ صخَبهم. وكانوا ينجحون دائماً فى ابتداع صخَبٍ يلائم بخبثٍ اعتدادَهم بقوّتهم. بعد وفاةِ أبى أرغموا بّا عبد الكريم على مفارقة البيت الذى كان يُؤْويه هو وزوجه ممّا شمس الضحى. فسخوا عقد الكراء، وبحثوا له عن بيت مستقل فى زقاق من أزقة "باب التُّوت" العتيقة. حاولوا أن يغسلوا ذاكرة الذنب من تنكُّرهم لذلك الشيخ الذى كان يعدّهم عوَضَه الجميل عن وفاة ابنه الوحيد. حاولوا أن يوهموا ضمائر نشأت بين أحضان ممّا شمس الضحى بأن البيت المستقل كان مطلبها قبل أن تحتضن فتوّتهم إثر فقدانها فتاها، وتخفى فى نضجِهم قلبَ الثكلى. بعد وفاة أبى لم يعدْ يهمُّهم أمري، أو كيف نتدبّر أنا وأمّى معيشتنا. لكنهم كانوا حريصين على طرْق الباب فى صباحٍ لا يعقدون لبدايته أىَّ خيرٍ، كى ينبِّهونى بتهديد لا يُخفى أدلَّته إلى أنّ ملابِسى يجب أنْ تكون أكثر حشمة. وكلَّما ازداد حرصى على إرضائهم والعمر يتقدَّم بى، ازداد تدخُّلُهم... كانت ملابِسى تلك فيما أذكرُ تدعوهم فى غفلةٍ منّى لزيارتنا أنا وأمّى، أمّهم التى ظلَّتْ وفيَّةً لولاء هُوَ لَهم، ضدَّ كلِّ تعاطف مع معاناتى.

ملابسي، تلك أفارقها اليوم بحسرةٍ على عمرٍ مضى لم أعرِف فيه شكل جسدي.

هو عُمرٌ مرَّ سريعاً.. بطيئاً.. مرَّ وكفي.

لم يعُد بإمكاني العودة من جديد لاقتناصِ لحظاته الهارِبة.. لم يعُد بإمكاني أن أعيش ما كُنتُه، دون ما كُنتُ عليه. سيَّجوا للأسف علاقتي بذاتي وصوتي وجسدي. أوهموني لسنواتٍ طويلة أنَّ زيّي أكثر أهميَّةً من شخصي.. أوهموني أنَّ ما أرتديه من ملابسَ يُعلِنُني فلا حاجة لإطلاق سَراح صوتي.. أوهموني أنّ البراءة هي براءةُ الثيابِ من تُهمةِ الفِسْق.. أوهموني كذلك أنّ الظّاهرَ أهمُّ من الباطن، لأنّ السَّرائر يعلَمها الله الخبير والحقيقةَ هي ما يراه البشر.

كانوا يخذلون ثقتي بنضجهم في كلِّ مرة. وكنتُ إكراماً لأمِّي أترك لهم أنْ يقولوا وأن يفعلوا ما يشاؤون. أدركتُ في كثير من الأحيان أن أمّي كانت تستقوي بهم في غيابي. وأدركتُ أنّها كانت تستجدي اهتمامَهم بي لعدم قدرتها على الخروج في إثري كلّ مرّة. كانت بسذاجةٍ مفرِطة تؤلِّبهم على غيابي، وهي تعلَمُ أنّني كنت أشغَلُ نفسي بما يُنسيني وفاة أبي. لم أسألهم يوماً نصيبي من ميراث تقاسموه فيما بينهم وتركوا لنا البيت نقطُنهُ إلى حين. وكنتُ أعلَمُ أنّ الأيام ستتعاقبُ سريعاً ليغدو البيتُ بدوره موضعِ اهتمامهم. قد يكون إدراكي لذلك سبباً في استسلامي لتدخُّلهم العنيف في شأن ملابسي، وأنا أتجاوز العشرين من عمري. لم أشأ أن أكون المبرِّرَ الواهي لبيْع البيت. لذلك كنتُ أحكِمُ وثاقَ جسدي مثلما يرغبون. وأكدِّسُ فوقه الطَّبقات. لم أكن أميِّزُ بين ألوان للصيف وألوان

للشتاء. لا أذكر أنَّ الأحمر مثلاً كان لوناً اشتَهَتْه ملابِسى رغم أننى مثل أمّى ومثل الشّماليات عموماً، كنت فى أوقات عديدة من فصل الشّتاء داخل المنزل ألفُّ نصفى الأسفل بما نسمِّيه "منادل". كانت فى الغالب مناديل مستطيلة حمراء مخطَّطة بالأبيض، تحفظها خزانة أمّى لمنسوجات يدوية تشتهر بصنعها بمهارة أيادى الجبَليات وتبِعنها فى "سوق الحوت القديم".

ولا أذكر أنَّ الفاقع من الألوان قد طرق فى يوم ما مغاليق خزانتى. كنتُ مجبولةً منذ أنْ كانت اختيارات ملابسى شأناً لأمى على الألوان المحايدة، تلك الألوان التى تغرقُ فى الصمتِ المهذَب أثناء مرورها أمامَ الأعين. وحينما شرعتُ بمهاراتى فى صناعة ملابسى، كنتُ أمرُّ بجانب الفاقع منها بفائض عمى الألوان.

.. وأنا أرتديه الآن على مقربة من عمر الأربعين ذلك الأحمر الفاقعُ، أتساءل بصدق ما ذنب كل تلك الألوان لنحمِّلها أفكاراً ذابلةً تغار من إشراق نضارتها ومن زهو لم يكن يوماً لها؟

كنتُ دون أنْ أدرى ولسنوات عديدة أحارب في كل ملابسى الألوانَ الصارخة، وكأنّه لا يمكننى أن أرتدى إلا لوناً يشبِه خرسى. كنتِ أمعنُ فى مراوغة السوق كى لا تستدرجنى تلك الألوانُ الخبيثة. وكنتُ أخاتِلُ قدرتى على الابتكار لأظلَّ فى مساحات الأمان. لم أترك للمقص حريَّة الانطلاق فوق الأثواب، ولم أسمح له بأنْ يفتَحَ فكَّيه على هواه. وكانت آلة الخياطة التى اقتناها أبي، رحمه الله، إكراماً لما أظهرتُه من نباهة فى دروس ماريا تسعِفنى فى محاذيرى العديدة. لم ألبس يوماً إلا ما كنتُ أعلَمُ أنَّه سيحظى بالقبول والاستحسان فى وسطى. الآن وأنا أسحبُ خزاناتى

السابقة من ذاكرتي وأرصُّ محتوياتها أمام اندهاشي أدرك الفقر الفظيع الذي عاناه جسدي في التزوُّد بالألوان. وأنتبه بفطنةٍ تأخَّرتْ كثيراً لتُواجِه وعيي إلى أنّ انبهاري المتواصل بحياة القروِيِّين في الجبال والسهول وبثقافتهم وفكرهم، يعود في البدء إلى السِّحر الذي مارسه عليَّ تمسُّكُهم الفطري بالألوان. لم يخذلوا تعدُّدها في التصنيع والصباغة والتجديد. كانت كلُّ مشغولاتهم اليدوية تفيضُ بحديث اللون الوفيِّ لتعدُّد مَنْشئه. وأُراني طفلةً في العاشرة من العمر أتنقَّلُ بانبهار بين اللوحات الحيّة التي كانت تعرضها مدينتي تطوان في كلّ ركن من أركانها، وسخاء اللون يعانِق الإنسان والفضاء ويخلُقُ لهما دوراتِ الحياة الخصبة. كم كنتُ فقيرةً عطشى، وكم كانت مدينتي ريّانةً سخيَّة.

لم يكن الأمر مجرّد ألوان تبهِجُ العينَ أو تُفرِحُ القلبَ أو تغني الحياة. مدينتي لم تكُن لوحةً نابضةً تتنفَّسُ روح الألوان، وإنّما كانت جمالاً يُسبِّحُ علَناً بحمدِ البارئ المصوِّر.

ولم يكُن الأمرُ مجرَّدَ ملابِسَ تستُرُ عُرى الجسد أو عناوينَ لأزياء مدعومة بقبولِ إخوتي، بلْ كانَ قالباً صلباً سكبوا في عمقه بحرص شديدٍ ولامبالة متناهية أنوثَتي.. وتركوني أنمو في غفلةٍ من انسحاقها. كانوا حريصين على أن يطمسوا كل المعالم البادية للعين التي تميِّزُ اختلافي عنهم، وكأنّ وجودي في الحياة خطأ محض.

وكأنّه لم يكن مقدّراً لأنثى أنْ تُخلقَ وأن تولَدَ وأنْ تعيش.. وكأنّه ليس من حقي أن أحيا إلا في صورة مشوَّهةٍ في استنساخها العبثي لأجسادِهم، بعيداً عن جسدي، بعد طمسِ معالمِه. وحين أعودُ لتذكُّر من كنتُ ألمسُ بوجعٍ

جِسم التجاهُل الذى أفرغوه على تيهى وسط زحامٍ ذكورتهم. وألمسُ بغبنٍ قُيودَ أمّى التى منعتْها من تفتيتِ قالَبها الذى حملتْه لعقود طويلة، قبل أن تمنعَها من إعفائى من قالبٍ ينتظرُنى بإصرار مقيت، لأنّنى أنثى.

لم أنسَ الألم. ذاك ما أكتشفه والكلماتُ تغادرنى لترسُمَ أمسى الذى كان، هناك بمدينتى تطوان. لكنّنى رميتُ آثارهُ خلفى.. ليسَ فحسب لأنهم هم.. هم إخوتى وأمّى وأبي، أو لأنَّنى لم أرتكب فى حياتى جريرةً سوى أنَّنى كنت أنثى، ولم يكن ذاك اختياري. وإنّما لأنّنى أعرِفُ فى عمق محبتى لهم جميعاً، أنّهم لو علِموا الذنوبَ العديدة التى اقترفوها بحقِّ ضُعفى لَمَا غفروا لبعضِهم ما فعلَهُ الآخرون. كانت مراياهم دوماً متطابقة بقوّة العدد، لكنّهم كانوا عند الافتراق والاختلاف، يكسِّرون عمداً المرايا ويرمون التّشابهات ويَسقُطون فى جدلِ الخصام والتنازع والمحاسبة.

لصوتى الآن صدى آخر. يكلِّلُ ذلك الصمت الذى طوانى لزمنٍ طويلٍ بوقعِ الحُلم. يتجاوز جسدى الذى يعلِنُ يومَهُ الأول فى الحياة، ويهفو إلى نسجِ الحكاية بصوتى أنا. لستُ السارد عزيز، ولستُ الكاتبَ عِمران، ولستُ التشكيلى عزيز، ولستُ مهدية الحكاية، أنا مهدية الأخرى التى لم ترفع صوتها فى كلِّ أجزاء الرواية. بل تواتر الرواة نقلَ ما يظنُّونه حكايتى. ولم تكن إلا مراياهم تعكِسُ ملامحَ انسحاب صوتى خلفَ صخَب أصواتهم. حكاية مهدية المؤنّثة، لم تُروَ...

الورقة الثالثة

كان يسبقني دوماً بخطوتين اثنتين. وكان يحرص أن تظلّ الخطوتان هاجسَ سرعتي طول الطريق. وكم كنت أجرى كالبلهاء لألحق بخطواته المتباعدة. كان يعرف، في البدء، أنّني أجرى خلف ظهره لكي أرى وجهه بجانبي أحتمي بحضوره من غربتي ووحدتي. ويصرّ دون كلام على أن تُبْقيني الخطوتان على مقربة من ملكيته، على مبعُدة من تعاليه. في البدء كنت أراوغ خطواته الكبيرة المتسارعة، وألحق به لاهثةً والعرق يكسو أنفاسي المتقطِّعة.. لكنّ الإيقاع الذي ينتقيه بإصرار وترصُّدٍ لصدّى يعلمني دون كلام بأنني أتمادى في غيٍّ لن يُطيق تحمّلَه طويلاً.. كنت أعبث بنضجٍ يدّعيه على قدر أهوائه المتقلِّبة. ولم يكن لأهوائي البسيطة أيّ دخلٍ بالموضوع. فيما بعد انضبطتُ لإيقاع ارتضاه لي دون أن أستَسيغَه. وأصبحتُ أكثر حرصاً منه على الخطوتين البليدتين. أرعاهما بناظرى وأنا أتبع ظلّه في صمت الكفَن الأسود.

كنت أرغب، فحسب، في طفولتي الحالمة بتطوان أنْ أخرجَ من الظل إلى النور. كنتُ أرغب في القليل من الحياة بعيداً عن جدار السكينة القاتل.. القليل من الحياة، وحسب. فأرادت لي الأيام سحابةً سوداء تغمرُني.. تدثِّرُني.. تغلِّفُ كامل جسدي وحياتي لترميني بالغياب الكامل.

كانت أيامنا الأولى في الغرفتين الأرضيتين تمضي عليّ في ذهول. كنتُ مثل المصعوقة.. وكأنّني أخرى.. غيري. أنسحبُ داخلي من جديد، مثلما كنت أفعل وأنا طفلة في الباحة جوار شجرة التين الكبيرة.

كم كانت الطفولة أهنأ بما تحمله لأحلامي من وعدِ غدٍ سيأتي.. وكأنّه سيأتي في يومٍ ما.. قد يكون قريباً.. بعيداً.. لكنه حتماً سيأتي. كان وعداً

من تلك الطفولة البعيدة استأنست به لسنوات دون كلل. كانت فيها الأحلام زادَ تعَبى، أداريها وأدارى خلفها فراغاً لا أعرف السبيلَ إلى ملئه.

مثل تلك الكائنات الصغيرة المحلِّقة التى تسعِفها فتحاتُ النافذة الخشبية الخضراء الضيقة فى الدخول، ويخذلها الزجاج الشفّاف الممتد بمربّعاته التسعة المفصولة بالعيدان الخشبية فى العثور على مخارج، كانت أحلامى. أجدها تنبتُ فى غفلةٍ منِّى ولا أستطيعُ دفعها خارجي، لأتحرَّر من صخبها المشاكِس.. تكبُر، وتكبُر، دون حاجةٍ إلى أنْ أغذّيها.. وتمضى مندفعةً أمامى فى دروبٍ للحياة لم أجرؤ على ارتيادها. لم يكن فى وسعى أن أتركها أمانةً فى جوف الليل، دون أن أحملها معى حين أستفيق صباحاً. كان علىّ أن أحرسها كى لا تتلصَّص على جنونها الرّزين أهواءُ العُقلاء. كنتُ أغذّى بها فارغَ يومى، وأشحنه بتفاصيلها الكثيرة التى تكبُرُ وتكبُر.. دوماً كانت تكبُر تلك التفاصيل التى تحوز انتباهى.. منذ طفولتى الغافية أمام شجرة التين، وسط الباحة الخارجية على حشية الصّوف.

كنت أراقب تلك التفاصيل الكثيرة التي تنمو تحت ظل الشجرة وإلى جانبها.. الجذع الصلّب الذي يغالب نزواتِ الطقس مهما كانت أحواله.. وحركات النمل وهو يمشى مسرعاً هنا وهناك.. أوراق شجرة التين وهى تتساقط.. التقاء الأغصان بظلالها وهى تحاذى الجير الأبيض على سطح الجدار.. أشعة الشمس وهى تعانق التربة الندية من خلف تشابك الأغصان فتمتص رطوبتها شيئاً فشيئاً، ويتحول اللون والحجم والملمس من الغامق الثقيل المنفوش إلى الباهت الخفيف الناعم.. قطراتُ المطر وهى تتدحرجُ نزولاً فى استسلام لخُدَع الجاذبية.. تهبطُ من ورقة إلى ورقة، وتتقطّر من غصن إلى غصن.

تفاصيل أحلامى كانت مثل تلك الشجرة التى كانت تبدو دوماً قويَّة تنمو دون الحاجة إلى كثير العناء. منذ وعيتُ الحياةَ وعيتُها ظلِّى فى شمس الظهيرة الحارقة، ومخبئى من سيول الزّخات الهادرة. كانت تنمو فصلاً بعد فصل.. سنةً إثر سنة.. وثمارها اليانعة تجود بواكيرها كلّ صيف.. حفيف أوراقها كان موسيقى لا يصيخُ إلى نبضِها سواي. كنتُ أرقُبُ الريح حين تطلّ لكى أرى كيف تهفو نحوها الأغصان فى حنين لا يسمَعُ أصداءَه غيري. كنتُ أسرِعُ الخطو نحو شجرتى العاشقة حين تطرق الريحُ أبوابَ السماء الملبَّدة بالغيوم، لأراها ترقصُ على إيقاع الخريف.. كانت ترقصُ وترقص إلى أن تتخفَّفَ من أحمال كلِّ الأوراق الصّهباء.. ولا تنحنى خلفها لتوديعها.. تظلُّ منتصبةً فى شموخ، ترقص على هوى الريح. تجادِلها حيناً حنيناً إلى مروج وبساتين يصلها طلعُها فى هبَّة نسيم كل ربيع. وتسكُنُ حيناً فى خشوع لا يترك للصدى أيَّ رجْع.

مثل الشجرة كانت أحلامي.. مثلها تنمو وتنمو وتتجدَّد مرَّة بعد مرَّة، فصلاً بعد فصل. لكن براعِم الحلْم خذلها ذلك الغدُ الغادر.. مثل ذلك الصُّبح الذى غَدَرَ بأحلام شجرتى قبل ربيع لم يُزهِر فوق أخضر أغصانها، مثل ذلك الصبح الذى استوت فيه للمنشار الكهربائى شهية البتر دون سابق إعلان. كم بكيْتها.. خاصمتُ بّا عبد الكريم لأيّامٍ طويلة.. أبى اكتفى بمعاتبته لكونه لم يستأذنه قبل البت فى أمر إزعاج صوت الأغصان لنومه كل ليلة.. الموسيقى التى كنت أنام على صدحها كانت تزعجُ لياليه.. فاقتصَ لأرقه بشراهة المنشار من كلِّ حفيف محتَمَلٍ لتينَةٍ لم تظلِم أحداً. كانت تحيا وتثمِر وتكبر فى غفلة من الجميع. لم تكن لها مطالب كثيرة. لم تكن تشكو شمس

الصيف أو زخّات الشتاء. كان عويلُ الريح ملاذَ رقصِها الوحيد.. لكنه لم يستَسِغ إيقاع رقصاتِها. لم يسأل أحداً قبل أن يقدِم على استعارة ذلك المنشار. لم يستشِر أحداً قبل أن يبتر تلك الحياة الكريمة التى كانت تحضُنُها. ليلٌ آثمٌ وصبحٌ غادِر.. ولم يعد للشجرة أثر. ظلت بقايا الجذع لفترة قصيرة، ثمّ نبت الإسمنت بفعل فاعلٍ ليدفنَ الترابَ الخصب فى قبر على مقاس البتر.

أحلام أمسى الماضى غارت هى الأخرى خلف قبرٍ أسود ارتدانى على كرهٍ منّى.

لم تعد لى أحلام فى تلك الأيام بمدينة "أصيلة"، وظلاله السّوداء تكسوني. وكأنّ اخضرار الحواشى فى تطوان لم تزهِرُ ورودُه فى "أصيلة" غير السّواد. الغد الذى كنت أنتظره قد حلَّ دون أن تجد أحلامي إليه منفذاً.

كانت زرقة النوافذ الخشبية فى الغرفتين الأرضيتين بحراً آخر يخالف مياه المحيط الأطلسى الذى يغسل كل المدينة. كانت تظلّلنى داخل كهفى الأرضى الأبيض الذى يغلقُه عليّ فى كل مرة بسبق ترصُّد يمنعُ أىَّ حركة تحرُّر.

حين كان يقفِل الباب خلفه بنسخة المفتاح الوحيدة التى لا تفارق جيبه فى كل الأوقات، كنت أدرك معنى شيء جديد ما كان ضمن طموحاتى فى يوم من الأيام، ولم أجرِّبه من قبل ولا أرضاه لغيري.. أدركت معنى أنْ يكون مصيرى فى يد أحدهم.. فى جيب أحدهم، دون أن أقوى على تغيير الوضع. يمتلك بمفرده كلّ الحقوق وعليّ الرضوخ والاستجابة والطاعة.

سابقاً كنت أنصتُ بإمعان لأحاديث الفتيات فى جلسات العزيزة ماريّا، وأرى عن قرب تلك اللهفة الممزوجة بالفرح التى تنسكبُ عليهن كلّما تمت

الإشارة إلى خطوبة إحداهن. وأتساءل ما الذى يدفعهن إلى استباق ذلك المصير الذى سيلغى حضورَهن، ويحولِّهن إلى ظل شاحب لكائن آخر يمتلك وحده كلَّ الحياة. كنَّ أكبر منى بسنوات، لكننى كنت أستغرب حلمهن الوحيد وطموحهن المتطابق: "ولد الحلال" الذى سيسترهن.. وكانت تلِّحُ على بالى أفكار عديدة التقطتُها هنا وهناك منذ تفتَّق جسدى عن منابع أنوثته الغافية.. أكلُّ أنثى هى عوْرَةٌ فى انتظار السَّتْر؟ أيصبحُ أنَّنى عورةٌ، وعلى "ولد الحلال" أنْ يستُرها؟ أتكونُ أمِّى العورة التى ستَرها أبى فأنجبها البنين الذكور والبنت.. العورة الوحيدة؟

حينها كانت أسئلتى تلك بريئة.. كانت ساذجة.. مُغرِقة فى عالم الطفولة الذى لم يصُغ بعد إحراجاتِه أو انكساراته.

لم تكن طفولتى هانئة، لكنها كانت طفولة كل الفتيات.. الفتيات وحسب. مرهِقة على تخوم اللهو الممنوع.. ومثقلَة بأعباء الأمومة المتأهِّبة. لم يكن لنا أن نلعَبَ مثلما يلعبون.. لم يكن لنا أن نبتعد عن أسوار البيت مثلما يبتعدون.. لم يكن لنا أن ندرس وفق ما نشتهى مثلما كانوا يدرسون ويشتهون. وكانت أعباء البيت تمدُّ لنا لسانها بإنهاكٍ متوالٍ قبل أن نبلغَ الطولَ الكافى للوقوف أمام المَجْلى لجلى كلّ أوانى الطعام المستعملة فى مآدب لا تنتهى، ضيوفُها دوماً هُمْ وهم.. أبى وإخوتى.. وإخوتى.. وإخوتى.

طفولتنا المؤنَّثة لم تكن مثل طفولتهم. طفولتُنا كانت أشغالاً شاقَّةً استعداداً للمؤبَّد المنتظَر. ولم يكن مفتاح ذلك المؤبَّد المنتظَر بِيَدِ آخَرَ سوى "ولد الحلال".. وقد كان المفتاحُ فى جيبِه فعلاً. كان هو.. أبو

زكريا الذى ستَرَ عورتى فى عُرف إخوتى وبرضاهم ومباركَتِهم. كان يتركنى بمفردى فى عزلتى.. يقفِل الباب بالمفتاح الوحيد الذى يملِكه، كى يملِكَنى معه ويمضى مزهواً بما ينتظِره مساءً حين سيعود ليفتَح بابَ مخدعى وهو يستخدم المفتاحَ الذى يملكُنى به فى جيبه.

أسئلتى القديمة تلك، كانت مغرِقة فى عالم الطفولة الذى لم يجابِهْ بعدُ تحدّى أن تكونى ملكيَّة جماعية، وأنتِ لست مِلْكِ نفسك.. أن يكونَ من حقِّ جميع أفرادِ الأسرة والقبيلة والعشيرة والمجتمع امتلاكُ حقِّ مصادرةِ كلِّ حقوقكِ دون أن يكونَ لكِ أنتِ، وأنتِ فحسب، حقُّ الدفاع عن حقوقكِ المصادَرَة. كنتُ طفلةً تراوِغ القدر المنتظَر دون أى احتمال لنَسْخِه أو لتفاديه.. لكنّنى كنتُ بعدُ أراوِغه.. فهو لم يأتِ.. لم يطرُق بابى بعد.

فيما بعد، كانت تنتابنى صعقة الصدمة وأنا أتابع الفرح الذى يتورّد على خدّىْ إحداهن وهى تنهَرُ زميلتها التى لمسَتْ مصادفةً وركها.. أو طرف مؤخِّرتِها.. أو ثدييها أو أسفل بطنها. أو باطن فخذيها... بدعوى أنه ليس من حق أحد أن يلامِس منحنيات ذلك الجسد، فصاحِبُه سيأتى ويطالب بحقوقه عليه كاملةً.

أسئلتى حينها، وحينها فحسب، كانت قد نضتْ عنها ثوب البراءة والسذاجة والطفولة.

ظلَّتْ أسئلةً ما خالَفتْ وعْد الغد. فقد كنتُ أقتاتُ على اليوم الذى سأكونُ فيه أنا لنفسى، دون مواثيق للملكية.. أو بنود للاستعمال الحلال.. أو لعهود التضحية المنذورة لجعل الشمعة تذوى بفرحِ أن تنير للآخرين حياتَهم.

لكن أسئلتى تراجعت كثيراً، وانحسر منتهى آفاقها فى بيتى الأرضى ونوافذى الزرقاء المقفلة وصوتُ المحيط الأطلسى يصلُنى من بعيد، دون أن

أفلَح في رؤيتـه من خـارج الخـيـمـة السـوداء.. وحـارس ظلّى على مـبـعـدة الخطوتين.

كنت أمـضى الأيامَ فى انسـحـابٍ لا أعـرف كيف أفـارقـه. وأغيب عن مرٍّ واقعٍ لا أجد فيه غير السّواد يلتحفنى داخل البيت، وألتحِفه فى خارج البيت. وكلما حاولتُ أن أوقِظَنى من انسحابى يقْوى أكثر شعورى بالإنهاك.

لم يكنِ اقترابى منه يفيدنى فى شىء. ولم يكن بإمكانى أنْ أفارقه، أو أن ألتمسَ إلى ذلك الأسبـاب المُعينة. كنتُ وحـدى فى سـجنٍ اخـتـارَه لى على مقاسِ غربتى، وعلى هوى نزواته.. ويزدادُ احتقارى لشىء أصبحتُه يوماً بعد يوم.

لم أكن أتوقّعُ منه خيراً. وما أوحى إليَّ بغير ذلك. فلم يكن حضوره إلى جوارى لِيحفظَ لى القدرة على مواصلة الحلم.. كانت صلتى به منذ البدء منذورة لقتلى شيئاً فشيئاً.. كنتُ رفقته منذورةً للوجع.. للموت.. أكثر فأكثر.

كان حين يقترب منّى أُسلِم له نفسى وأغيبُ عن جسدى. أحاول أنْ أدفع روحى قسراً إلى التحليق بعيداً عنّى.. إلى اللوذِ بسماء أخرى قد تستجيب لدعواتى. حاولت مرّاتٍ أن أفرّ منه، أن أصدّه، أن أقاومه... كان يُعْلمنى بطريقته الخاصة أننى مِلكٌ حلَالٌ لَهُ، وله الحق فى أن يحرِثَنى أنَّى شاء.. وليس لى حقٌّ اعتراض أن يأتينى متى شاء. حين كان يعتَلينى بجسده الثقيل لم أكن أحسُّ بجسدى موجوداً لى.. كان له وحسب.. وكان يتقن إشعارى بأن جسدي، ذلك الملتصق بى، ذلك الذى أسكنُه وأقطنه منذ وعيتُ وجودى داخلَه ليس لى.. بل لهُ.. ولَهُ وحده. كلّما اقترب منّى كنت أضيع عاجزةً وسط متاهة تكبُرُ أمامَ أوجاعى تستوعب كلَّ القرف والألم الذين يتفجّران د

يتملَّكنى القرَّف ممّا ألتقطُه بحواسى اليقِظة.. ما أشمُّه وما أتذوَّقه وما أراه وما أسمعه وما أحسُّه. كانت كل حواسى تعلِنُ العصيان ضد رغبتى فى أن أفقد الوعى.. أن أغيب قليلاً بينما يتناولُنى وجبةً باردة، مثلما يريد.. وكان ذلك يجعلنى ميِّتةً على وَقْعِ العفن والعطن واللزوجة.. أو حيَّةً على قيدِ الإكراه والجُور والاشمئزاز.

ويسحَبُنى الألَم داخل جلدى الذى يخذلنى مرَّةً بعد مرَّة.. وتتضاعف آلامى التى لا أقوىَ على الجهر بها أمامه لأنّه قاتِلى قبلَ الحرثِ وبعدَه.. ولم يكن لى أىُّ قريب حينها لأشاطره بعضاً من موتي. كانت آلامى تتضاعف بألم آخر موضِعى فظيع لا يطاق، لم أتجرَّع ما يشبِهه فى كل سيرة حياتى المُوجِعة. كان الألم يدفعنى إلى الأنين وأنا أعضُّ على أسنانى، وتزداد قوّةُ الألمِ ضراوةً مع استمرار الاحتكاك، بينما صوته يعلو فى شخير المستَمتِع.. كان كلّما التقط أنينى الخافت يسرِّعُ بهياج عنيف حركاته ليضاعف لذّاته. وكان ألمى يقوى يوماً بعد يوم. وأموت فى كلِّ مرة وأنا أراه يزداد عنفاً على إيقاع أوجاعى. كنت أشعر كلَّ ليلةٍ وكأننى أحتضر فعلاً.

لكنَّنى كنتُ أموتُ كلَّ ليلةٍ ليواصلَ هو الحياةَ نهاراً بعيداً عن محبَسى.

أبى، رحمه الله، لم يكُن فى يومٍ مثله. أبى لم يكن يسبق أمى بخطوة واحدة فى خرجاتهما المشتركة، ولم يكن معها مثلما كان زوجى معى. كان يجالسها حين تفرَغُ من أعباء اليوم. يقبِل عليها بعد أن يترك مصحفه الذى لا يفارقه، إلا ليعانق أوراق مجلَّدات تفسير القرآن وفقه السيرة بعد أن كفاه إخوتى شؤون التجارة ومتاعبها وأعباءها. وكانا يسترسِلان فى الحديث. فى أحيان كثيرة يختاران لسانهما الرِّيفى الذى كنتُ أتابعه وأفهم

الكثير منه، دون أن أستطيع مجاراتهما فى الحديث بطلاقة. كان حنينهما إلى قبيلتهما فى مدينة النَّاظور ينبت فجأةً حين يتداولان الحكى فيما بينهما، فتحلُّ الحُرُوف الرِّيفيَّة لتغنّى ذلك الحنين إلى مسقط رأسيهما وأرض نشأتهما.. تحضِّر أمى كؤوس الشاى وأطباق الحلويات والفطائر وتنادى الحاج فيأتيها مبتسِما لروائح كرمِها التى تداعب أنفه. لم يكن عَبوساً بل طلْق النفس منفتِحاً فى مشاكساته للجيران. قهقهته حين تنطلق تغمُر البيت بالبهجة.

إخوتى لم يتشرّبوا سماحته وسخاء عواطفِه. أو لقد كانوا يشبِهونه فى زمن مضى، لكنهم تغيروا فيما بعد شيئاً فشيئا. أصبح أبو زكريا، مثلما عاد من أفغانستان بزيّه المميّز وجديلتيه الطويلتين ولحيته المخضّبة بالحناء وعينيه الكحيلتين، زوجى غير المأسوف عليه، أقربَ إليهم.. سيرتُه وصفاته تأسُرُهم، دون أن يشبِهوه أو يتشبّهوا به. أحوالهم كانت تتغير بالتدريج شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة. مرّ علىّ وقت بعد وفاة أبى رحمه الله استغربت كثيراً ما آلوا إليه، وما آلتْ إليه نظرتهم إلىّ. رضوان بدوره تغيّر.. أصغر إخوتى الذى كنتُ أراه الأحنّ على طفولتى بينهم.. هو الآخر تغيَّر. لم أعد فجأة أختاً لهم. أصبحت امرأة لا يأتى منها إلا الشر. أحكموا مساءلتى ومضايقتى. ولم يفسِحوا لصوتِ براعتى كوّةً لتطلّ على الظلام الذى أغرقوا فيه.

ما عددته انتصاراً على الجمود الذى غلّف حياتى، كانوا يروْنَه تطاولاً يستحق العقاب أو التأديب. حين سلكت بكامل حيرتى وتردّدى شارع محمد الخامس فى اتجاه مدرسة الفنون الجميلة سنة ١٩٨٤، لم يكتشف أحد ما

انتويتُ فعله حينها. ولمِ يحاسبني أيٌّ منهم على نواياي. لكن عقابي كان جسيماً، لم تقاسمِنْي غير ذاتي الآثمة احتسابَ فاجعته أو لومه أو ذنبه. كان دم أبي عقابي على نيّةٍ أسرَرْتها في نفسي دون أن تسعفني الأحداث فعلاً، في المضي نحو مساعيها. فلم تبلُغ قدماي يومها نهاية المسير الذي كنت أعتزمُه. ولم ألتَق عزيز في ذلك اليوم الأسود أو فيما تلاه من أيام تلك السنة. ومدرسة الفنون الجميلة بتطوان لم ألِج عتَبتها مرّةً ثانية. لكنّ غصّة اليتمِ ظلّت جرحاً لا سبيل لمداواته، مهما كانت نواياي طيبةً وساذجة ومغرقة في حلم الرسم الجميل.

اعتكفت لسنوات على مجاهدة أحلامي.. على نسيان روحي.

حين نلت شهادة الباكالوريا سنة ١٩٩٩ بعد سنوات من التحضير والجد والعمل الدّؤوب، وحاولت أن أواصل مسار الدراسة وفق ما ارتضاه لي جهدي وتعبي وانتظاري، عدّ إخوتي ذلك تجاسراً لا يؤتمن من جانبي ولا يمكن توقع ما الذي سيعقبه. أسرعوا حينها في عقد اجتماعاتهم وتكبيل خطواتي بكل القيود المحتملة، إلى أن اهتدوا إلى انتقاء زوجٍ لي على معاييرهم، بعد أن أخفقوا في العثور على ما يلائم تلك المعايير فيمن كان يتقدّم لخطبتي منذ وفاة أبي. قاومت طويلا. هددت بالانتحار.. سعيتُ إلى توسيط كل الأقارب. لُذْت ببيت ممّا شمس الضحى هاربةً، فاستقووا بكثرتهم ووحدتها وحاجتها إليهم بعد وفاة بّا عبد الكريم وتكلُّفهم بمعيشتها وأخرجوني عنوةً من بيتها.. لم أنجح في إثنائهم عمّا اعتزموه.. ونقلوني من ملكيتهم إلى ملكية صهرهم.. فكنت امرأتُه، دون أن يكون زوجي.

«حين صفعَت البابَ خلفَ إحباطها لم تكن تائهةً، لكنّها لم تكن قد حدَّدتْ وَجهاتِها. كانت تريد أنْ تبحث عن حبٍّ لا يرتدى ممارسَة الجسد بشراهةِ جنحَ الليلِ خلسَةً، لينفضه فى وضحِ النهار.. يتبرَّأ من غواية فتنَتِه.. ويسيِّج بالسَّواد انفلاته.. ويرمى طهرَه بكلِّ الآثام.

لم تكن تطيق كل ذلك اللعاب المتدفِّق الذي يسيل علي مذبحِ جسدها العارى بنهمٍ شرسٍ، يحوِّلها إلى إناء لا ينضحُ بما فيه.. إلى إناء قاتمٍ.. حزين.. موجوع.. يُلعَق ويُلعَق من جميع جوانبه.. تغوصُ الأصابعُ الشرِّهة بكامل أجزائها فى كلِّ انحناءاته، لكى لا تفرَّ عن اللعق قطرة عسلٍ واحدة.. يلحسُه اللسان جيئة وذهاباً مثل لفافة الحلوى اللذيذة، يغمرها الدِّبقُ واللعاب من كلِّ زواياها دون أن تشتكى قطعة الحلوى، أو يسمع لها صوت.

أليست مجرّد قطعة حلوي خرساء.. أليست هى طاقة الفتنة التى تُسيل اللعاب.. كيف لها أن تقرفَ من الدَّبق أو اللعاب بعد الاشتهاء.. كيف لها أنْ تتورَّمَ بشرتُها، وأنْ تتوجَّع، وأنْ تشتكي من نيله مُتعَه الكاملة والشرعية من جسدها الذى يملكُه، دون أن يَكُون لها؟.

كم كانت تكرَه تحوُّلَها كلَّ ليلة إلى مأدُبةٍ ينتشى بها إلى أن تخورَ قواه، ويستغرِق فى موتٍ عميق، لا تنام هى

أثناءه من فرط ألمها وقهرها وحزنها.. وشخيره. تتحوّلُ وفق رغبتِه واشتهائه وطوعَ بنانِه إلى موضوعٍ يستهلَك.. ويستهلِك بشبقٍ مغرِق فى الإيذاء.

ويكبُر فى أعماقِها إحساسٌ تائهٌ بأنها أدنى منه، لذلك يعتليها وفق اشتهائه هو دون أن يكون لمزاجها دخلٌ بما يُقدِم على فعله بجسدِها هى..

يكبَر إحساسُها بأنها أقلُّ شأناً منه، لذلك يحكِم إغلاق الباب خلفه طيلة النهار، ليفتَح ليلاً باسمِه حين يعود كلَّ مغاراتِها ويلتَهِم بانتصابِه كلَّ دررِها المكنونة..

يكبُر إحساسها بأنها مجرّدُ شىء محجوزٍ لمُتعته الخاصة، لذلك يأتيها ليلاً بعرقِه وقذارته وروائح العطن تغمر أنفها، ليغتَسِل للصلاة فجراً بعد التهامِها كيف ما شاء.. وقدر ما يشاء..

أنْ تحتَبِسَ فى قلب قلبِك كلُّ الكلمات لأيامِ طوال، بل لسنوات مديدة، ثمَّ بعد الزمن بزمن تجدين نفسك فى لحظة أمام فضاء مفتوح للبوح.. للصَّوْغ.. للانفجار، هى متاهةٌ لا تدرين المسالك الآمنة لمُفارقتها.. المسلَك المختصَر ليس الأهمَ الآن.. لم تعُد للزمن هوايةُ المفاخَرة.. الغاية الخروج عبر مسالك آمنة وحسب.. وليْكُن ما يكون.. الأضرارُ الجسامُ لا جموحَ سيمحِيها، والخسائر لا رادِعَ لكلفتها.. والعمرُ لا يُدارِى حسراتِه.. والغد لا تبينُ شموسُه مهما كان ظلامُ الليل كالحاً..

يبدو جنوناً غير متوائم الدَّفقات تحرُّرُكِ المباغتِ من كلِّ القبائل والعشائر التى كنت تحملينَها بداخلكِ، دون أن تحمِلى ذاتَكِ.. أنتِ.

كنتُ تضعينَها دوماً بصمتِكِ في المقدِّمة دون أنْ تُدركي ذلك، ثمّ تلْهَثين أنتِ وذاتُكِ المغبونة خلف تعاليمها ومحرَّماتها. كم كان وهماً كلُّ ذلك اللهاث.. كم كانت سُخفاً كلُّ تلك الاستكانة. الأمس ولّى مارِقاً قبلَ أنْ يرتَدَّ البصرُ. واليومُ ظلَّ في كلِّ يومٍ طيفَ حضور مُصادَرٍ ومحاصَرٍ. والغد ذلك المأمولُ طوقُ النّجاة في مستنقعٍ هادرٍ موبوء لا تفتُر طحالبُه عن التكاثُر والتّفاخُر. قد يأتي أو لا يأتي. من يدري ما تواريه أسطرُ الرواية المراوِغة.. من يستعجل قبل طيِّ الصّفحات بلوغَ ذروة المنتهى.. من يقلِّب الأوراق ليقطفَ الوريقات الأخيرة وهي تسبكُ سريعاً مسارها نحو اللاعودة.. إثمُ الحياة لا يفتُر عن غسلِ ذنوبِه كلّما انتفضتْ في جوفِ العصفورة العالقة في مصيدةِ التَّعاليم رعشَةُ الموت.

«يبدو ماحِقاً أن تمتلكي بمفردك، في فجر يومٍ سبتٍ عادي لكنه لا يشبِه باقي الأيام، كلَّ ذلك الاندفاع الأهوج.. كلَّ ذلك التَّوق إلى البدايات التي لم تطئيها خوفاً أو جبناً.. حريقٌ لاسعٌ يدبُّ في كلِّ أوصالك وأنت تتمَّمين كلّ التفاصيل التي لم تفكّري فيها طويلاً.. لم تخطّطي لها.. لم تنشغلي بحبْكِها.. ظهرت قبالة إدراكك بغتةً بشغب طفلةٍ لم تكونيها يوماً في طفولتك المستسلمةَ للصّمت.. جنونٌ ممتعٍ يقذفك نحو أقاصي الإدراكَ أخيراً.

لم تملكي إلا أن تستيقظي باكراً فجرَ ذلك السبت. كان العبث دوماً يدفعك نحو المزيد من الجموح. لا تنتظرين منه شيئاً، تدركين أنّه منذور للوفاء يصلُ يومك بأمسك دون ترفُّقٍ بالخيبات المتلاحقة. رصيدك الذي تباهين به ليالي الحلم ليس

ما كـان لك منذ أكثـر من خمسَ عشرة سنة، بل مـا كنتِ له. جنون آخر لا تـعرضِين فيـه عن رزانة مصطنعة، بُعَيْد بلوَغك الثلاثين عاماً.

تلك حياتك، ولهم أن يلوكوا الفراغ الذى لا يملكون غيره. أمـا الامـتـلاء فـرحيـق أزهـارك الذى لا تبدِّد طـيبَـه فـصـول السنة، مهما تطـايرتِ الأوراق وذبلتِ الأغصان.

أكنت متـهوِّرة؟ قطعاً سيقولون ذلكَ وأكثر. لكنهم لم يعلموا حقّاً من تكونين. لم يعرِفوا أنك كنت صـادقةً حدَّ محـاربة كل أحـابيل الكذب التى لـم يرَوْها، لأنهـا كـانت ببسـاطة من صنع أفكارهم الزائفة».

فى بدء العمرِ كنتِ ساذجةً تلهين.. فى منتصف الحنين كنتِ ولهىَ تماماً.. قبلَه قليلاً كنتِ تنشُدين خلاصـاً مستحيلاً والكلمـاتُ المُحتَضِرة تهمسُ لقلبك بصـدى السنـين.. فى غـفلةٍ من يومِك الأسـود هناك بـ"أصـيلة".. وغـفلةٍ من مقامك المُحاصـر فى "الرِّيـنْكُون". بعد مفـارقتكما لمجاورة المحيط الأطلسـى وعودتكمـا إلى سـاحل الأبيض المتـوسط، تفجَّر بين فُـتُـوق تربتِك الشـاحبة الجـافّة النائمـة ذلك التَّـوْق إلـى الحيـاة التى مـرَّت فى كلِّ السنوات الثـلاثين التى عشتِها قيد سجلِّ القبيلة أمامَك دون أن تغتَنِميها.

وكـان مـرفـأ يقظتك تلك الأم الرّؤوم التى لـم تنجِبك ولم تنجِب غيـر ذكور تكبُرُ أمومتـها فـخـراً كلمـا أتَتْـها أخـبـارهم من هنـاك.. بإسـبـانيـا. فـحـملَتْ أحلامك المجهَضة وشوقها إلى ضفـاف لم تزرها فى شيخوختـها. ومضتْ بك نحو حلْمٍ آخر محـرَّم. كـان محـرَّمـا قبل أن تطئى عتبـة بيتك فى "الرِّيـنْكُون" قبل أسـابيع، دون أن يقفَل بابُه بالمفتاح فى وجه حرِّيتك.

كنتِ عصفورة صغيرة تجرِّب طاقة جناحيْها المهيضَين على التحليق من جديد بعيداً عن تعاليم العشيرة. وكانت ورقة طلاقكِ التى تحملينها بين وثائقك آخر صكوك الغفران التى وضعْتِها فى محراب تقديس القبيلة. كانت فرحاً لم تنتظريه، وعرساً لم تتجهَّزى له، وموسِماً لم يبلُغكِ خبرُ اقترابه. لم تحتفلى كثيراً حينها بموسِم الانعتاق. ولم تفكّرى فى الاحتفال. كان فرحُك أهوجَ لا يفكِّر بل يسارِعُ الزمن للحياة، لاقتناص الفوز المستحقّ بالحياة أخيراً بعيداً عن كلِّ أعراف القبيلة وتعاليم العشيرة. لم يكن مهمّاً حينها الاحتفال، كان الأهم الإسراع بالتحليق.. كان التحليق فرصة العصفورة الأخيرة فى الحياة دون موت.. فى الحياة قيد الحياة، بدل الموت قيد الحياة. ستحتفلين لاحقاً دون أن تخطِّطى لذلك الاحتفال.. فى كلِّ أيام الفرح الذى انفتحتْ سبلُه بين يديكِ.. ويديه.. ستحتفلين بكِ.. بالحياة.. بالحبّ.. بالحرِّية.. بالجمال.. بالأنوثة.. بالإنسان...

ستحتفلين به.. معه.. له.. ذلك الطريدُ الشريدُ الذى جمعك به ذلك الخميسُ الأسود على عتبات ألم مدينَتكما المجيدة "تطوان"، وحفرَ عميقاً فى ذاكرتيكما أوجاع الدم المهدور. ختمَ يومَها على قلبيكما بنذور لقاء سيأتى بطعم الفرح ليغسل أوجاعكما دون أن يلغيها. فذاكرتاكما مثقلتانِ بندوب يصعب شفاؤها. للفرح غدٌ تستوى فيه كلُّ الندوب وتطيب فيه كلّ الجراح.. لكن اليوم ما زال قيدَ الحبّ والفرح والأمل.. والغد.. ذلك المنتظَر سيأتى..لأنهُ هو اليومُ.. لأنك ترتشفينَه لحظةً لحظة دون استعجالٍ.. فالظمأ، وإن لم يرتو - ولن يرتوى - يظلُّ فى القلبُ متَّسعُ دائمُ للهفة.. للتوق.. للشغف.. للحب.. ومواسِم الاحتفال تعقدينها كلَّ يومٍ لحياتِكما معاً أنتِ وعزيز الحبيب.. لحياتكم أنتم الثلاثة و"تودُّ" بينكما تتوردُ براعِمها كلَّ يومٍ أكثر.

فى واقع الأمر لم أحب المواسم يوماً. كنتُ أدرك أنها خدعة ملفوفة بورق التغليف الأحمر اللامع المبهر.. يزيِّنونَها على مقاس اللهفة والشهقة والخدر اللذيذ.. يدركون وهم يسربلون أيام الاحتفال البهيج أمامَ بصَرك المشدود عنوةً إلى مقاليد الحزن أنّ الفِخاخَ منصوبة للضحايا ببراعة وصفةٍ تُكثِرُ من السُّكَرِ دون أنْ يكون طعمُها حلواً بالضرورة. مكرُ فرحٍ يأتى على مقاييس جيوبٍ فارغة وقلوب يابسة.. وصناديقَ تبحث عن الامتلاء.

لم أكن أنصاع للمواسِم إلا لبهرجةٍ تقتضيها أعراف القبيلة.

الآن، أستغرِب كيف تتغيَّر كلُّ الأشياء حين يمتلكُ الإنسانُ حقَّ التغيُّر. لم أعد مهدية التى كانت.. ولم يعد لمهدية تلك وجود.. لا أحبُّ بالضرورة ما كانت تُحبّ.. أحبُّ من كانت تحبُّ وحسب. ولا أكره من كانت تكرَه بالضرورة.. أكره ما كانت تكره وحسب.

أعشق المواسم فى يومى الفرِح.. وأحب ورق التّغليف بكل ألوانه وإبهاره ولمعانه. أتقنُ فنونَ التّزيين بحثاً عن لهفةٍ أقرؤها فى أعين من أزيِّنُ لهم عالَمهم.. وبحثاً عن شهقةٍ تنفلتُ من حناجِرهم حين تصعَقُهم دهشة الجمالِ الذى أنَّخِره لبيتهم أو لمكتبِهم أو لفضائهم الخاص.. وبحثاً عن خدرٍ لذيذٍ يسكُنُنى كلَّما بلَغتُ بإبداعى ذروةَ الاكتمال، وفق ما أراه وأحسُّه ووفق ما أدركُه من تلقى كلِّ الآخرين لبصمات ذاتى المبدعة.

لم أتخيَّل يوماً، فى ذلك الماضى الذى كُنْتُه وكانَتْنى مهديَّةٌ من زمنٍ آخر، أنّ تصميم الديكور وهندسته ستحتضِنُ كلَّ طاقاتى الإبداعية المصادَرَة طيلة ثلاثين سنة أو أكثر قليلاً. ستضعنى أمام كلِّ الاختيارات المحرَّمة والأحلام المحظورة والأمانى المرفوضة.

حين ركبتُ الباخرة منذ خمس سنوات من ميناء طنجة رفقة ماريّا، في ذلك السبت البعيد من سنة ٢٠٠٢، لم أكن أعلم ما ينتظرني في الضفة الأخرى. كان ميغيل ابن ماريّا الأكبر كلّ ما أمتلكه من ذلك الآتي.

كم كنتُ طفلةً تستفتي قلبها الصغير أيصغُرُ الحبُّ أم تضيق العيون فلا تبينُ عيوبُ الحب بعد مرور الزمن على تخوم الجسد المتعَب؟

كانت وجوه البسطاء الذين لم أعرفهم في تلك الطفولة الغابرة أكثر حبّا وانبساطاً وفرحاً.. من كلِّ الذي أخلصتُ لهم الحبَّ.. ماريّا كانت دوماً أنشودة الحب السّمح التي لا تستوقف الآخرين العابرين في حياتها، إلا لتَصِلَ قربَهم بالمزيد من العطاء والعطاء والعطاء.. كم كانت تبذل دون أن تسألَ مقابلاً لحبّها أو لعطائها.. كانت مثل تلك الأيقونات والمجسَّمات الكثيرة التي تضعها فوق المنضدة المرتفعة أسفل صورة مريم والطفل في بيتها، تملأ العابر أمامها بالصفاء والفرح دون أن يدرك السبب.. لم تكن تتركني والفتيات نبلغ زاوية الصلاة، مثلما كانت تدعوها، بل كانت تمنعنا من ذلك وتحثنا في المقابل، على الالتزام بمواعيد صلواتنا الخمس. لكننا كنا ندرك أنها متى مرّت أمام لوحة مريم تقف بخشوع وتبتُّل للحظات طويلة. ماريا كانت دوما منبع سلام وحب لا ينضب.

في طفولتي كانت وجوه الباعة نساء ورجالاً وهي تقتَسِمُ الفرح والمرح واللون والنبض، أكثرَ عطاءً وسخاءً من كلّ الوجوه التي صادفتها بعد أن تجاوزتُ عتبة بيتِي الزوجي في "الرِّينْكُون". كان الفرح غائباً عن كلِّ قسمات الناس.. والسّواد وظلالُه القاتمَة يوشّح الدروب والأزقّة بإسراف أزياء استوطنَت الأجساد المؤنّثة.. تلك التي كانت مؤنَّثة ذات ولادة.. تلك التي كانت أنوثةً قبل أن يُفيض عليها السّوادُ قلاعَه وحصونه وأقفالَه.

كان جلبابُ أمي، فى زمن مضى، وهو يكسو جلَّ الأجساد المؤنَّثة أكثر أنوثةً. كان ينسدِلُ مستقيماً أكثر من اللازم. ينسكِبُ على كلّ الجسد من منابت الشعر إلى أخمص القدمين. يخفى كلَّ الملامح والمنحنيات. يغلّفُ مدارات الفتنة بامتيازِ ثوب سميكٍ. والألوان تتهادى بحثاً عن رزانة لا تخذُل فى الاختيار المُشترِيةَ أو البائع أو الخياط المحترف.. واللثام الأبيض الجميل المطرَّز بنقوش وتخريمات متناسبة يزيِّنُ ملامِحِ الوجه بألَقِ صفاء يانعٍ، يتركُ للعينين بمفردهما متنفَّساً للتطلُّع إلى العالم بحرية غير مشبوهة. كان الجلبابُ أنيقاً.. رشيقاً.. يتحدَّثُ بفطرة أنثى تخفى ما تخفى بجمالٍ دون ابتذال.. يسردُ حكاية حَياء لا تتورّعُ عن الاحتفاء بالجسد الفاتنِ، وهى تكيلُ له سياجَ الثياب.. يروى غواية العفّة التى تداولَ الخيّاطُ الماهر حياكة استقامتِها بانسجام.. كان الجلبابُ رزيناً.. راشداً.. لكنه أكثر نقاءً وأنوثة وجمالاً من كلِّ تلك الخيام السوداء المتحرِّكة لوجوه لا تبينُ أعيُنُها.

كم رأيت مدينتى مدينةً أخرى وأنا أعبرها بمفردي. كنتُ أتخيَّلُ قبل أن أتخطى عتبة محبِسى أنّنى سأطيرُ فى سماء المدينة لأحتضنَها من الأعلى.. من فوق الجبال والأسوار والأبواب والأمجاد.. سأشرِف على بياضِ جيرِها البهى الذى يتألق فى امتداد البيوت والمنازل مثل لوحةٍ بيضاء شفّافة تغتسِل بالحبِّ والصفاء والطيبة.. سأشرِف على اخضرار الأبواب والنوافذ والحواشى يغمر العين بنضارة لا تصفرّ ولا تشحب ولا تذبل.. سأغترفُ من نداها ما يروى جوْفِى الجاف.. كنتُ أتخيَّل وحسب. مدينتى التى أحملِها فى داخلى.. فى ذاكرتى المعتّقة بالحنين إلى طفلة ساذجة.. بريئة.. كانت تتقنِ

شَكَّ الأسئلة.. ولا تنتظر للجواب يقيناً.. لم تعُد مدينتي.. لم تعد الحمامة البيضاء الشهيّة.

تطوان مدينتى لم أعثر عليها وأنا أجوب دروبها مزهوّة بجناحين أكتشفُ أننى ما زلتُ امتلكُهما رغم أنف الصيّاد والقنّاص.. رغم الخمار الأسود الذى يغلِّفُ تعثُّرى وانتكاسى.. رغم التيه الذى يقذفنى فى ضلال لا أهتدى فيه إلى بيت أسكُنُ إلى دفئه.

وأكتشفُ أننى قد استعدْتُهُما إذ تجاوزتُ قفل الباب وعتبة البيت. استعدتُهما وأنا أفارقُ عتمة العزلة وأمسحُ عن جسدى بقايا لُعاب المَذبح.

فى تلك الآونة الماضية، كنتُ أسعى فى منتهى جهدى إلى استيعاب معيش يومٍ يحكِم متاهاته المستعصية. وتأبى الليالى إلا أن تحوط سمائى بالمزيد من الاختبار. لكنّى وأنا أفرُّ من "الرِّينْكُون" لكى لا يضبط أخى الأكبر، خليفَة الأب، حرِّيتى على مقاس فحولته.. أو على نزواتِ مراجَعات الطلاق.. كنتُ أعرف أنَّ فى جعبةِ تحرُّرى نفَساً أخيراً لا يحتَملُ التفكير كثيراً قبل الزّفير.. شهيقى حينها كان بعثاً بعد موات.. ولم أكن لأخطِئَ الحياة ثانيةً.

ماريا كانت أمّى التى لم أمتلِكها يوماً لى خالِصة النيّة والحبِّ والأنوثة والأمومة.. أمّى ماتتْ.. أمّى التى أنجبَتْنى فى خريف عمرها ماتت دونَ أن تكونَ يوماً أنثى مثلما أراد لها جسدُها أن تكونَ فعلاً، حين ارتضى لها يوم ولادَتها شَكْلَ أنثى.. لم تكن يوماً أنثى كاملة الدلال والأنوثة والجمال. أمى التى كانت مثلما أراد لها المجتمع والتاريخ والذاكرة أن تُبْعِد كلَّ معالم أنوثَتِها كى تنشأ على قيمَ تكميِم الجسد وتأثيمِ الأنوثة، ماتَتْ بعيداً عنّى..

هناك فى بيتنا الذى بيعَ مباشرةً بعد ذكرى أربعينِها، وكأنّ كلّ معامَلات البيع القانونية كانت خجلى من توثيق توقيعاتها قبل أن ينفُضَ الحزنُ آخرَ أوراقه. رحلَتْ ورحلَ معها ذلك البيتُ الذى آوى أحلامى التى خاصَمها الزمن طويلاً. رحلَتْ دون أن تكون أنثى.. نشأتْ.. وكبُرتْ.. وأينَعتْ ورودُها.. وحين أينعت ثمارُها قَطفَها الزواجُ والأمومة والتضحية والبيت والمسؤولية، لتُمتَصّ كاملُ أوصاف الأنوثة.. ويظلَّ الدلالُ انزياحاً بليغاً بعيداً عن مراميها.

حين أذكرها.. وأذكرِ أنوثةً استعجلتْ جسدى مواعيدَ تفتُّقه، أعى الشيء الكثير مما كان غائباً عن إدراكى فى ذلك اليوم الهارب.. لم تكن أمِّى أنثى كاملة أوصاف الأنوثة لترأف ببراعِمى الغضَّة.. لم تكن تعى جسَدَها أو ذاتَها أو وجودَها خارج ضوابط الأسرة والعائلة والقبيلة والعشيرة والمجتمع.. شرفٌ وعرضٌ ينتقل من وصاية إلى أخرى.. من حامٍ إلى آخر.. من بيتٍ إلى بيت.. من رجلٍ إلى رجل. وحين تشارَك أبناؤها حماية عرضِها، كنتُ أنا ذلك الشّرف المرصود للعار إن لم يحسنوا صونَه.. وقد كانوا على بيِّنة من مسؤولياتهم وعلى قدر عزائمها.

أبو زكريا لم يتركنى لأبلُغ "تطوان" يوم جنازتها قبل صلاة العصر كى أودعها. لم يرأف بغربتى ليسدِّد دربَ يُتمى نحو تطوان قبل أن يحملوا نعشَها خارج البيت، ليصلّوا عليها صلاة الجنازة. كان يعلم مثلما يعلمُ كلُّ التِّطاوْنِيين من أهل المدينة أو ساكنتها أنّ موعد صلاة الجنازة والدفن إنما يتِمَّان عصرَ اليوم.. وأنّ الموتَ فى بيوتِنا إن دخلها باكِراً لا ينام الفقيد إلا فى قبره.. لكنّه لم يكن معنِياً بغير ليله يتوسَّدُ فيه جسدي، ليكتملَ يومُه ونومُه وشخيرُه.

حين وصلتُ بيتَنا بشارع "الوَحدة" صبيحة الغد، كان قبرُها الندىّ قد صالح التراب الذى أهيلَ على كفَنِها. وكان نعشُ زيجتى قد تاخَمَ قبرَه كذلك فى دواخلى. كان صعباً علىّ أن أثق فى جواره أو أن أطمئن إلى ظلّه. لم تسعفنى أيامى معه بغير النَّهش والنهش.. حرمانٌ على شفا استهلاك. يمضى يومى مفرَغاً من كلِّ معنى.. كنتُ مثل كرسى تركه أصحابه فى صمتِه العبثى يوماً كاملاً داخل مستودعٍ ضيِّق لا يرى نور الشمس.. نوافذه محكمةُ الإغلاق.. والحديدُ على أحرُفها يوغِلُ. بمكرِ حدّادٍ أتقنَ الصّهرَ والنفخ والتبريد . فى الخوف والتخويف.. وبابه يقفُ وحيداً يتحدّى صبرَ السّجينة ليكافِأ خبثَ السّجان.. وحين يفتحون بابَ المستودَع ليلاً، عليه ذلك الكرسى أن يكون سعيداً وهم يتناوبونَ على اعتلاء شجنه وقهره وصمتِه البئيس.

حين انقطعت به أسباب الرزق فى مدينة "أصيلة"، مثل كلّ الباعة المتجولّين الذى يفترشون الأرض ببضاعتهم الزهيدة ناداه أصهاره، إخوتى، إلى الاحتماء بظلّهم. اكترى بيتاً صغيراً يقع فى أعلى "الرِّينْكُون" وسجبنى، أنا ذلك الكرسى، خلفه دون أن يعلِمنى بشىء أو يطلِعَنى على ما كان له فى "أصيلة" وما سينقله إلى "الرِّينْكُون".

بعد كلّ ذلك نعتتنى بالأرض البور التى لم تُنعِم عليه بالخَلَف الذى ينشُده، رغم جهاده المتواصل فى حرثِها طوال سنتين اثنتين. ورمى فى وجهى آخر حقوقِه جملةً واحدةً لم يكرِّرها، ثم سافرَ ليتركنى أغادر حياته بمفردي. دخَلَ فى ذلك البيت نفسه الذى سجننى خلف بابه طيلة ستّة أشهر بزوجه الجديدة، قد تكون الثالثة أو الرابعة أو.. ، لم تعد تهُمنى حكاياته

وسيره.. لقد خطبها قبل أن يطلِّقني، وعقَدَ عليها قبل أن أتوصلَّ بوثيقة طلاقي. ليس لأنه لا يريد أن يجمع في الوقت نفسه بين كل أزواجه، وإنما لأنه حين يطلِّق السابقة يحلو له وجه اللاحقة.. ويخلو له الليل لحرثها دون ضجيج أو تنغيص.. ويخلو له البيت الذى لا يملك أن يكترى غيره للانفراد بمتعه بعيداً عن عينى أيٍّ متلصِّصة.

ماريا فتحتْ قلبها وبيتها وابتسامتها لعناقي. حمتْنى دون حساب من جهالة إخوتى ومن تسلُّطِهم، إرضاءً لفاتنِهِم أبى زكريا. كان منتهى رغبتهم أن يكتروا له بيتاً ثانياً يمكِنه إيوائى تحت لوائه من جديد، ليخلو البيت الآخر له ولزوجه الثانية. كم كانوا عطوفين عليه.. عليّ.. على خوفِهم من أختهم المطلَّقة.. على عرضهم المرصود للإثم المضاعف.. امرأةٌ ومطلَّقةٌ.. شتيمتان لا يستوعبُهما إلا لفظ ينطِقُ عن فحولة واهمة.

حين تجوّلتُ فى تلك الأيام بين جوانب مدينتى التى لم تعد تشبه مدينتي، كنتُ أغْزُو الدروب الظّليلة والأبواب المجيدة والأقواس الواطئة.. أغُوص فى أزقة المدينة العتيقة وأستجْدِى عطر التاريخ بين أفيائها.. أغتسِلُ بطعْم الجير الأبيض وفيض أنسامه يسكُن كلَّ حواسي.. وبامتداد الرطوبة الذى يترُك للحجر لوناً وعطراً يدركُه أنفى قبل عينيّ. ذاكرتى كانت تخون الحاضر.. حاضرى حينها. كنتُ متخَمَةً بمدينة أخرى تحيا داخلى منذ طفولتى الغابرة...

حلوى اجْبَالَة بساحة "الفَدَّان" والنّحل يطاردُ رائحتَها الحلوة المغدقة فى رحيق عسلٍ آخر... "الفَدَّان".. "الفدَّان".. ذلك الذى كان، ذلك الذى ما يزال يسكُن ذاكرتى.. وليس هذا الماثل أمام عينىّ فى خيانةٍ وقحةٍ لتاريخِه وتاريخ المدينة.. وتاريخى.

حبّات الكاوكاو المحمية داخل قشورها السميكة فوق العربات فى "باب النوادر" و"العيون" و"باب التُّوت". وأكوازُ الذرة على الجمرات تلتهِبُ فى كلِّ المنعطفات فيصدُر للهيبِ صدى جوعٍ وسُكْرَ خياشيم.

تداخلُ مغوٍ لأطايب عديدة تباعُ هنا وهناك.. تمتزج على أنْفِ الطفلة التى كُنْتُها يوماً فى تحدٍّ أحسَنَ تدريبَه، فتميِّزين المكان وعيناك مغمضتان.. وحده أنفُكِ كانَ يمكنُه أن يقودَك فى خريطة المدينة التى رسمتِها طفلةً على وقعِ أنفاسكِ ورجْعِ الشهيق والزفير..

روائح تغمر الأنف تعلمك بأنك هناك.. لكنك تعرفين فى عمق الحنين أن تلك الروائح ليس لها وجود خارج ذاكرتكِ المفعمة بالطفولة. لم تعُدْ للمكان الذى تذكرينه وأنتِ طفلة من ذلك الزمن المقابِلاتُ الحسيّة التى تضعينها له. قد تغيّرت الأشياء مثلما تغيّرت الروائح وأنفاس الحياة. وما زلت تكدسّين كلَّ ذلك فى دواخلك، وتصرّين على حملِه معك إلى كل مكان تنتقلين إليه. تقاطُعات الأمكنة والأزمنة فى ذاكرتك تمعن فى خداعك كثيراً، فتغيب عن عينيك الحدود والتفاصيل لتحلّ محلّها تفاصيل وحدود زمن آخر لا يمكن أن يعود.

الورقة الخامسة

كان يوصلني إلى سماوات صافيّة، إلى قطوف المتعة ونحن نشاهد برنامج المساء على شاشة التلفاز. كان يكفيه أن أترك له يدي بين يديه يلاعبها ليغرقني في مدٍّ وجزر لا سواحل لهما. يداعب كل أصبع بمفرده ويمعن في تقبيله برقّة حارقة.. يدور في فلك راحتي مثل العابد الخاشع. يتسللُّ ببطء متعمّد صعوداً إلى كتفي التي يحلو له أنْ يراها عارية في كلِّ وقت. وأتعمّدُ أن تظلَّ عينيّ على الشاشة لإرباكه. لكنه لا يهتَم.. يعرفُ أنّه قد ارتكَبَ إرباكي من صوت أنفاسي المتثاقلة. ويعرِفُ أنّني قد غصتُ في اللُّجَج التي تسكنني بمجرَّد أن قدحَني زنادُ حبِّه. حين أستدير لأقابل عينيه بعيني العاشقتين يغمرني بدفء ذراعه دون أن يفلت يدي. ويواصل حكي يده ليدي دون توقف، إلى أن تهتدي أذني إلى صوته يغمرني بلهيب آخر. كم تتشدُّ أذنيّ بانخطاف إلى صوته الهامس. كم للشَّبق من مفاتيح سريّة لا يتقِنُ ستنَتَها سوى الحبّ مترَعاً بالشوق الجارف.

لم أكن أعي ما يدور حولي، وأنا أعبُّ شهيقي وأصدِر زفيري على إيقاع أنامله الرشيقة، حين كان يحملني بين ذراعيه امرأةً مكتَمِلة الأنوثة منتشيةً بالحب فاقدة القدرة على التيقظ، والخدرُ اللذيذ يسْري في كل أوصالي. أدرك وهو يضعني على سرير الحب المشتَهى أن عينيّ الأُخرَيَيْن المعلَّقتين فوق سريرنا المشترك، تتابعانِ من علٍ بحياد اللوحة أفراحَ الوصال التي نرتكبها بمتعة وأوصال الفرح الذي نقترفه بافتتان.

كان الفرحُ يتَّقِدُ على وشي أنامله لصوامِت جسدي. وتتفجَّرُ باسم الحبّ كلُّ الينابيع الغافية. ما كان لي أنْ أدرك أنَّ لي كل ذلك الرصيد المدَّخَر على

حواشى الجنون.. على تخوم الابتهال.. على مدارِج التبتُّل.. وكأنَّ صوتَ الجسدِ قد تعتَّق عميقاً.. عميقاً فى مجاهِلِ سحيقة.. فى الانتظار.. لأرتَشِفَ سكرات خمرَتِهِ حتى الثمالة الآن.

كان ينحتُنى فى كلِّ مرّة بوصالِه من جديد.. كان ينحتُنى شعلةً لم أعرف قدر انصهارَها من قبلُ. وكنت أتيه فى عمق براكين تفور بها دواخلى التى أكتشفها لأول مرّة.. ويُغلِق الذهولُ عليّ مدارَه، ولا أفلحُ فى إخفائه.. منْ أين لى كلّ ذلك الفرح الذى يتفتَّق كالشّلال الهادر يحملُنى إلى ضفاف بعيدة، كانت للحُلمِ الذى لم أرسُمه فى طفولتي.. للحلمِ الذى لم تسعْهُ عيونى وهى تلاحق رفيفَ العُمر المشتَهى.. للحُلمِ الذى لم تَصُغه لياليَ السّادرة فى عشقِ الصّباح..

كنتُ أخلَعُ جسدى قُبلةً قُبلةً. وأتعرَّى أمام عينيه المنتشِيَتَيْن وردةً لا تخجلُ من أوراقها المتساقطة على منحنيات الغواية.. وأرتدى جسده لمسةً لمسة. وألتَحِفُه غطاءً لعُريى شُجيرةً تستعيد الحياة على دبيب الربيع يزهِر فى عروقِها.. وأقطِفُ انتشاءه قضْمةً قضمة. ونلتهمُ الفرح تفاحةً نرسُم معاً غواياتها بكلِّ الألوان.. مرايانا المتقابلة المتلاحِمة لم تكن تنحني.. لم تكن تخجل.. لم تكن تترك لنا فسحةً لدهشة الانعكاس. كانت عيناه زادى وعينيّ ملاذه بين الشهيق والزفير.. الدفء الذى يغدقِه والحب الذى نغترفُه ينبوعٌ يتدفَّق فى كلِّ حرف نشدو به همساً أو صراخاً.. والسرير يغتسلُ بفوضانا التى لا تكترثُ فى كلِّ بدايةٍ بالبدء من جديد.. انتفاضاً إثر انتفاض كانت فوضانا تتعَبُ ممدَّدة على السرير.. دون أن يتعب منّا الجسد المنتفض والروح المحلِّقة.. اكتمالُنا لا يترُكُ لنا متنفّساً لفضِّ الروح عن اشتباك

الجسد.. يتناغَمان.. يتلاحمان.. يتّحِدان.. لوحتُنا ترسُمُنا بكلِّ الألوان والأشكال والأحجام والأضواء والظلال.. رقصاتنا المبتَكَرة فوق ذلك السرير لم يكن إيقاعها يتكرَّر أو يتشابه.. نقتَرِف فى كلِّ رقصة حلبةً جديدة وسوناتة جديدة. الحركات الأربع لازمة، من اعتدال الألِغْرُو إلى بطء الأنْدَنْتِي، إلى خفّة المِينِيوِى المَرِحة، إلى سرعة الرُّونْدُو الفائقة. لكنّنا لا نرتّبها إلا مثلما ترتضيها أناقةُ الميلودى ونزقُ الهارموني.. أما عيناى فى اللوحة فتطلان على التحامنا بمكرٍ وخشوع.

رقصاتُنا فوق ذلك السرير لم تكن تكرِّر إيقاعَها.. وحين كنّا نفارقُه بحثاً عن مغامرة لا يُبِيحها اتِّساقُ أضلُعِه وانتظامُ أعمِدته بكثير من الانسجام، لم يكن يعبَأُ لخياناتنا المبيِّتة لوضعياتٍ لا تلائم حُسنَ سيرته وسلوكه. العواصفُ كنّا نشعِلها فوق بروده، ونمضى بكامل حرارة الشّبق لنتركُها تقتاتُ على أطرافنا الملتهِبة. أمّا العطرُ الذى كنّا نسكُبُه بفائض الحب وانتشاء الزَّهر يتقطَّر، فكان بعضَ انصهارِنا.

وكأنّ أسماءنا كانت تهتِفُ أغنية عشق كانت لنا قبل أن نلتقي. وكأنّنا كنَّا لنا قبل أن يكونَ كلٌّ منّا لنفسِه. وكأنَّ الحبَّ كانَ لنا على مفتَرَق طرُقٍ تاهتْ برِحلتنا.. وكان عليَّ بمفردى عزلاء من كلّ أسلِحة القبيلة أنْ أسحَبَ آخر تذكرة للوصول فى الأخير.. متأخِّرة.. مستعجِلةً.. ذاهلةً.. سفرتى كانت تاريخَ ولوجى الحياة فى محطةٍ لم تكن لى فى مراسيم الحياة التى اختاروها لى ذات نشأة. لكننى اخترتُها تلك المحطة النائية.. أردتها.. أمعنتُ فى الإقدام نحوها.. لم أكن أعلم ماذا ينتظرنى عند الوصول إلى آخر مبانِيها.. لكننى كنت أريد أن أصل.. ما بعد الوصول لم يكن يستفزُّ أفكارى كثيراً..

عُمْرُ مرَّ مثل عابرِ سبيلٍ ضال.. فهل أكترثُ إن ضيَّعت أياما أخرى ستمضى على إيقاع يفارق الرتابة المعهودة؟.. عُمرٌ فارقنا دون اهتداء قبلَ أنْ يتفتَّقُ بيننا السلامُ.. لكنّه تفتَّق أخيراً.

أكان ينتظرُنى ليحيا أخيراً.. أكنتُ أُقبِلُ عليه لأقْبِلَنى ختاماً.. لأتصالَحَ مع كلِّى وأصادِقَ أجزائي. كلُّ المسالِكِ التى عبرْناها فى غفلةٍ منّا كانت تفضى إلى تيهنا.. لنهتدى أخيراً إلينا.. لنلتقى.

كان يكفيه أن أكون بقربه ليدرك أنّه يحيا بالفعل.. كان يكفيه أن أحتضن حبَّه بقلبي، ليكتمل وجودُه فى حياة كان يمارسها قبلى بكامل اللامبالاة.. كان يكفيه أن أحبَّه ليلتمس من ضعفى قوَّته، وليستمتع بضعفٍ يرتَشِفه حين قوَّتى.

وكان يكفينى أن ينظر إلىّ بعينيه الصّافيتين لتكتَمِل حروفى، وكأنَّ أبجديتى المتناثرة فى كلِّ السنوات الماضية كانتْ سفِراً مرصوداً للضياع إن لم تقرأها عيناه.. كان يكفينى أن أُرانى فى مرآة رجولته الصّارخة ليرتدى جسدى أنوثته المغبونة بإفراط الفتنة وإسراف الغواية.. أكتملُ.. وأزهو.. أصبِحُ أنا.. الإنسانُ.. الأنثى.. الفاتنة.. المعشوقة.. البهية.. الأميرة.. المَلاك...

أصبحُ أناَ الكاملة.. أنا الأصل..

أصبحُ أنـا.

باذخةٌ هى الحياة حين تخبِّئُ لنا فى معاطفِ أحزانِنا ما يكفى من مناديلَ لتجفيف الدّمع المنساب. تخدعنا بمكرها الملتَبِس.. ونصدِّقها لفرط وجعنا البئيس.. نئِّن تحت سطوتِها باستسلام.. ونحن نتأوّه ألَمَنا الأخير، نَبتَهل أن

يغسلِنا من كلّ الآلام المحتمَلة.. أنْ يكون خاتِمة الأحزان المنتظرَة. لكنها، وهى الماكرة، تملأ جيوبَ معاطف أحزاننا بالمزيد من المناديل كى نغرَق أكثر وأكثر وأكثر.. ونكفُر بكل قواميس الفرح ومداخِل البهجة.. نقطع شكوكَنا بيقين لا يقبَل المراجعة: "ألمٌ هى الحياة.. والأمل احتضارٌ آخر".. ونمضى فى دروبها منكِّسى الانتظار.. لا نتوق.. لا نهفو.. لا نحلم.. نعيش وحسب.. نعبُرُ مثل كلّ عابرى الجسور الحزينة.. الصامتة.. المعلَّقة بين القطبين لا يلتقيان عبرها، إلا لكى ينفصِلا فيها.. حياةٌ مرسومةٌ على تخوم العيش وحسب.. لا تتوخى أكثر.. ولا تطمح إلى أكثر.. لا تفكِّر فى الآتى إلا على معايير المناديل المخبَّأة.. الجاهزة للَمِّ الدمع المنساب والوجع المسفوح.. ولا تنالُ من الحاضر إلا ما يُذْكى ورطةَ الشبِّاك المنصوب للالتقاط الحزن.

تخدعنا تلك الحياة بمكرها الملتَبِس، وهى تُفيضُ علينا أثوابَها المنتقاة على مقاييس الوجع الذى سيأتى عمّا قريب.

ونلتقى بعد الموعد بشهقة وانكسار المحطات التى لم نزُرها. ونلتقى بدفء جليد لم يشتعل، نلتقى بعد سُباتٍ طالَ عمراً، وما استوى لفصوله ربيعٌ آخر.

أيمطِر الليلُ بعضَ الوردِ قبل الرحيل؟
أيغفر الصُّبحُ للسواد كلّ ذلك الإرخاء؟
لم يكن اليقين مخادعاً.. لم يكن الشك زائفاً.
.. ولم يكن الحبّ وهْمَ سراب.
آه عزيز.. لم تكن الحياةُ قبل كلٍّ ما بيننا الآن حياةً.

لم أكن أحيا فى كل السنوات التى مضت على وقع الحوافِر.. والحوافِر.. والحوافر.

لم أكن أنا.. كنتُهم جميعاً أولئك الذين كانوا يحكِمون وِثاقي.. ولم أكن أنا.

واكتشف أنّ الاستسلام لم يكن سلاماً.. كان عبئاً ثقيلاً.

وأكتشِف أنّ أعرافَ القبيلة لم تكن التزاماً.. كانت قيداً قاتِلاً.

كم من أوهام تغذّى بؤسَ الأرواح. كم من أضغاث أحلام تسكُنُ الأفراحَ المسروقة من قبضة زمنٍ مارق.

لكن من ييالى، فى آخر المطاف، بمشاق الرحلة حين يعقد الفرحُ للوصول حضنَ اللهفة..

حين طرقتُ باب شقَة عزيز بوسط إشبيلية صبيحة ذلك الأحد قبل خمس سنوات، لم أكن مهدية. ولم تكن هى التى ترنُّ جرس اللهفة والشوق بكلّ تلك الثقة المرصودة لاقتناص الفرح.. لم تكن مهدية تمتلك كلّ تلك الجرأة لتكون تلك الثلاثينية المطلّقة تغتَرِفُ بقبضتها أولّ رشفة على حواشى الزمن.. تسعى بكل ذلك التوثُّب الذى استدرجَ تلك الإسبانية البهيّة التى لم تفارق "تطوان" إلا فى مناسبات معدودة، إلى الجرى خلف سفر لا تطمع فيه ولا ترجو منه سوى السلامَ لروح مهدية.

كانت قد تجاوزتْ الستين سنة وتواصلُ العطاء بنور المحبة التى لا تروم غيرها. احتوت كلَّ أحزان مهدية، وأهدتْها فى الأخير بطاقة السفر نحو عمرٍ آخر لن يشبِه فى شىء كلّ العمر المنصرم. كانت تدرك شكوكَ مهدية الكثيرة.. كانت تعلم مخاوفها التى لا تنتهى.. وهواجسها التى لا تكلّ.. كانت تعلم الضعف الذى كبُر فيها.. والاستكانة التى عشّشَت فى دواخلها.. لكنها كانت تلمسُ نار الحب التى لم تفتُر ولم تنل منها السنوات غيضاً.

كانت ترى أنّ تلك الصبية الجميلة التى اغتسلت من فيض عابر سبيلٍ التقتْه مصادفة مرّةً واحدةً على أبواب المدرسة الوطنية للفنون الجميلة، قد كبرَتْ وما نستْ العابرَ الجميل الذى قطفَ خلسةً لبَّها.

ماريا حكيمة ولها بصيرة نافذة، وحدها كانت تمتلك اليقين والشكوكُ تُغرقنى. وحدها لم تكن ترتاب.. كانت تحثنى على السفر، وهى تقطعُ ظنّى بوثُوقِها. وحدها كانت ترى أنّ عزيز الذى يعيش وحيداً فى شقّته الجديدة الصغيرة بإشبيلية كان ينتظرنى. ميغيل، حين نقلَ لها أخبار عزيز، أخبرها بأنّه لم يتزوّج وانّه منذ سنوات يعيش بمفرده. أوْعزتْ إلى كثيراً أن أثقَ فى بصيرتها التى قلَّ ما تخطئ.. ألحَّتْ عليَّ كثيراً أنْ أنصتَ لصوتِ قلبى وأنْ أنسى ما دونَه.. ومَنْ دونَه.. لم تؤلِّبْنى ضد أحدٍ، ولم تدفعنى للومِ أحد. كانت تدعونى إلى تصفية نفسى قدرَ إمكانى لتسلَمَ روحى من عطب الأحقاد. كانت تحمِلُنى دون أن تقصِد، على التفكير ملِيّاً فيما قد يستطيعُه أبو زكريا وإخوتى إن تمكّنوا من الوصول إليَّ.

لم تكن أمّاً لى وحسب.. وما أظنُّ أمّي، رحمها الله، كانت لتنصِفنى بأنوثتها المعطوبة.. ما كانت لتُنصِفنى أنا ابنتها بضعَةُ رحِمِها لأنها ما اعتادتْ أنْ تمتلِكَ الحقَّ فى حضور رجلٍ، ولو كان ابنها الحازم أو صهرها المِزواج. ماريا لم تكنْ أمّاً لى وحسب.. كانت صوتى الآخر الذى لم يرقَ يومها للصدحِ بغبنى الخاص.

أنا كنتُ أفرُّ، وحسب..

لكننى لم أكن أعلمُ منتهى فراري.. لم أكن أعرف كيف فى وسعى أن أهرولَ وأهرولِ، لكى أصِل إلى خطِّ البداية الذى يتوِّجُنى على قيدِ

الحياة أخيراً. ماريا كانت تعرفُ.. وتعرِفُ.. وتعرِف. وما أخطأت بصيرتها أو قلبُها العارِف فى شىء.

حين طرقتُ باب شقَة عزيز بوسط إشبيلية صبيحة ذلك الأحد قبل خمس سنوات، لم أكن مهدية.. كنتُ أنا أنفُض عنِّى مهدية التى نسجوها بخيوط محبَّتِهم القاتلة. كنتُ أنا أزيحُ عن كاهِلى ثقلَ السنينْ التى غلَّفتْ مهديّة بثوب الاستكانة وزىّ الرضوخ.. كنتُ أنا تبحَثُ عنّى.. تريدُنى أنْ أكون أنا أخيراً خالِصة اليقين لذاتى.. صادقة الوفاء لأحلامى.. واثقة الإيمان بقوّتى.

ورنَّ الجرسُ مرةً ثم اثنتين وثلاثاً قبل أن يصدرَ عن الدّاخل صوت يطمئننى. كان خوفُ البداية قد تبخّر فى جوفي. والبللُ الباردُ يغمُر ظهرى.. كان نبضى المختَلّ فى كامل جسدى يخبرنى بأنّ ظهرى العارى من كلّ حماية يبحث عن مأمنِه. لكن الصمت الذى طال فى الداخل أثار مخاوف جديدة..

من أدرانى أنه ينتظرنى فعلاً.. كيف ستسلَمُ لى لحظةُ ثقة قد بالغْتُ فى الاعتداد بجمالِها، دون أن يجرحنى ذلك البابُ حين يُفتَح.. ما الذى سيتلو اللحظة... صوت الخطو يقترب.. أقفالُ الباب تعالَجُ من الداخل.. دفَّة الباب تنسحِبُ قليلاً نحو الداخل.. إنه يقف أمامى متجمِّداً.. ذراعاه المفتوحتان تدعوان لهفتى للارتماء فى حضنِه.. للذوبان فى صلُبِه.. كانت قبضته ما تزالُ ممسكةً بالباب وذراعه الأخرى مُستندة إلى الجدار.. وقفةٌ متصلِّبة.. باردة.. ملامحه مفرَغة من كلّ معنى.. لكنّنى رغم ذلك كنت أبتَسم.. كنتُ أبتسم لأنه أمامى أخيراً.. إنّه هو.. لم يعد يافِعاً مثلما أذكُر.. لم تعد صورته فى ذاكرتى تنطبقُ عليه.. لكنّه عزيز.. أكثر رجولةً.. أكثر عنفواناً.. أكثر صمتاً.. أكثر غموضاً.. أكثر بُرُوداً....

... ليس بارداً هذا الحضنُ الذي يطوينى أخيراً.. ليست باردة هذه الأنفاس التى تلفَحُنى.. ليست باردة هذه القُبل التى تغمرنى.. ليس بارداً هذا الكون الذى يقتحِمنى..

آه عزيز.. كم تضيعُ أحاسيسى وأنا أحاول أن أستعيد تلك اللحظات. الحروف خائنة بامتياز وهى تدّعى الصّفاء.. لا يمكنها أن ترشَحَ بكلِّ البراكين التى كانت تحرِقنى فى وقفة الباب تلك.. لا يمكنها أن تنفذ إلى شرارات القلب والروح وهى تعطِّلُ كلَّ الحواس لهنيهات دقيقة فى مفاصل الزمن، لتمنحنا فى عمقِها ذواتِنا.

لا يمكن لتلك الحروف الصافية الخائنة، أنْ ترسُم تيْهى يغدو أماناً فى حضنٍ واحدٍ..

لا يمكن لتلك الحروف الصافيّة الخائنة، أنْ تصفَ تصلُّب جسدى يذوب على مقرُبة نفَسٍ واحد..

لا يمكنُ لتلك الحروف الصافية الخائنة، أنْ ترصُد ولادَتى فى مسقط الروح على طعم قبلة واحدة..

حين سحبنى عزيز نحو داخل شقته وأقفل الباب خلفنا.. لم يكن للصمتِ رديف.. لم يكن لجسديْنا وجود خارج التحامنا.. ذلك الالتحام بعنف الحضن الذى يؤجِّجُ قوة كلّ الحواس، وينقلها بغتةً إلى ذروة التردُّد، فى لقاء متردِّد لشفاه تلتَمِسُ طريقها لأول مرّة نحو الوجود...

نهارٌ يشرِقُ فينا، فى مساحةٍ سكنتها الظلمة حتّى لم نعد نتبيَّن أنّها هناك.. فى ذلك الداخل الذى نحتويه.. فى ذلك الداخل الذى نمتلكه.. فى ذلك الداخل الذى نكونُه.. نحنُ أخيراً.. هو وأنا.. أنا وهو.. فى مكانٍ لم يكن لنا

أن نلتَقى فيه التقينا. وفى مكان كان لنا أنْ نلتقى فيه لم نلتقِ.. حياةٌ ماكرة.. وحروف عاجزة.. خائنة.. مهما نشدَت الصّفاء لا تفلَحُ فى احتواء كلِّ ما كان يحدث فى عمق ثانية واحدة من ذلك الزمن المجنون.. الماحق...

والتقينا أخيراً. كان يسيراً أن يضُمّنى وأن أعانِقه.. كان سهلاً أن أضبطَ أنفى على عطر رجولته الذى أفحمني.. كان عفوياً أن يقتلِعنى من الأرض التى أقف عليها، ليزرعنى فى صدره وكتفيه وعينيه.. كان طبيعياً أن تلتحِم روحانا فى دفقةٍ مندفِعة، وأن يتماسكَ جسدانا فى كتلة واحدة لا تنفصل.. لكن ونحنُ نعود إلى السكينة التى أفاضت الحبور على لقائنا لم يعد لارتباكنا حدود.. لم يعد لوجودِنا معابر غيرنا.. لم يعد لعتادِنا أو لسنوات عمرنا السابقة لسانٌ يفصِحُ عن رشدنا.

تيهُ آخر أدركناه على وقع اللغة التى لم تعد مطلقاً طيّعة، فى تلك اللحظات الأولى من لقاء تمَّ على هَدْى عمْرٍ تائه.

الورقة السادسة

«أعيد قراءة فصولك أيتها الرواية كى أكتُبَكِ من جديد فى مواكب الحياة.. كى أوَاصل كتابتك وفق ما ينبغى لرواية مهدية أن تُكتَب.. أعيد قراءة فصولك كى أصلِ مبتدأ الفتنة بقيمة فائدة الافْتتان المُضافَة.. كى أقفلَ دورات السَرد ومدارات الغواية.. كى أحكِمَ وثاقَ اللهفة والشهقة والاحتراق الأخير.

فى النفس أشياء وأشياء لم تسعفها أحرفُكِ أيتها الروايةِ لتنطلق.. لتسيح فوق الورق.. لتُفَيض على الفَقرات بعضَ عبيرها الأبيض.. الشّفاف.. غير المرئى.. وهو يتلوّن.. يرتدى على هوى الفرشاة والحرف كلّ ما يليق به.. كلّ ما يشتهيه.. كلّ ما يهفو إليه.

لكن فى الوسع أحلاماً جديدة ستكتملُ ذات ميلاد.. ذات إزهارٍ.. ذات تورُّدٍ.. ذات إثمار..

وأتوق أخيراً إلى أن لا أكون فِى كلّ أسطُرى المرسومة بحبر الرّوحِ إلا أنا.. أن لا أكون سوايَ.. أن لا أكون قد قَفَوتُ خَطْو دربٍ لم يكن لى.. أتوق إلى أن لا أكون ظلّاً شاحباً للحاضر، وسطوةً ملّحة لذلك الماضى البعيد البعيد».

تلك الليلة لم نَنَم...

ضَنَنّنا بوقت اهتدائِنا أنْ نحجزه للنوم.. حين فارَقَنا التلعثمُ أخيراً وهدأ عنّا ذلك الاكتساح الأهوج لفوضى المشاعر والمَدارك، عُدْنَا إلينا..

عُدنا إلينا مثلما لم نكن فى عُمرٍ حالمٍ، مثلما لم نكن فى عنفوان بخلتِ الأيام علينا بعطاياه.. عُدنا إلينا باندفاعٍ آخرَ لم نعْهَدْه فينا، ولم يكُن لنا من قبل امتلاكُه أو الوعى بقدرتنا على امتلاكه.. عُدنا إلينا مثلما يعود الماء إلى مَجاريه القديمة فى موسم الانهمار، يعرفها دون مواعيدَ مسبقة ودون إشارات موجِّهة، يعود إليها بحنين وتوق وشغف.. واغتسلنا بكل طهر الصّفاء... وكأنَّ السماء انشقتْ بغتةً وقذفتْ دموعها المسكّنة جارفةً كلَّ الصخب بعيداً.. وحلّ بعدها الصَّحوُ.. وكأنّه سيلُ مطرٍ يتسلَّلُ فى ثوانٍ إلى ثنايا الجسد.. كانت دفقةً شبيهةً بزخّات سماء تطوان المطرة.. سماءُ "تطوانَ" التى أذكرها لشتاء مضى ويذكرها عزيز كذلك. لم يكن الشتاء يُخلِف مواعيدَه المكتوبة بكلّ السيول.. يقذفكِ فى لحظة انخطاف داخل الماء والماء والماء..

كانت السماء تفى بوعودها لنا فى حنين كان يسكننا منذ زمن الأجنّة إلى كل ذلك الاغتسال.. إلى كل ذلك الطهر.. إلى كلّ ذلك الصفاء.. سماء تطوان كانت تبيح للعاصفة دوماً أن تكون مطراً يتسلّلُ إلى ثنايا الجسد.. يغمر الروح.. يزيحُ القلب عن هدوئه.. ويحملُ العقل إلى ملكوت آخر.. كان الطين يحنُّ إلى الماء ليعيد تشكيلَ نقائه، فتستجيب السماء.. كم كانت عواصِف الزخاتِ سخيّة.. كم كان الماء شهيّاً.. كم كانت السماء رحيمةً بحبالِنا السريّة تشدُّنا بها إلى الرَّحِمِ الذى لم ننسه.. لأنّنا لم نفارقه.. لأنه مازالَ يستوعب عثراتِ دوراننا فى فلكه.. تطوان ذلك الرحم العذب كم من حنين لمياهك.. لطهرك.. لسخاء سمائك..

وكم من ماء لكل الماء الذى جرفنا تلك الليلة إلى سيوله، ليَرْصفَ قصورَنا الرملية من جديد، ويزيح عن حبات سنابلها كلَّ ما علق بها من

شموس سنين حارقة. كانت الليلة مخاض حلم لم يكن لنا قبل أن يرنّ الجرس للمرة الثالثة، ويحدِث وسط الصمت بعض الصدى، التقطتْه وقفتى الواجفة خلف باب الشقة الأبيض.. وكأنّ ذلك البياض المُسرَجُ فى عتبة الحياد، قد ارتدى الفرحَ على عسل عينيه وهو يفتح الباب بتردّده ووجومه وتصلّبه..

تلك الليلة لم تكن ليلة وحسب.. كانت برزخاً...

... وشاء الحب أن يحملنا إلى ضفاف أخرى، لم يكن فى هَوى أعطابِنا الكثيرة أن نتمناها فى تلك الليلة.. مضينا بجوار كل الأحلام التى اشتهَيْناها، ولم نر الحلم الغافى الذى كان يرافقنا تلك الليلة الموعودة للوصال..

تلك الأيامُ السالِفة الماكرة كانت تضحك لنا، وهى تغمزُ بليلتها التى ادّخرَتْها هدية لى وهبةً لعزيز منذ أكثر من عمر.. كم لدغتْني، وهى تركل عزيمتى مرّة بعد مرّة.. كم كالت لبياض روحى سواداً لم يكن على مقاس الرِّقة التى صنعتْنى ذات ولادة..

كانت الحياة تمكُرُ بى فى كلّ ذلك الماضي.. البعيد.. القريب.. الممتد.. الخاطف.. البسيط.. غير المكتمل.

كانت تمكُر بنا معاً على وقعِ خطانا ولهْف أنفاسنا.. كانت تمكُر بنا معاً دون أن ندْرى أنّ الفرح لا يكتمل إلا والشجنُ يشذِّبُ أفرُعَه.. أنّ الحبور لا يكتمل إلا إنْ صاحبه رفيقُ دربه ونقيضُه الحزن.. كانت تمكرُ بنا معاً.. أنْ دفعتنى أخيراً وأنا فى حضن عزيز.. أو دفعتْنا معاً أخيراً إلى أن نؤمن بأنّ النوايا الطيبة قد تكفى أحياناً لحجبِ شُموس الحياة الساطعة، بسبق

إرادة ومحبّة.. فاقترفْنا نرجسيّة الحبّ، ونحن نحيا بالحبّ.. وكِلْنا للصدق الذى ختَم على قلوبِنا بعضَ الكذب الذى رأيناه يومها أبيضَ ناصعَ البياض، ونراه اليوم بكل ألوان الفرح والأمل.

كانت أعطابنا أثقل من أن ترنو إلى أحمال أخرى. وكان الحب ليلتها يصلُنا من جديد.. يُغدِقُ صفاء سريرته على زوابع نفسيْنا.. يمسِكُ ما تناثَر منّا، ويُلصق ما تبعثرَ..

اكتسحَنا حضورُها تلك الملاك بعد أشهر قليلة، وجعل الأيام ترتدى رغماً عن عشقنا المجنون صخباً آخر لم يكن من قبلُ لنا..

كان الارتباك قد ارتَكَبَنا سلَفاً، ونحن نكتشف أنّ اللقاء بيننا ما كان ليتمّ إلاّ متوَّجاً بحملٍ وأحلام وبعض الآلام. كانت ظلال ذلك الماضى البعيد والقريب واضحة لا تفارق حاضرنا هنا بإشبيلية.

حين وضعوها على صدرى عاريةً لأول مرّة شعرتُ بدفء بشرتِها، رغم أنّها كانت مبتلة وباردة.. أحسستُ بأنّنى أمتلئ بها لأول مرّة بالفعل.. مثلما لم أدرك ذلك الامتلاء وهى تنبض بالحياة داخليْ. كانت صغيرة وهشة.. كانت وردةً لا يُخْلِفُ لونُها وَعْدَ ملمَسِها المخملي.

لم تكن تشبِهُ أحداً، ولم تكن تشبِهُنى.. كنت أظن وهى تتكوّم وسط ظلماتى أنّها ستكُون صورة منّى أو من أبيها، لكنها لا تشبِهنا.. لا تشبِه غير ذاتها.. مرّت مدة طويلة قبل أن أعى تلك الكشوفات بجلاء وأتصالحَ مع الحقيقة، وأبنى فى ضوئها الإحساس الذى أريد له أن يكبرَ فيّ، لكى تتغذّى ملَاكى الجميلة على أفيائِه وهى تنمو.

ليس يسيراً على الأصيص المجروح.. المكسور أنْ يلحَمَ انكسارَه بمفرده بغتةً.. أنْ يربِّتَ على حواشى التُّربة بحزم ويضُمَّها إلى انكساره.. أن يصونَ

انفلاتَها والماءُ يتسلّلُ سريعاً، قبل أن ترتوي من ظمئها على قطراته.. أن يمنعَها من أن تفرَّ بعيداً لكي تظلّ رفقَتَه، وترأف بالبرعم الغافي.. بالبتْلات التي ستزهر.

كنتُ ذاك الأصيص المكسور.. المجروح.. ولم يكن جرحي حبّي الذي لم تتركه لي الأيام صافياً، لم يكن العُمرَ الذي خذل عُمري مرّات ومرّات.. لم يكن جرحي ذلك الماضي الذي لا أملك أن أنساه.. ولا يملكُ أن يمحوني من ذاكرة الألم.. كان جرحي أكبر من كل ذلك..

كنتُ أنا الجُرحَ.. كائناً كان ذلك الجرح يمشي على قدمين..

جمالي.. أنوثتي.. جسدي.. هويتي.. مَنْ أكون.. بعض من النُّدوب التي كان يلزمني أن أقف أمامها عاريةً من تعاليم القبيلة، كي يمكنَني أن أفرِد لمَلَاكي جناحَيَّ دون خذلان.. كان يلزَمُني في أشهر قليلة أنْ أنفضَ عني غبار السنين الطوال بسرعة واستعجال..

ولم يكن الغبار عالِقاً بثيابي أو بملامحي أو ظاهر جسدي. كان الغبار قد نفذَ عميقاً إلى كلّ الخلايا التي تشكّلُني.. إلى الطين الذي ينحَتُني.. إلى الماء الذي يتفتّقُ داخلي.

ميلادُ صغيرتي "تودُّد" كان ميلاداً آخر لي.. لم يكن لي أنْ أحلُم بأنّ لنا أعماراً سنعيشُها على متن العمر الواحد.. كانت كلّ هوامشي في الماضي لا تنفتحُ إلا لتُغلِقَ عليَّ كلّ أبواب الحلم ونوافذه..

لكنّني وأنا أطرق باب اللهفة.. وأنا أرنُّ جرسَ الشوق للمرة الثالثة على إيقاع القلب الذي لا يحتمِلُ المزيد من الخيبات.. كانت كلّ المسالِك تحملُني إلى ذلك الغد الذي كان سيأتي ولم يأتِ في ذلك الماضي الحزين.. كانت

تضعنى فى معترَكِ الحياة التى ظللتُ أتفرّجُ علىّ وأنا أعيشها على هوى غيرى، وأكتفى بالعبور الهادئ دون أن أبصُمَ الكون بسيرة وجودى..

لم أكن أحيا قبل أن أقف بجوار الباب الأبيض، ألوِّنُ بصفاء انفتاحهِ سوادَ كلّ رصيدى السابق..

"عزيز" حبيبى الذى لم يكن لعمرِنا أن نعيشه دون أن تجمعنا من جديد دروبنا.

كانت دروبُنا دوماً متوازية فى مدينتنا تطوان قبل أن تتَقابل فى توازيها ذلك اليوم من الزمن البعيد.. تقابَلتْ متوازيَةً وحسب. وأطلَّ كلٌّ منّا على صورته فى عينيّ رفيقه فى التوازي.. كانت لعبة المرايا واعدةً، لكنها تكسَّرتْ سريعاً دون أن نتقابَل مرّةً ثانية.. وعادت دروبُنا إلى التوازى.

حين حملتُ بين يدى تذكرة عبورى البحرَ الأبيض المتوسط أخيراً، كنت أتجاوز واقعِ التوازى إلى احتمال التقاطُع.. إلى إمكان الاصطدام.. إلى حلم الاندغام.. لم تكن حينها خبرتى فى الهندسة تشفع لى كى أنحرِف عن حساب المسافات المديدة بين نقطتَينْا المعزولتين. لكننى لم أكن أريد لمفترَق الطرق الذى سيجمعنا بإصرار منِّى، أنْ يكون فى الأخير مجرد تقاطُعِ عابِرَيْ ذاكرة.

أعادنى عزيز إلى مرآته بعد سنوات توازٍ دون تقابل.. ورأيتُنى فيها مكتملةً.. بهيَّة.. فاتنة.

كانت تلك أوّل مرة أُرانى فيها فاتنةً.

فى ذلك التقابُل القديم الذى وضعَنا على حواشى اللهفة، وتركنا لسنواتٍ نقتاتُ على سراب الأيام وهو يتبخَّرُ فى كلِّ يومٍ بمزيد من التشفِّى.. لم تكُن الفتنة موضعَ اشتهاء.

بعد تلك المرّة الأولى التى أعلَنَتِ الفِتْنَةُ ولادتى بكاملِ الأنوثة وصفاء الجسد.. بعد رنين الجرس الثالث وفوضى المشاعر ورصْفِ قصور الفرح الملوَّن، كنتُ أفتَحُ لذاتى معابِرِ الغواية كى أجمِّعَ كلّ حواشى القبح التى تسلَّلَتْ إلىَّ على تفاصيل النقص.. وأذروها للنسيان..

وأنا أكتَمِلُ بعزيز كنتُ أكتَمِلُنى كذلك.. كنتُ أعرِفُنى لأول مرّة دون وسائط تحول بينى وبينى.. كنتُ أدرِكُ ذاتى بلا حواشى تملؤنى بغير ما أنا عليه.

لم أعد أُرانى مهدية.. تلك الفتاة التى لا تملك من أمرها سوى الرضوخ والطاعة، والقليل القليل من الحلم..

لم أعُدْها..

رأيْتُنى أخرى.. كان ذلك إنجازى الأوّل بعد كلّ ذلك الهروب والخوف والترقُّب.. وجدْتُنى.. وأنا أجدُ عزيز..

عزيز لم يكن حاجِزاً بينى وبين ذاتى التى وجدْتُها.. عزيزى اكتفى بأن يحبَّنى.. بأن يرانى امرأة للحب.. امرأة تستحق أن تحبَّ بكامل حروف الحب.. عزيز اكتفى بأن يواصل فى الحقيقة حبّاً كان يحياه فى غيابى على وقع طيفِ الماضى الذى كُنْتُه.. كانت اللوحات الكثيرة التى ضاقت بها شقته فسكنَتْ ذلك المبنى الكبير الذى كان يخصِّصُه لرسمه ولرسومه.. تحكى حكايتى التى لم أكن أعلمها، حكايتى التى كان يحياها وحيداً ويحكيها فى إبداعه.

عزيز وهو يفتح أمامى صفحات حبِّه لتلك التى كُنْتُها.. أحبَبْتُها أنا بدورى.

كنتُ دوماً أحبُّني، لكنني لم أكن أعي أنّني في عمق رفضي زيف العالم كنت أفقد تصالحُي مع ذاتي وحسب.

حين أحببْتُني بوعي كامل وإدراك ناضجٍ كانت مرآة عزيز تتويجاً لاكتمال إحساسي بجسدي وبأنوثتي.. أنا كنتُ "أعيِني" داخل جسدي رغم أنّني لم أكن متصالحةً معه.. وحين أحببْتُني بوعي كانت محاولتي السفر بعيداً عن كلِّ ما يعيقُ أن أظلّ على وفاق مع ذاتي..

جسدي كان في الماضي موضعَ شك. ولم يكن لي أنْ أكون ذلك الجسد.. فكيف له أن يكونَني دون أن أكُونَه في تعاليم قبيلتي؟.

أن أمارس جسدي.. أن يكونَني وأنْ أكُونَه، معنى صادَرَتْه قوى المَنْعِ.. جسدي لم يكُن لي. جسدي غير موجود لي.. موجود حصراً له، ذلك الذي سيمتلكني باسم القبيلة وشرائعها وأعرافها.. خارج استهلاكه لي ولجسدي أنا مجرّد عورةٍ بحاجة للسَّتْر.

جسدي كان دوماً الذنبَ الذي لم أقْتَرِفْه. لكنّه كان يكيلُ لي دون أن أدري كلَّ الأوزار، ويتركني في مَعزَلي انْدُبُ أنوثةً لم أخترْها.

وأنوثتي كانت دوماً جرحي.

أكان بإمكاني أن أحبّ مهدية دون عزيز؟؟ لا أدري..

مهدية كانت في ماضي الذاكرة نسخة شاحبة عنّي، أعرفُها لكنها لا تخصُّني.. تلك النسخة التي كوَّمتها مثل ورقةٍ مهملةٍ من فصول حياتي، وتركتها هناك على ضفاف شاطئ "الرِّينْكُون" تبتَلُّ وتبتلُّ.. وتتلاشى في عمق المتوسط.

"تودُّد" ملاكي الذي قدِمَ سريعاً كان حارِس تلك الأنوثة، حامي الجسد، راعيَ صفائي.

أدركْتُ منذ وضعوها على صدرى عاريةً لأول مرَّة أنَّها تَلدُني أنثى مرّةً ثانيـة.. حين شعـرتُ بملمس الورد العَطِر الذي لا يُخْلِفُ لونُه وعْداً اسمه، وعيتُ أنّنى سأكونُ لها مثلما كنتُ أريد أن أكون لعزيز مكتملة الأنوثة والفتنة والبهاء..

فكّرتُ طويلاً فى الستة أشهر التى سبقت الوضع فى قدرتى على تشكيل أنوثَتِها بأنوثتى المعطوبة.. كم يبدو يسيراً أن تلتقى فى جوف الرَّحم الخفىّ هرمونات أُنثَيين.. هى خلايا متشابهة وأنساغٌ متماثلة وصورٌ متلاحِمة، لا يمكن للوضعِ إلا أنْ يزكّى تعاضُدها لصالح كلّ الضمائر المؤنَّثة.. لكن الأمر ليس يسيراً مثلما يبدو.. الوضعُ فورة براكين لم تهدأ.. ولا تهدأ.. ولن تهدأ.

أرى صورتى فى مرآتى الآن صافية بشكل لمّ يكن لها من قبل.. لكننى رغم ذلك لم أمتلك فى رؤيتى لصلتى بذلك الملاك الصفاءَ الذى أنشدُه.

"تودُّد" ليست أنا، وليست أمي، وليست مَمَّا شمس الضحى.. ولا أريد لها أن تكون إحدانا.. لا أريد لها أن تكون أى إحدى.. أريدها أن تكونَ.. أريدُ لها أن تكون "هي".. أن تكون ذاتها.. أن توقِّعَ سيرة وجودها الخاصة.. أن تبصُمَ كينونَتَها دون استنساخ أو تماثل أو تشابه..

أريد لها أن تكون من ستكون دون أن تمتصَّ وهى تتشرَّبُ مياهنا مَنْ كُنّا أو مَنْ نَكُون..

قبل الوضعِ كنت أفكِّر طويلاً فى مدى صعوبة أن يحتويها أصيصى المكسور بكل العناية والحرص الذى تتطلَّبه التنشئة..

الآن أفكِّرُ أكثر.. وأنشغل أكثر.. وأتأمل أكثر.

وستستوي على أربَعِ أثافٍ

الورقة الأولى

لمن نكتُب؟.. ولماذا نكتب؟.. ولماذا كتبوا؟.. ولمن كتبوا؟..

أنا أتساءل بصوت مكتوب، وحسب. لا تنتظروا أن أمنحكم الإجابات الصعبة.

قد سحبوا جميعهم خُطاهم من أمام أعينكم المتفحِّصة. وتواروا خلف سداسياتِهم الورقية. وبقيتُ وحدى مثل ظلٍّ باهت لا يفلِحُ فى التمسك بالشموس الآفلة، ولا يستقيم له مع الأقمار ضوء.

لكن مثلما تظل رائحة زكيِّ العطر أو بليدِه عالقةً بالثياب لأشهر وأشهر، أنتم تحملونَهم معكم حيث فرَرْتُم.. وأنا أغوصُ بين تفاصيلهم نكايةً بضعف نخفيه جميعاً بعيداً عن ملامحنا الجامدة، رغم حرصى على عدم التورّط كثيراً فى شُبهة الانتصار لذاتي. وأغوص فى سطوة الغياب، رغم حرصى على عدم التورط فى شبهةِ قصاصٍ من مَعزِلٍ وُضِعتُ فيه نكايةً بأنفى المحشور فى مدار الرواية.

هى لعبة المرايا التى لا تنتكِسُ بين أحضانها تجاعيدُ الهرم، أو تُذعِنُ انعكاساتُ الجمال. هى المرايا، كم تحمِل تلك الهشّة من أوزار وتختزل من مكرمات. كم تخفى من وجوم، وتستر من دموع.. كم ترمِّم من ابتسامات، وتصطنع من حبور.

نعبر أمامها بضجيجنا، فتُلْقِمنا صمتَها ببرود.. ونمسح على سطحِها ملامحَ أكاذيبنا، فلا ترنو إلينا إلا بالعين التى نشتهى ونريد.. هشّةٌ حدّ الانكسار.. حادّة حدّ الجمود.. محايدة حدّ الانعكاس.. موغلة فى البرود الذى تتقنُه وهى تنتمى إلى امتداد الجدار.

كلُّهم عبروا أمامها، كلُّهم تفحَّصوا قسماتهم فيها.. وتركونا نتلصَّصُ على عبورهم من خلف الجدار الكاشف. كنّا نتأملّ حروفَهم وهى تتناثر عن أرواحهم المثخَنة. وما للهديل غير الهديل فى رجع الصّدى. رابِعُ الجُدران فى الرواية يعزلنا خلفه.. نكتفى بمراقبتهم.. ننصِتُ لما يقولونه ولما لا يقولونه.. نتابعُ ما يفعلونَه وما لا يفعلونَه.. نترك لقسمات أيامهم أن تنقلنا إليهم، ونسلِمُهم اهتمامنا ونحن نقلِّب الصّفحات.. من يروى لِمَن؟ ومن يحكى عن من؟

نقرأ ذواتِنا بين الأحرف، نقلِّبُ حيواتِنا مع الصفحات، ننبش تاريخَنا بين السُّداسيات.. ويمضون بعيداً.

أين هم الآن؟

أين عِمْران وعزيز ومهدية.. فى هذا السطر.. مع اكتمال حروف هذا الاستفهام.. مع نقطة آخر الجملة؟..

لا تتوهّموا كثيراً..

لستُ ناقِض السردِ.. لست ساعى وشاية الحكاية.. لستُ نابِشَ قبر الضمائر الفائتة.

للفتنة أكثر من مهوى، وليس لليل صبحٌ وحيد.. والغَزْلُ لا تستوى فصولُه بغيرِ اللّحْمة والسّدى،

قد أكونِ هو.

قد أكون هى.. بل أنا هُم أجمعين.

لا ترتابوا حين ستغتالُ هُجْنَةُ الضمائر صفاء سريرتي، حين ستستوى أمام دهشتِكم صورى المتعدّدة.. المتداخلة.. الممتدة.. الشاذة.

لستُ ذاتاً واحدة. أنا التعدُّد ذاتُه.. يوماً ما ستعرفون وأنتم تقلِّبون صفحات الرواية بترقُّب أنَّنى لا أمازحكم ولا أخاتلكم، فلا تتسرَّعوا.. لا تستعجِلوا طيّ الأوراق.. زمنُنا فى هذه الرواية ما زال يستحقّ القليل.. القليل من الحياة، فلا تقترفوا الآن بداهة الاستعجال.. ارتكِبوا بدلا عنها بإصرار الكسول سلْمَ الاستسلام.. لن تخون صفاءكم الغوايةُ الموكولة للسرد.. لن يخذِل اندهاشكم الغَزْلُ الذى لم يُكْمِل دوراتِه.

تريَّثوا قليلاً.. لا تجهِزوا باسم اللهفة على أواصر الوفاء.. السرد لا يكشف كل الخيوط دفعةً واحدة.. والرواية لا تروى كلَّ الظمأ دفقةً واحدة.. تلك كانت وعودُ الساقي، ذات شَرَقٍ بنوايا غير مكتملة الامتلاء.

ليس مهمّاً الآن من أكون.. ليس مهماً من تكونون، أنتم المتوغِّلون فى ورطة القراءة.. يكفينى أنْ أعرفَني.. ويكفيكُم أنْ تعرفوا ملمَسَ ما تقلّبونه بأيديكم وبأعينكم وبقلوبكم.

لا تغيِّروا شيئاً.. اقرؤوا، وحسب.

المصائر تظل مغريةً حتى الرّمق الأخير.

والفتنة بطبعها ماحقة.

والاستكانة لا تهتف إلى بِاسم تأجيج الحواس.

والانتشاء لا يقبلُ المكابرة.

اقرؤوا وحسب.. لا احتمال لأن تغيّروا بأيديكم أو بألسنتِكم أو بقلوبكم معروفاً.. فدعونى أتممِ فصولَ ما لا تعرفونه.

«إيلُوهِيم ناثان .. إيلُوهِيم لَكاخ .
الله أعطى .. الله أخذ.

عمْران في البدء كان الأصل، أو هكذا نتوهَّم جميعاً ونحن نتوغَّل شيئاً فشيئاً في لجّة الرواية. لكنه ككل البارعين كان مراوِغاً كبيراً، وكنتُ سليلَ أحرُفه المراوغة. لم يدَع جانباً عُدَّة السّاحر قبل أن يشرَع في اغتراف الحروف. ولم يترك للسرد فرصة أن يغازِل القراءة دون تجميل. كانت عُدّة الساحر زاده ومَدَده حتى آخر نفس. كان يكيل للحبكة كلَّ مفترقات الطُّرقِ وينزوي في رُكنه المكين بعيداً عن عثرات الالتفاف. وكنتُ ألفُّ وحدى كثيراً قبل أن تبين أمام أسطري دروبُ المفاصل الفاخرة. كانت كل الرؤي تتداخل.. تتلاحم.. تتشابك.. فلا أدرك السبيل الأفضل للانعطاف الأبلغ.

كانت الأوراق تتوالى بألق البدايات ودهشة المنتصف وسؤال النهايات. وكان عِمْران لا يتوانى عن تكبيل الحكاية مرَّةً بعد مرّة. لم تكن حيَرة المقاطع تنالُ من وعودِ سردِه محفلاً. لم يكن رحيماً بلهفة مالك بنود القراءة، ولم تأسره الأغصان الرشيقة التي فتنَتْ بأوراقَها كلَّ الضمائر المسترسلة.

كان سادِراً في غيِّ الغواية، لا يلوى في مسبوكِ أحلامه علي أن يهملَ طيَّ الصفحات بضع أوراق، أو أن يمهِلَ مخبوء السرد بعض الفُسَح، أو أن يلهِمَ القارئ بعض الإرواء. كان سادِراً في غيِّ الغواية. ولم أكن سوى المفتون بكل ما كان ينهال أمام سمائه من احتفاءات.

كانت له تطوان مَزاراً. وكانت ودوداً، لكنه لم يكن مجرد زائر. كان الحنين الذى يسكُن ملاعب الطفولة فيه أكبرَ من

تنهدات شجية تنْفَلت من شيْبٍ يزاورِ أيامَه بكل تعب. لم يكن بإمكانه أن ينسى ذاته وهو بين أحضان كل المَزارات التي غمرته بفيضها ذات تخليد وتمجيد. ظل يجول ويجول، حتى حينِ كان يلزم كرسي مكتبه فى الأمسيات والليالى التى نذرت نفسها للعزلة وللوحدة، كان يفارق سكون الداخل ويمضى نحو الانفلات من قيود الزمان والمكان. كان يغرق فى الماضى وهو يرتشف الحاضر على مهل. لم تكن الذاكرة تعْتَق الحنين، ولم يكَن الحنين خالصاً له.. كان معتّقا مضمّخاً بأفياء كانت لآخرين ذهبوا حين تفرّقت بهم سبل الحياة. كانت الذاكرة حين ترمى شباكها على أحرفه تحاصر حاضرهِ بعيداً عن متناول الأسطر، فيعانق دون توجُّس أطيافَ مدينته وملامحها وتقاسيمها. لم يكن يخجل أو يتردّد فى مراودة الأحلام التى كانت والأوهام التي صارت. لم يكن يدّخر جهداً لنسجِ بياضٍ علي مقاس كلّ الألوان. وتفيض حسرة الحكى عن حاملِ اللوحات. لم يترك مبتدأ السرد غُفلاً.. ولم يدّع لخبرِ السارَد فائدة محدّدة. كانت الرواية على هوى فاتنته تتداولُ الحكايةَ مرّات.. مرّات.. وفى كل دفقة تنتاب النّبعَ لا يرتوى الساقي بغير مزيد من ظمأ. كان عمْران يختار الزاوية بدقة متناهية فى التّوْهيم ويسدّد المرامَى، ويوغل صدر السرد بمضادّات النوايا. السرد بدوره لم يكن محايداً مثلما ينبغى، ولم يكن متورّطاً مثلما يبغى. والرواية بين ما كان ينبغى وما كان يبغى كانت تؤجّجُ للمنعطفات كلّ ما يقدُّ قميصَ الحروف من قُبُل ومن دُبـر.

أكـان يصحُّ لكل تلك الفـتنة أن تشـيع وتراودَ الصّمت عن عجزٍ كان له؟؟

عِمران لم يتجاوز صمتـه كثيراً في الأوراق التي كـانت له. وهو لَم يكن صـامـتـا في أصل الكتـابة، فـقـبْـل الرواية كـانت لإبداعـه روايات كـثـيـرة.. وقـبل الكتـابة كـان له مـع غـيـرها مواعيد ومحافل.

لكن مـهـدية كـانت مـحـفـلاً آخـر.. ظلَّ هناك ينتظر لسنوات طويلة. وحين التبست عليه مـفـاصل العـتبـات ترك للسـرد أنْ ينتـقى أكـثر الالتـحـامـات فـوضى. وكـانت للمـداخل انـعكاسـاتُ المرايا المُسْلطة من كل زاوية.

عمران منذ البدء كان يعرف مـا ستحكيه الروايةَ، لكنه لم يكن يعرف كيف سيحكيه. لذلك قد يكون نـادِمَ السـاردَ حينمـا أراد له أن يكون الأثـيـر. ولذلك قد يكون لاعبَه حيثمـا أراد له أن لا يثـيـر الكثـيـر.. هي الأحـرف ذاتـهـا.. كـانت لهمـا.. كـانت الرداءَ ذاتـه.. تارة يشفُّ ليتـمَّ البـيـانُ، وتـارةً يشفُّ ليكتـمل الكتمان.

كـانت كوة الـضوء تطلُّ على عتمـة العالم من وسْعِ العبارة، يشذِّبُ براعِمها بحذق رسّامان أو روائى ورسّام... وتتـعـالى الجـدران جـداراً إثر جـدار. تحـجب وهى تكشـف، وتكشـف وهى تحجب.

عمـران لم يكن يتـقِن التـراجع عن سـقف تفـاوضٍ رسَـمَـه للوحـةِ ألوانهِ بوضـوح. وعـزيز لم يكن هناك عـبـثـاً أو بمحض

ضرورة سردية موغِلة في ترف الانتقاء. وبين اللاعبَيْن كانت القراءة تنتظر، على هوى يدٍ تتصفّح ونبض قلبٍ يرى.

حين أقفل عمران مدار حكيه واكتمل العرجون، بدت لوارِف الأوراق الجديدة منابتُ غير التى كانت. لم تقف الوصية عند مَفْرِق الرواية، بل كانت تُسدلُ لكل الفصول الضفائرَ المحتَملة.

بادر عزيز إلى الكتابة والإحجام خطوةُ قلبِه نحو ماضٍ طوتْه الصفحاتُ بنهمٍ مستعجِل. ما راقته الأحرف التي توغّلت عميقاً فى جراحٍ كانت له قبل التيه.. أو أثناءه وبعده. لكن ما لم يرُقه فى أوراق عمران، أراق كذلك حقّه فى الاعتراض.. فى الرفض.. فى الاختيار.. الأوراق اختلسها عمران عنوةً باسم الإبداع. ما أنصف النسيان وما استطاع أن يتابعِ فصول الرواية التى بدأها.. ما كان يجدي عزيز حينها فى رأب الصّدع الذى اخترقه سوى وصل ما انفصل. وتوالت أسطره تواكب محافل مهدية وتخطّ على هامش المتن صوتَه المنفرد. ما أراد للسيرة أن تستدرجه لرِكابها أو أن تستجديه عطاياها. كان يجانبها قدر إمكان السرد. لكن الذات آسرة، لا ترى نفسها إلاّ عبر الآخرين.. والآخر المبتغى لم يكن غير مهدية.. ومهدية كانت دوماً بعيدة.. بعيدة.

عزيز وهو يتمُّ ما بدأه معلّمه الأكبر لم يتعمَّد أن يجانِب التاريخ المعروف. لكنه لم يكن منشغلا بما يفكّر فيه أو بِما يفكّرُ فيه مثل عمران. بل انشغل فى كل تفصيل بما يدرِكه وبما يدرَك. كان حذراً أكثر مما تقتضيه لعبة الحكى. وكان

على الرواية أن تغمُر الفراغات بنثار الحنين. فالسارد وهو يكتب عن ذلك الماضى الذى خذله، كان أكثر إدراكاً لفخّ الكتابة الذى تورَّط فيه، من إدراك لحظات الماضى الذى يتذكّره.. هو لم يحِد ولو قليلاً عن الامتعاض الذى يرْصف صلتَه بإكمال الرواية. وكأنه كان يأبي أن يسلِم السرد كلَّ الأقفال. وإن ترفَّقَ بمنعطفات الحكاية وتراجع قليلاً نحو الخلف، ليتركَ السرد يغمر الدواخل ببعض الأضواء المُحرجِة، فإنّ الأبوابَ تظلُّ موارَبة وهي تنفتح بشهية متلصِّص مشبوه. كانت الأسرار طيلة الحكى امتيازَه الذى لا يجادلُه فيه مفاوضٌ يجيد حساب المساحات.

لقد تفوّق عمران فى دفع عزيز إلى نيّة السرد.. لكنه لم يحكِم حول النوايا ما يكفى من الروابط. وحين انفلتت الصِّلات التى كان يعقدها عزيز بين ماضٍ مضى وحاضر يحاضِرُ حقَّه فى أن يكون له اليومُ خالصاً دون شريكٍ ينغِّصُ علي ثمارِه سنواتِ العُمر المنسربة، خرجتْ مهدية من ثنايا اللوحة على الجدارَ.. أقْسمتِ الألوانُ يومَها أنَها قد جفَّتْ قبل الزمن بزمن.. ونكثَتْ بوعْدِ أنَّ ما قد راقصتُه فرشاة القلبِ لا يُستعادُ من جديد. عزيز كان صادقاً لمّا اكتشف بعد الرسم والصِّباغة بعُمْر أنّ روح اللوحة لا تحيا مرَّتَينِ مهما عمَّرَتْ. لكنَّ اللوحة لم تكْتف من الرقص بين الأذرع العَديدة التي عانقتْها. سلَّمتْ للحروف كلَّ الحقوق، وأفسحتْ لها بين الظل والضوء كلَّ مراشِق الغواية. كان للكوَّات أكثر من جدار واحد يفتحُ مسارب

ملوّنة لكلّ العتمة التى راوغَتها الرواية طويلاً. لم تكن مهدية وحدها التى ترى ذاتها أخرى.. بل عمران وعزيز بدورهما كانا يعبران بجوار مراياها، فتبينُ للملامح الغائمة قسماتٌ جديدة، غير تلك التى كانت. وتنضاف إلى الحلقات حلقاتٌ أخرى أوسع لا تقفلُ مدارها، وإنما تضيق تارة وتتسع تارة.. تشفُّ مرّة وتقتُم مرة.. تلين حيناً وتصلُب حيناً.

مهدية ليست راوِيةً تُعيد للحكى صوابَه.. لا تغمسِ الأوراق فى وهجها الكاشف، لنميِّز ادعاءات السارد من مكائد الكاتب.. لا تصلِحُ الأعطاب التى كانت، أو تلك التي شغلت المدار لصفحاتِ عديدة بآثامٍ لم يقترفها أحد. مهدية لم يكن فى نيَّة أسرارها أن يَختلس إليها النظرُ متلصِّصٌ هنا أو هناك. كتمتْ ما وسعَها كتمانَه لسنوات.. ليس لأنها لم تكن تمتلك من قبل إمكان البوح وحين انسَدَل أمامها غطاءُ السرد حريراً ناعماً ولوناً فاتناً استدرجَتْها الغواية نحو الانكشاف.. لم تكن تلكَ سذاجة الحكاية وفق ما يبتغيها دهاءُ الكاتب فى لياليه التي لا تكاد تتجاوز المئة.

مهدية ليست لوحة تستغرق الروح والقلب والعقل، فينسى الجسدُ المستَلَب أنّه هناك.. يقف عند مدارج الرِّفعَة فى انتظار حياةٍ لا تُنصف من لا صوتَ لموتِهن.

مهدية كانتَ أوّلاً.

وبعدها نحتَ عزيزِ لوحتها من ورق وألوان زيتية ودفقة عشق صاغتْ وجودَها دون سابق إعلام. كان الكانسون

السميك علي الحاملِ جاهزاً بإسْم لوحة أخرى، لم تمنحها ألوان عمران ما يكفى منَ شهيق. جهّزها بعُدَّته فى انتظار الطلقة الأولي. لكن الحاملَ نذَرَها لولادةٍ لم يكن لعمران يدّ فيها. واستوتْ اللوحة فى يومٍ يانعَةَ دون أن يراها عزيز، ودون أن تعلمَ باحتمالاتها مهدية. عمْران بمفرده اقتنصَ حظّه وافياً من كل ذلك الإبهار.. غلّفه كى لا تتسرّب الفتنةُ بين الأعين العابثة. واحتضنه قريباً من صدره.. ومضى به إلى حيثُ شاء الهوى أن يكون للحكاية ملاذُها الأول. كان السردُ حينها يغزِلُ أوّل الخيوط.. لن يدرك عمران بهاء ذلك الغزْل إلا بعد عشرين سنة، وهو يخلّد ذكرَ العادل ابن الوليد الذى أعاده ثانية إلى ملاذ حكاية مهدية ومسقط قَلْبِ عزيز واستراحة عُمْرِ عمران.

عمران كان يتساءلُ بوجَعٍ فى كل قُبلة يختطفها من بياض قِبْلَته تطوان، أيمكن لمُنَكّس الرأس أنْ يجرأ علىَ حَمْلِ المزيد من الحقيقة العاريّة؟ أيستطيعُ أن يرتَديها فوقٍ أقنعة كل تلك الأزياء الزّائفة التى تلتبِسُ بالجسدِ دونِ أن يلبَسها؟. كان يرى بإمعانٍ يستبقِ الشيخوخة بشبابٍ مكتَهل وهو يجاهد الكتابةَ أوزارَها، أنّ الحياة بدورها تخونُ الإنسان حين تواصِلُه بإخلاص. لكنه كان يتسامى فى كثير من الأحيان عن المُدركَات لكي يحيا. ويحيا تلك المدرَكات لاحقاً أو سابقاً، بتعبٍ كى يتسامى. وكأنّ الأمر سيْل أحَمالٍ لا عدَّ لمنتهاها، ولا رجاء فى نقْلِها، ولا مفرّ من تجشّمِ مشقّة

حملْها. لكن في عزلة العزلة على بساطِ الرِّيح لا يُخفى هديلُ الحمام شوقَه إلى الحبيب الأول.. إلى البيت الأول.. إلى مطلعِ حيرة الوُجود قبل أن تلتَقِمَ العينانِ التّائهتان أوّل صورة».

مثل كلّ العَابرِين فوق الجسور الوحيدة الحزينة المعلّقة بين القُطبين اللذين لا يلتقيان عبْرها إلا لانفصالِهما فيها، عبَرُوا ونَعبُرُ جميعاً معهم.. خلفهم.. أمامهم. تلك حكاياتهم ترويهِم.. ولنا جميعاً حكاياتُنا، من سيرويها ويروينا إذ يرويها؟

لا تسألونى ثانيةً من أكُون. أنا بعضُ الحكاية.. أنا بعدَ الحكاية.. أنا قدْ أكُون من أكُون.. أنا الإنسان، فلا تهتموا كثيراً.. فى الجعبة ما زال بعضُ القليل الكثير.

قد يكون الشغف وحَّد دروبَهم بأسماء مختلفة. قد يكون العناء وسَم جباهَهم قبل الولادة الأولى. قد يكون الوجعُ رسَمَ قَسَمَاتِهم قبل الزفير المتعثِّر ذات سفَرٍ. قد تكون المصائر إنّما تفرَّقت بكلِّ ذلك الاندفاع والحسْم، لأنّ كل فِعل يمتلك بالإجبار ردَّ فعلٍ مساوٍ فى القوة معارضٍ فى الاتجاه.

كانوا يقولون إنّ المرايا العارية لا تتجمَّلُ حين تتقابل، وتجمَّلوا جَهْد إيمانهم بمنعطفات الرواية...

كانوا يقولون إنّ الوهمَ عمى زاحف، ونثروا بين الأسطر صُورَهم بكل الألوان، وكالوا لأوهامها واضحاتِ الرّؤى. بعدهم، زحفتِ الأسطرُ من تلقاء بصيرتها...

كانوا يقولون إنّ الضُّعف أمام الحياة دعاءُ حاجَةٍ إلى إلهٍ هو القوى. وما أرادتِ الرواية ضَعفهم ذاك، فضاعفَتِ الدُّعاء وقوَّتِ الحاجة...

الورقة الثانية

«حين دقَّ هاتفُنا على موعد اللهفة بعد منتصف الاندهاش، لم يكن الشوق موصولاً إلى الواقع فى شىء. لم يكن للمعنى وجود غير مواصلة الحياة بأقل الخسائر الواجبة. فالحياة قبل أن يرنَّ جرسُ الباب للمرة الثالثة، كانت ترتَدي أزياء أُخَر لم تكن لنا. والسارد وهو يكشف وجهيْنا عند عتبات السرد الذى لم يطرُقْه لم يمعِن في الاستفاضة كثيراً. ترك الحكاية تنتظرُنا بتوقٍ، لنتمَّ فصولَها ونحنُ نَرفاً بخجل المنعطفات.

بعد رنَّة الجرس الثالثة بدفةِ باب مُشْرَعة، كانت كلُّ الهوامش مفتوحةً أخيراً، لكى لا يظلَّ المتنُ وحده سالماً غانماً. الحياة كانت تدفعنا إلى مرابط الأحلام التى تركناها خلفنَا منذ سنوات عديدة.

لم يكن لقاؤنا بعضاً من وعدٍ لم تُتِح له الشمسُ يوماً أن يرى النور. كان، فضلا عن ذلك، انزياحاً بليغاً عن كلِّ الاستعارات المتداولة باسم الألفة والاعتياد. كانَ وصلاً لروابط جمَعَتْنا دون أن ندركها أو ندرِك وصْلَها. كان قدَرَنا، دون أن ندرك الرواية التى ستضعنا طوعَ كل الأهواء المستترة وتخبِّئُ لوصالنا كل هذا الانكشاف.

حينَ سحبنى الكاتبَ موشى عمْران من خبايا ذاكرته الملفوفة بالأسرار والمكائد، لم أكَن أعلمُ ما يكيلُه لى فى خلوةِ السَّرد من احتمالات الرواية. عندما علمتُ كانت الحكاية

قد استقلّت بأصواتها تستبقُ الأوراق المتناثرة. تمضى على أهبة الألق لالتقاط طُرُقات جديدة سنسلُكها أو تسلُكنا. وكانت الحياة خارج الحكاية قد وضعتنا أمام متاهات جديدة، لا يملك خيط السرد أن يحيط بكلّ التفافاتها. ضمائرنا المتعددة والمفردة والمتلاحمة والمتمايزة وحدها تقدر علي إظهار ما استَتَر. وتظل للأسرار مَداخلُها التى لا تنكشف.

أكنتُ أنا تلك التى كان يحكى عنها.. أكنتُ مهديَة فعلاً، وبعد مرآة الحكاية رأيتُنى أخرى؟ أم كنتُ أخري قبل المرآة، وانسابَتْ روحى تصالِحُ بالحروف ماضٍ يخامِرُني ولا أراوغُه؟

تحتَمِلُ كلُ الأوراق مزيدَ حبر، مزيد حكايات، مزيد تلوين. هى صور وأطياف وانعكاسات غير بريئة، لا يراها الجميع من الزاوية نفسها وبالمنظار ذاته، مثلما لا أراها فى زاويتى هاته، بمنظار ذلك الأمس القريب أو بمنظار الأمس البعيد.

لقد كبُرتْ مرآتى، ولم تعد تسَعُهُم جميعاً فى انعكاساتهم المتداخلة. كبُرتْ كثيراً عن زمن تلك الطفولة اللاهية، عن زمن ذلك السرد الأول، عن زمن تلك القراءة الحانية.

أنا الآن لست مهدية الطفلة.

الأنثى التى تسكن المرآة امرأةٌ اكتشفتْ بعد مِرانٍ طويل معنى أن تحبَّ ذاتها أوّلاً. لم تكن قد تعلّمت ذلك مَن قبل. لم يكن الحب فى المعاجِم الكثيرة التى اكتسحت حياتها يفيد فى أى لحظة من لحظات العمر: أحِبى ذاتك أوّلاً كى تحبّى العالم

باتّزان.. كى تحبّيه بامتلاء لا يستجدى عطايا الآخرين. أحبّى ذاتك أوّلاً، كى تكتمِلَ صورتُك فى عينى قلبِك قبل قلوبهم، فى عقلِك قبل عقولهم، فى روحِك قبل أرواحهم. اكتمال صورتك وامتلاء ذاتك بك لن يضعَك فى مرمى انتظار من سيملأ الفراغ داخلك بامتلائه، أو من سيغمُر نقصَك باكتماله.

أقولُها الآن بنبرٍ آخر.. بعشقٍ آخر.. بلهفةٍ مغايرة، لم تسَعْ حصّتي من الحكى سابقاً امتداداتها. أقولُها بشدوٍ فرحٍ لم يكن يحِقُّ لى من قبلُ: أحبّى ذاتك أوّلاً طفلتى.. أحبّيها باندهاش.. بولهٍ.. بانتشاء. بعد أن تحبّيها، سيأتيك العالَمُ طوعاً دون جهدٍ، ساعياً للنهل من ينابيع حبِّك الفيّاضة. سيأتيك لمخالطة اندفاقك باندفاعه، فالماء الصافى يهتِف للماء الزُّلال.. والامتلاء لا يدارى حُمولَه.

أحبّى ذاتك صغيرتى.. أحبّي جسدك.. وعاء روحك.. سكَنك فى الوجود.. مادة مَعْنَاك الوحيدة فى كل الكون.. فأنت أنت بما أنت عليه، وليس بما يراك الآخرون عليه. أحبّى ذاتك، نبضَةَ قلبى، فأنت الأصلُ. أمّا الآخرون فسيرونَك دوماً في مراياهم بأعينهم. ولن يجْديك أن تنتظرى مراياهم لترَى ذاتَك فيها أو لتحبّى انعكاسَك في أعينهم.

أحبّائى فى زمن سابق، وكلُّ خطوط السّرد تعرفُ ذلك ببراعة، بدورهم قد أحبُّونى مثلما رأونى بأعينهم. ما كان حبُّهم صافياً.. وما كُنْتُ تلكَ التى كانوا يرونَها فعلاً. كنت فى أعينهم أتلوّن بحسب ألوانهم المُبصرة أو العمياء.

وحين انغلَق علىّ حبٌّ ذلك الذى سيستُرنى تحت كنفه، وجدتُ نفسى عاريَّةٍ من روحى جسداً لا يملكُ غير الرُّضوخ لمالكه باسم القوامة واستطاعة الباءة. أزال عنِّى منذ اللقاءَ الأول متعمِّداً مَعانى الروح، لأصبِح له وحده وعاءً شاغِراً يفرِغُ فيه فحولَتَه كيفما شاء.

ولم يكن ذلك حبّاً.

ذلك الحب الذى انتظرتُه طويلاً ليكتَمِلَ نقْصى مثلما رأيتُنى فى مراياهم وفى أعينهم، لم يكن لذلك الزوج الذى انتقوه لى على مقاس لباسه ومظهره أن يفهَمَه.

والنقصُ الذى رأيتُه دوماً واسِماً لوجودى فى مراياهم وفي أعينهم، إخوتى وأسرتى والجيران والمجتمع... لم يكن نقصى، بل كان النعت الذى لُقِّنى فى زيِّه منذ ولادتى لأنَّنى ولدتُ أنثى.

حُبُّه لى كان امتلاكاً. كان عنواناً لمتعته.. لرضاه ولرغباته ولأحلامه.. لم يكن الحب فى عرفه وصلاً لروحينِ قد ألَّف بينهما التَّزاوج والسّكن والرحمةَ، بل كان استبدادَ طرف واحد محدَّد بكل الامتيازات.. وليس لى حقّ الاعتراض أو الشكوى أو التبرّم.. لم يكن لى أنا الأنثى أن أريه فى مرآتى رجولتَه المعطوبة.. لم يكن لى أن أريه فى مرآتى كيف كان يقتُل أنوثتى لكى يستمتع بقَضيبه المنتصب.

حين غادرتُ منزله بالرِّينْكون وصوته يتَرَدَّد فى جوفى بتلك الجملة التى أنهت كلَّ ما كان بيننا، رأيتُه فى وجوه

وقامات وأسماء غيره. لم يكن وحيداً في صورته أو صوته أو صفاته. لم يكن مفرداً غريباً وسط المجتمع، بل كان جمعاً تباركه التهليلاتُ وترحِّب بخُطَبِه المجالس. كانت سطوته وسطوة غيره ممن يشبهونه تترك آثارها فى النفوس، وتغيِّر القلوب.

وكانت الحياة تتغيَّر شيئاً فشيئاً، دون أن نلحظ ذلك التغيُّر حتى استوى قائماً.

السارد لم يرصُد ذلك التغيير فى حكاياته السابقة عن مدينتى. لكنَّه يعلَمُ أنَّنى وعيتُه بجلاء قبل ذلك فى خلوتى بمدينة أصيلة. كنت أواصل شكوكَ الطفولة الهائئة بنضجٍ لم يهنأ لى فيه غدٌ كنت أنتظره.

يومى هناك لم يكن يشبه يوم أمّى، رحمَها الله، فى شىء. كانت المقارنة بين اليومين تضعنى أمام عتَبات الانتكاس. أمّي لم يُقفَل عليها الباب بالمفتاح يوماً. لم يوصِد أبي الحاج، رحِمه الله وغفر له، فى وجهها منافذ الوجود. لم يخبِّئها فى عقر داره نهاراً ليستمتِع بها ليلاً. لم يمنعها من الاختلاط بالناس أو بالأسواق أو بالحياة خارج جدران البيت. كانت أبواب بيتنا تظلّ مفتوحةً لكل الجيران والزوار وعابري السُّبل. كانت أمّي تلتمس بمفردها، فى كثير من الأحيان، أشكال الحياة ومواطنها وتفاصيلها فى المدينة.. تغادِر المنزل دون مُرافِق. تقتنى حاجياتها وحاجياتنا ومستلزمات البيت الخفيفة والطارئة، دون توجُّس من بقّال أو جزّار أو خبّاز أو

عامل فُرْنٍ أو بائع أو خيّاط أو صائغ... كان الود يطبع كل التعاملات بانفتاح وطلاقة. كانت تزور الأقرباء والجيران، تشاركهم أفراحهم وأقراحهم، تعود المريض وتلزَم النفساء. تشارك فى جلسات الأقرباء والأحباب، التى تُعقَد للعَجْن وإعداد الحلويات فى استعدادات كانت تستغرق أيّاماً قبل حفلات العرس أو العقيقة. ولم يكن أبى يضيّق عليها فى عناية أو بذل، بل كان يشجعها على الاحتفاء بالناس وإكرامهم ومهاداتهم.

الحياة التى كنت أرقُبها بعينى الطفلة فى زمن سابق قديم معتّق، كانت أقلّ انغلاقاً.. أقلّ تعنُّتاً.. أقلّ سواداً... كان للفرح مكانه بين الناس. كان التواصل بين الجميع يتمّ بيسرٍ دون حواجز أو بؤسٍ موغِل في الصدور. كان الانطلاق أصل الحياة، والتعثُّر عارضٌ لا تَسجُد لالتقاطه حجارةُ الطريق.

يومى بأصيلة أو بالرِّينْكُون لم يكن يَشبِه يوم أمّى. ملامح الحياة بين زمنينا تبدّلت كثيراً. والفضاء الخارجى تبدّلت أوضاعه كذلك.. جولاتى بعد طلاقى بين الشوارع والدروب والأسواق أرتْنى أنّ ما عشته فى بيتى الزوجى كان صورة من حياة جديدة قد بدِأت تشيع فى المدينة، تقتَطِع ملامحِ السكينة لتبثّ معالم الفَزَع.. تجتثُّ مفاصل التسامح، لتروى أشواكَ التشدُّد.. سكنتْ الرهبةُ النفوس، واستوطنَ القلق الأرواح.

كان الباب الذي يقفَل علىّ من خشب، وكان مفتاحه من معدن يمثِّل أمام عينىّ وإن توارى داخل جيب أبى زكريا.

الباب الذى يتأهَّبُ ليُغلَق علينا جميعاً فى المدينة كان من جمود لا سبيل إلى معالجة أقفاله، أو إلى تدارك مفاتيحه.

خلف تلك الأقفال المُحكَمة كان الإقصاء مضاعفاً، يمارَسُ علينا جميعاً فى ذلك المجتمع الذى نبت فجأةً دون إشعار مسبق مكلَّلاً بالسواد فى كل جوانبه ومتونه وهوامشه... انكمَشَت رجولتُهم لتتحوَّل إلي صوتٍ لا يأتيه الباطل من ظاهره أو باطنه، وإلى قضيب قادرٍ على الانتصاب والاستمناء والقذف والإخصاب، دون القدرة على أن تكون لهم فى صدورِهم قلوبٌ يعقِلون بها. وأُلحْقت أنوثتَّنا برحاب الخيام السوداء المتحرِّكة؛ أجسادٌ لا ملامحَ لها ولا دور لها سوى الانقياد وإشباع البطن والفراش والإنجاب.

أمِّي لم تعِش ما عِشْتُه لأنّ أبى كان سليل ثقافة محافظةٍ وفكرٍ سمْح.

أمِّى فى ذلك الماضى الجليل حين كانت تستنِد إلى ظل أبى فرِحَةً تطلب رضاه، لم يكن بإمكانها أن تعلِنَ غيرَ التَّصالُح مع ذاتِها وحياتِها.. كانت الحياة البسيطة المعتادة قد رسمتْ بعناية المجتمَع كلَّ الأدوار وحدَّدت المجالات والانشغالات. فوَّضت للفرح والمرح مساحات شاسعة للمتعة. وجعلت السلام والصّفاء يطفحان خارج الأجساد والقلوب والوجوه والأعين، ليُنعما بالدفء على التعارف والتكامل والتكافل والتعاون والتواصل.

أمّى لم تكن تشكّ.. وكانت تنكر منّى الشكوك التي أظهرتُها فى بدايات طفولتى بشكل عفوى. أحجمتُ بعد صدامات متوالية عن إقحامها فى شكوكى. ليس لأنّها لا تفكّر مثلى، أو لأنها لا تحتمل طاقة الشّك مثلما أحتملها أنا. وإنّما لأن إيمانها بذاتها وحياتها ودورها ووجودها كان مسلّمة لا تقبل أىّ تشكيك فى عرفها. ولم يكن عرفها ذاك ملكها، بل كان عُرْف المجتمع الذى أنجبها وربّاها وشكّل أنوثتها على مقاس ذكورته.

أدركتُ وأنا أنتظر إقبال تَوَدُّد بفرح قلق أنّني لا أنتمي إلي مقاييس ذلك المجتمع.. أو أدركتُ أنّنى قد شرعتُ فى تكسيرها وأنا أراني أخري. أدركتُ بجزءٍ لم أملك يومها مواربته وأنا أستقبل الفرح الذى ارتسم علي وجه الطبيبة وهى تخبرنى بحملى، أنّني لا أرغبُ فى العودة نحو ذلك المجتمع الذى تركته خلفى.. ولا أرغبُ لصغيرتى أن تنشأ في رحابه، أو أن تنشأ فى ظل قوالب ذلك الفكر الذى يكتسح مناحى الحياة هناك في مدن وفى أماكن عديدة.

أمّى لم تكن تعى أنوثتها الأسيرة خلف كلّ القيود التى كانت تحمْيها. لكنّنى وعيتُ قيودها قبل غياب أبى فى ذلك الخميس الأسود. ووعيتُ قيودي بعد غيابه.. فى سنوات قليلة تغيّرت الحياةُ من حولى وتبدّلت الوجوه. إخوتى تغيّروا دون سابق إشعار. فى يومٍ من الأيام انهالت علىّ القيود من كلّ جانب. كنتُ فى المنتصف وحدى، وحلقاتُهم تلفُّنى فى ضيقها وتشدُّدها.. أكانوا يخشون منّى أم يخشون علىّ؟

فى أقل من عشر سنوات لم يعودوا يرونَنى مثلما كانوا من قبل. لم تكن مراياهم صافية النيَّة مثلما كانت من قبل، حين كانت تحكُمها ضوابط المجتمع المألوفة والثابتة.. غدت مراياهم قاتمة.. كان يخالِطها بإسراف ذلك النَّهجُ المستَنْبَت الذى سيضَعُ أبا زكريا ورفاقه قاب قوسين أو أعلى من القادة.. إيلافُهم كان يغيِّر الأشياء والصور والأشكال، فتتبدَّل النفوس والأطباع والرؤى.

فى أقل من عشر سنوات غدت خصلات شعرى التى اعتادوا إطراءها، مصدرَ فتنة قد تشيعُ حيث حلَلْتُ. غدت روائح العرق التى كانوا يتفادَوْنَها من أجسادهم أسلمَ لجسدي وأحفظَ لنفسى من عبق عِطر زكي يغمُرنى، قد يصرِف الرجال عن مرابِط العفة ويستدرِجهم إلى أشراك الغواية. ملابسى المتَّزنة التى كانوا يشيدون بقدرتي علي إبداعها وخياطتها برزانة.. تلك الملابس التى لم تُغرِق يوماً فى عشق الألوان الفاقعة، غدت لافتةً للأعين. وتقاطيعُها التى كانوا يصفونها بالسميكة والفضفاضة، غدت تكشِف ليونةَ الجسد وتشفُّ عن مفاتنه. غدت مغادرتي البيت لقضاء الحاجات الضرورية فى غيابهم الدائم، مبعث انزعاج وخوف ورقابة.

كنتُ كلما ابتعدتُ عنهم بخطوة، أشعُر بأنّنى أقترب من ذاتى بخطوة. لم يكن لوجودى بينهم ليبقينى قريبة من ذاتى. ولم يكن لى أن أكُون ذاتى. لم يكن لى فى عُرفِهم الجديد عقلٌ أو

صوت أو حلم أو جسد أو روح. كنتُ مِلْكاً منسوباً إليهم جميعاً، يتقاسمون الأوزار التى يقترِفُها.

وتتوالى الحكاياتُ عن فلانٍ وفلانة وأهل فلانة وأقرباء فلانٍ. كان خلف كل حكاية رجلٌ يَعْلَقُ بأصله اللَّقبُ، وتلعَقُ الأسماءُ الأخرى ذنوبَ الشجرة. وكان ذنبي أنْ كنتُ الفتاةَ الوحيدة وسط فحولَتِهم التى لا تكتمِلُ إلا خلف الأبواب الموصدة. كنت وحيدة وسط الذكورة الموشكة على الانتصاب باشتهاء مُحرَّم في كلّ وقتٍ وحين. أمّى لم تَكن تملك حينها أن تكون فى صفّى.. أمّى لم تكن تملك غير أن تكون أمّاً لإخوتي، وحسب.

أكنتُ الفتنة تمشى على قدمين، وكانوا هُمْ وغيرُهم ضعفاءَ أمام قوّتى؟

أكانوا يدّعون قوةً لا يملكونها إلا بمنعِ انتصابِ جسدى أمام خيالاتِهِم المغرِقة فى الفحولةَ؟

أكانَ إلغاءُ روحى وتغليفُ جسدى وإقصاءُ وجودى، نيْلاً من أنوثةٍ لا يرغبون لها أن تتنفّس الحياةَ مثلهم، بعيداً عن مخادِعهم؟

غَريب كيف أصبح بإمكانى وأنا أترقّب إقبال تودُّد على أنوثتى، أن أفكرّ فى الأمر بتجرُّد من مهدية من ذاتى التى كانت فى ذلك الماضى البعيد، بتجرُّد من أمّى التى لم تعِ يوماً ما أعيه عنها الآن بتجرُّد من كل تلك الأطياف التى رسمها موشى عِمران، ولوّن معالمِها ساردوه الكثر.

أصبَح بإمكانى بمجرَّد أن أنظر إلي رحمى الممتلئ أن أراني إلى جوار طفلتى أمّاً، وتُتمُّ صفوة خُلوتنا بعيداً عن عينى عزيز الحانيتين، طفلةٌ كنتُها فى زمن سابق. الطفلة تلهو فى صمت تحت ظلال التينة الوحيدة فى بهو ذلك المنزل الذى كان لطفولتى، لتتعلّم منذ أوّل تبرعُمٍ أنَّ عليها أنْ تنزَعَ جسدها عن روحها، وترميه جانباً وتمضى دونَه كي تواصل العيش. وتتعلَّمَ لاحقاً ذات زواج أنَّ عليها أن تنزَع عنها روحَها، وترميها جانباً وتمضى دونها للبحث عن جسد أضاعَتْه سابِقاً. غدا بغتةً أهمَّ ما يملكُه زوجها، ويقفل عليه كلَّ الخزائن.

أتأمّل تودُّد الرضَيع، وتطلُّ علىَّ تلك الطفلة التي كنتُها في زمن سابق. الطفلة تفاوض أمّها لتُجاوِز عتبة ذلك الباب الخشبى الضخم.. أو تراوغِ انشغال أمها وتحكمِ إغلاقَه من الخارجِ، قدر إمكانها مراوغةَ صريره بصمتٍ لم يسعفها يوماً، لتتعلَّمَ أنّ الخوف منها أو عليها واحدٌ لا يكشفُ نواياه.. وأنّ الَجسد عبءٌ لن تستطيع مهما استقوَت بروحِها المحلّقة أنْ تَحْمله. وتتعلَّم أنّ عليها أن تخشى هى الأخرى منها وعلِيها، دونَ أن تصالحِ يومِاً خوفَها، أو أن ترحمَ ذاتَها من كل المرايا المكسورة التى سكنَ إليها وجودُها.

مهدية الطفلة كانت تزور خيالي وتقتحم خواطرى، كلّما فكّرتُ فى غد تودُّد. لم تكن تطرأ على بالَى لتعيدنى إلى طفولتى التى عشتُها بوعى وشكّ، بل لتذكّرنى بأنّنى سأضَعها أنثى.. وتذكّرنى بأنّنى أملك بعيداً عن ذلك المجتمع

الذى فـررتُ منه واجبَ حـمـاية أنوثة طفلتى، لتنمـو كـاملة الحقوق.. بأنّ براعمها الغضّة تنتظر أن أرويها حبّى، لتنشأ روحاً حرَّةً فى جسدٍ مكتملِ. وتذكّرنى بأنّ الحيـاة.. حياتَـنا ليست لنا، إنْ لم نكن نحنُ من يحياها.

الآن والرواية تحمل صوتى بعيداً عنى، بعيداً عن إدراك أصـدائه، تحـمل صـوتى الذى لم يكن لـى هناك فى مـدينتى تطوان، لكنه الآن هنا بإشـبيليـة يحكينى ويحكى عنى، تنقله الرواية دون ادّعاء المرايا بعد أنِ توارى كـثيـراً خلف لعبـة المرايا، ترفعُه عالياً لتتردّدَ الأصداءُ فى كل الآفاق المفتوحة.. الآن، بعد أن رسمتُ لوحتى جليّة القسمات على لوحة لم تكن بيضاء تماماً.. بعد أن شرعتُ فى رسم غَدٍ تودُّد على لوحة بيضاء تماماً.. بعد أنْ صفعتُ أبواب الأمس بهدوء لاستقبال اليوم، سأبتهل...

سأصفو أخيراً..

سأصفُو مثل الطفلةَ تلهو.. سأصفوُ مثلها تماماً..

سأترُك مـوجَ الحيـاَة يداعـبُ قـدمـىَّ.. والشـمسَ تـغـازلني من بعيد.. والريحَ تحمل شدْوى.

... احمنى فحسبُ عزيزى من أشواقِ الوردة».

الورقة الثالثة

«ليس لى أن أري الآن ما لم أره سابقاً.

ليس لأننى أرتدى زيّاً آخر قد لا يناسبنى.. وليس لأننى أقتلع من جوف صوتى نبراً لم يكن لى سابقاً، بل لأننى حين أعيد النظر فى كلّ ما كتب عنّي أجدنى غير مكتمل. صوتي لم يكن واضحاً بما يستحقُّه الصَّدْح.. وأوراقى مهما اكتَمَلت تظل ناقصة. للسرد متاهاته التى لا تكشف منعرجاتها قبل أن يبلغَ الكشفُ أوانَه.. وللسارد نواياه التى لا يترك أصداءَ الحكاية تستبيحُها، وإن تمنَّعَ الحكىُ».

وكأننى لستُ أنا.

وأنّ الرواية قد صنعتْنى على مقاس أحلامها، ومكائد كاتبها التى لم أمتلك القدرة على ممانعتها.. أو كأنَّنى لم أكن السارد الذى اصطفاه موشى عِمران فى البدء ليرتدىَ قِناعَهُ.. كأنَّنى لم أكن أنا فيما مضى من أوراق الساردَ الذى يحكي.

لكنَّنى الآن كذلك لستُ الساردَ الذى يسرد. لستُ أنا الذى يخطّ ويمحو ويرسم، ويعيد بالحرف كتابة ما لم يُكتب. لستُ أنا الذى يمتلك حقَّ القول أو حقّ الامتناع. لستُ الساردَ المتقدِّمَ أو الساردَ المتأخِّر. لستُ من كان يسرُد بحرف اختارَه له الكاتب من خلفِ ستار حاكَ أنسِجتَه.. ولستُ من كان يسرُد بروحه قبل حرفه فصولاً من حياته، ترمى حاضرَه بألمٍ ظلَّ يراوغه دون أن يواجهَه.

«تلك الثنائية التى عشقتها صحبة الفرشاة منذ تآخينا قبل زمن طويل، لا أراها جذابةً بما يكفى.. الظل يشاغب الضوء أكثر من المعتاد، رغم أنّ اللوحة ساطعة بالنور. ينكفئان على بعضِهما لمزيد من التناغم، فتصبحِ الألوان قاتمةَ الحضور. وتنسحبُ الظلالُ بقوة السرد شيئاً فشيئاً على كلِّ الرواية.

أكُنْتُ أرسمها فى ظل الأوراق مكتوياً بلفْح شمسٍ تخيفنى، أنا الملتحفُ بالغموض فى كل الأسفار التي قطعتْها حياتى.. أكانت ترسُمنى فى ظل الفرحِ مغمورةً بألوان الغروب، تمنعها عن مراوغة الجَمال ببهاء، هُوَ لها، لم تكن تراهُ قبل أنْ ترى ذاتها بمرآة أخري.

أكان يرسُمنى فى ظل الرواية، منكفئاً علي حنين كان له لزمنٍ لم يعد لنا فى أرضٍ حرمتْنا الحياةُ جميعاً من الاغتسال بنورها وظلها فى كل وقت.. فاستعادها فى الحكاية، واستدعانا لنعمِّرَها من جديد.

ليس لى أن أرى الآن ما لم أره سابقاً.. لكن الحرف المخاتل لا ينصاعُ لوصايا القلب، مهما أحكمَ وثاقه.. والعقلُ لا يوكِلُ الحكىَ كلَّ التفاصيل.. والذاكرة تشاكسُ أردية النسيان، دون أن تستسلم لغفوة التقادُم».

قد يكون السرد أهمَّ من الحكاية التى توارى خلف أكَمتِها أغصانَ باقى الحكايات.. قد يكون السّاردُ أوهى من خيوط الحبكة، مهما نسَجها بأياديه المتجدِّدة.

قد يكون أقوى ما فى النهاية الموعودة المنتظَرة التى تمضى نحو مجراها كلُّ السيول الجارِفة، ليس كونها المآل أو الغاية وإنما لأنّها البداية التى ماطلَها السرد، وهو يشْرَئبُّ بعيون الأسطر نحو الخلف.

«من قال إنّ النهاية نهايةٌ، وكفى؟.

النهاية دوماً برعم بدايةٌ جديدة.. النهاية بداية رواية أخرى ستحكيها الأيامُ المقبلة فى متون مختلفة دون هوامش للماضى الذى كان.. النهايَةُ بدايةٌ تخاتلُ صيغ البناء بحروف الهدّ، وتخصّبُ مواسِمَ القطاف بغبارِ الطَّلع.

وأنا أكتبُ، لم تكن فى بالى أى محاذير.

كنت أريد لحكاية مهدية أن تكتمل.. كنت أريدها أن تكتمل، وإن كانت التكلفة شاقة. كنت أريد للرواية أن تكتُبَ ذاتَها إيفاء لالتزامى بوصية اختارَتْنى دون أن أختارها. لكن والأوراق تتقدَّمُنى شيئاً فشيئاً نحو أطياف ذلك الماضى البعيد، كانت ظلالُ الوجع تحاصِرنى بقسوة من جديد. وأغوص أكثر فأكثر فيِ لجَّة كلِّ ما كان.

أدركتُ مع الورقة الثالثة فى صفحتها الثالثة، أنّنى لم أكن أمتلك فعلاً قرار الكتابة. كنت أراوغ نفسى.. أكابر لكى لا أتراجع عن اختيارى.

حين فتحتُ طاقة تَارْغَة تلك القرية الجبلية المتوسطية الساحرة، وهبَّت على مسامّى رطوبة البحر، واحتضنَتنى فيروزُ المتوسط لحظة الاستيقاظ صباحاً، وعيتُ أنّ الرواية تعيدنى إلى تلك الضفة التى فارقتها مُكْرَهاً منذ زمن.. تضعني أمام طفولتى الهائئة.. تقتطِعني من هنا لتزرعنى هناك مرَّةً ثانية.

أغتسل بملوحة بحر، لم يعد من حقي أن أقف على شاطئه هناك.. وأغْرقُ فى بحرِ ألمٍ، لم يكن لى أن أستدعى ذاتى إلى أمواجه» .

ليس منصفاً أن نمارِس الوجعَ بفائض وعيٍ امتلَكَ كلَّ الجرأة فى العودة إلى الجراح من جديد، دون أن يبتَلِع ما يكفى من مسكِّنات الذاكرة.

«وغمرتنى ذاكرة التِّينات بصخبٍ. فقطعتُ مسافة التيه وأنا أرسم مسافات المصيف. لم تكن ذاكرتي طيِّعة على هواى، بل كانت هاويةً لا يطاوعنى قلبى فى الوقوف على حواشيها. ما أذْكُره يحيلنى على ما أتوق إلي نسيانه.. وتتكالب علىَّ الأحداث بمزالِقها ومتاهاتها. ولا يفلِح السطر الذي أكتبه مهما ناوشْتُه، فى مُداراة التشظى الذى أعانيه بين دبيب الأصابع وذابحات القلب» .

ودِدتُ حينها، لو لم يكن الأمسُ لصيقاً باليوم كلَّ هذا الالتصاق، فأفتِّشَ داخِل يومى عنِّي، دون أن أغوص فى كل الوجع الذى كان فى ذلك الأمس الذى يطارِدني.

ودِدتُ لو كانت رزانة النسيان أكبرَ من مكْر الذاكرة، فأنفُضَ عنِّى ما علِقَ بها دون أن يلحَقَنى أذى الجراحِ المفتوحة. ودِدتُ لو لم تصلِْنى رياحُ الرواية، لتقذِف بكل سكينتى فى مراجل الآثام التى لم أقترِفها، والأوزار التى لم أرتكِبها والسلوان الذى لم تبلُغْه أحلامُ كلِّ الأيام.

«أدركتُ مع الورقة الثالثة، فى صفحتها الثالثة أنّ سُحب الماضى تغطِّى سماء حرفى، فتُمطِرُ الأسطُرُ على سجيَّتها بعضاً من وجعى وكثيراً من الفِرار.

يومى لم يكن مقلقاً حينها، لكنّه غدا فجأةً تعباً أكثر من المعتاد. وأمسى لم يكن هادئاً بما فيه الكفاية، لكنه غدا فجأة هاجساً تسكنُنى أدغاله. كان صعباً على مداخل السرد التى طرقتُها أن تنغلق دونى، أو دون أن تحلّ مهدية ببهائها لتغسلَ كامنَ غيابى بكامل حضورها.

وكان موجعاً أن أشفَّ لكى تعبُرَنى الرواية، مثلما تشتهى أهواء السرد أو مثلما تشتهي نوازِغُ الكاتب.. الحكاية كانت دوماً قريبة.. قريبة. لكن العودة بالكتابة لا تحْمل الحنين صافياً، ولا تحمّلُ الروايةَ شغَفَ الرسم على صفحات الروح. ليس لى أن أمضى مثلما تشاء الذاكرة اللئيمة فى اغتراف كل ما كان من حروف ذلك اليوم البعيد القريب. ولا أستطيع فى الآن نفسه أن أتذكّر بمفردى، وأترك الأسطر تحكى غير ما يغمرنى من ذلك الماضى» .

أأملك أن أكتب ما لا أريد كتابته؟ وهل يملك السارد الآن ما يدفعنى إلى البوح بما لم أخْتَر التصريح به قبل هذه الأوراق المستدْرَكة؟

لا أعتقد ذاتى المنحوتة على مقاس الأحرف الكبيرة ستنْحَنى لكى تكشفَ مَن يتوارى خلفها، أو ستعرِّى من حمت ضعفه بقوَّتِها. ولا أظن السارد سيستطيعُ فى عمق صمتِه المخاتِل أنْ يصدَحَ بصوتى المرتَجَل، وإن أفلح فى ادِّعائه.

قد لا نُؤمِن كامل الإيمان بأصواتِنا. قد نراها لا تفى الحقيقة كلَّ التشكيك الذى تستحقّه.. قد لا نباهى العالمَ بما نطويه بين جوانحنا من

لغات.. قد لا نرفع أصواتنا حتى يبلُغَنا صداها من حيث لا نحتسِب.. لكننا لا نَـأمن أن تُستَباح على مقربة من خُطى سرْدٍ، لا يتيه بين دروبنا إلا ليستَرشِد بظِلالنا فى دفع ضلالِه.

هى خطايانا جميعاً.. ونقرّ بالضعف الذى يسكننا وإن استقوَتْ أيامُنا بعزة نفس، وكبرياء لا يرضخ.

هى خطايانا جميعاً. كان الصمتُ عنوانَها الأكبر. وكان الصمتُ قَبولاً فى العرف والعادة. لكننا لم نكن راضين فعلاً بما اقتطَعَه السارد لأرواحنا من أقسام وأزلام. ولم نعتقِد أنّه بعد السرد الذى ارتضيناه لأنفسنا فى أوراق عديدة ذات وفاء للإنسان.. للمكان.. للتاريخ، سيرتدى الساردُ ملامِحنا بكل احتراف ليواصل الحكى بعد انصراف أطيافنا.

كان مخطط الرواية واضح المعالم حين رسمه الكاتب على فراش مرضه. وكانت الوصية صريحة فى رسم متون الرواية واحتمالات هوامشها. لكن الاسترسال شبهة تأليف ينزاح عن مقاصد البدء، ويختار الحضور على نعش الغياب.

ليس للسرد اقتراف أصواتنا ليُمعِن فى فصول الرواية مهما صَفَتْ له ضمائرُنا المُستتِرة.. له أن يحكينا، دون أن يحاكينا.. له أن يقتَطع من أيامنا قدرَ ما يشاء من لوحات يعيد رسمها على هواه.. لكن دون أن يرغمنا على رسمِها بأرواحنا، لكى تقرَّ عينه وينعَم هواه..

لستُ متمرِّداً بطبعى كى أفتعلَ الرفض نحو كل قوّة، وإن كانت خيوط السرد الواهنة. التمرُّد اختيارُ مَن لا اختيار له يعلِن فيه امتلاءه بلا حاجة إلى إفراغ الآخرين، أو إلى إرباك مناعتهم. واختياراتى كانت لى دوماً جليَّةَ

القسمات. لكن النضج يرشَح بالضرورة بما فيه، وإن صالح الطفولة التى مازالت تلهو خلسة بين زوايا القلب.

وأنا أرسم، اللوحةُ لا تهادنني. تقاوم وصايتى حتى رقصة الفرشاة الأخيرة.. تظل تتمنَّع وتقاوم، وتريني من روحها ما لم تبلُغه روحى المبدِعة.. تظل كشوفاتُها تشاكس الواقع الذى أتركه ورائي.. فيرمينى فضاؤها بتفاصيل أستعيد فيها وجودي.. كينونتي.. ذاتى التى تولد كلَّ مرّة بمَسْقط لونٍ وشكل وغواية، لم أدركه قبل أن يدركَني.. لم أدركْه قبل أن أُدرِكَنى به.

من قال إنّ الإبداع مجرد تمرينِ خبرة متراكمة لم يتسكَّع فى حواشى الليل بجوار بياض أمامه.. فى داخله.. بين جوارحه، لا يستطيعُ الارتواء مهما تبخْترت فى خُيلاء قُرب أحلامه الصورُ والرؤى والأحرفُ والأشكال... الظمأ للأسف لم يتعلَّم يوماً أن يُخرسَ إلحاحَه. والصوت يظل صوتاً وإن خذلتْه الحشرجاتُ وغلَّفَ الصَّمتُ وافرِ تردُّداته.

قد حُزتُ قبل هذه الأوراق نصيبى كاملاً من التوبة بعد الإثم. ولا أرجو الآن، غيرها ملاذاً لصوتى.. أو لصمتى.

الآتى لى وحدى.. الآتى لنا، خارج أسوار الحكاية.. بعيداً عن مقامات السرد.. بمنأى عن زوايا الرَّصد العديدة التى تحفر عميقاً فى كل أزمنتنا.

السارد وهو يُسْكننا فَسيحَ مسروداتِه لم يترفَّق بحميميّ سرائرنا.. كان يدفعنا إلى أن نتعرّى، كى يخْصِف أوراقه على مقاس عُريِنا.. وكلّما اكتوينا بجلِدنا العارى كان يشتهى لنا المزيد من الجلْد.

أكان ضرورياً أن يُعيدَنا مرَّة بعْد مرَّة.. بعد مرَّة لِيحْكينا؟

ألا يكتفى السرد بمياهه الدّافقة، ليجفِّف فى كلّ مرّة ينابيعَ اخترناها لنا دون أن يكون لمكائده دخلٌ فى تفتُّقِها؟

«اجتراح الألم لا يضاهيه وصفُه.. لكن الحرف جبّار لا أمداء لسطوته. يقدر على التوغّل فى كل الشُّقوق.. يضىء العتمة ويمنح الصخب المعتمِل فى الدواخل سكينةً لا تغفو، يستظلّ بأفيائها من يلاحقه لهيبٌ لا يهدأ أُوَارُه.

مفارقة غريبةَ أنْ تعاندَ الذاكرة التي تتحدّاك، وتُصرَّ رغم الوجع على أنْ تغافِل النَّحيب الذى يعلو وقعُه في حواشيك، لتَجْهرَ بما يحوز رضا الوصية.. التاريخُ أحملُه في دواخلي مثلما حَمَله أستاذي موشى عمران.. التاريخ ليس حِكراً للمؤرِّخين، لا تقيِّده السِّجلات وحدَها.. التاريخ نطويه جميعاً في صدورنا.. نحياه يوماً إثر يوم.. نلتقمه بين خلايا الذاكرة وفصوص الرّوح.. ونبني علي فصولَه حجرات غَدنا، حين يتحوَّلُ ذلك اليوم الذى نسجْناه على وقع الأحداَث العظيمة إلى أمسٍ ولّى.

لكن التاريخ ليس نزيهاً.. ليس واحداً.. ليس مقدَّساً.. إنّه تواريخ متقاطعة تحتَملُ صمتَنا مثلما تحملُ أصواتنا. تواريخ متشابكة دون نوايا بيضاء قد تعقدُ لألواننا أكثر من موعد.. التاريخ نكتُبه ونعيد الكتابة من جديد. فنحن لا نري جميعاً ما يراه الجميع. كلٌّ يؤرِّخ لزاويته، لمنظوره، لموقفه.. والكلُّ يدَّعي أنّ الصدق لسان حاله.. الجمل القصيرة تتهافت للوصول إلى المبتغى قبل الوهن.. والجمل الطويلة تراوغ البلاغة ببعض البيان قبل المنتهى.. والذات تتوارى خلف كل الاختيارات تراود الحقيقة عن نفسِها، وتسبِغ على الخيال فائض الدلالة» .

أيملك السارد أن ينفى شبكاته المتداخلة؟

أيملك السرد مفاتيح الود ليلغى كل إمكانات النفور؟

المقاعد فى كل فصلْ كانت تدور بنا.. فى حلقات حلقات، دون أن تترك لنا على الأرض موطَأ قدم.

فى زمن سابق.. فى ماضٍ بعيد.. بعيد غير مكتَمِل، كانت السماء هى أقصى الحدود. كان الحلم لا يرى فى انعكاساته العديدة احتمالاً للمستحيل.

فى زمن سابق.. فى ماضٍ قريب.. قريب ممتد، غدت أخطاء الأمس احتمالاتٍ تتدثَّر بأحلام أخرى لم تكن لنا، حلّقت فى سمائنا على وقع أجراس صغيرة للفرح.

الماضى ما زال هناك.. الماضى ما زال حيّاً.. ما زال يقبَع بينَ رفوف الذاكرة لا ينتظر إذناً بالاقتحام، بل يعلِنُ الحضور متى شاء.. ولا نفلح مهما حاولنا فى مقاومة انسيابه الذى يغرِقُنا بكامل أوجاعه. لكننا نرفض اقتحام سيوله ليومنا الآن بزبده وكدره.. وننسج لغد "تودُّد" ما نبتغى من ورود ورياض. ونترك للفرحَ فسحات ليروى كلَّ البراعم التى مازالت كامنة بين جنبات الروح.

«غريب كيف تغدو الرائحة عنوان إنسان.. كيف ينقلكَ عطرٌ عابث وهو يلاحق أنفكَ الساذج الغافل عن كل مراوغة، إلى ملامح لم تذكرها قبل أن يطرق العطرُ أبوابَ ذاكرتك القصية.. قبل أن يغويها بالعودة نحو الخلف فى تيه تستجدى الاسترشاد فيه بدفء شخص كان هناك وسط الوجوه غافياً، واستدعتْه يَدُ العطر لأن يكون معكَ الآن.

أمى.. ذلك الأصل كاملاً فى امرأةً واحدة، لم يسعفها الفرح الذى كانت تغرسُه فى بذور طفولتنا ليرويها عند نضج الثّمار.. أمى البعيدة عنى، أتنسَّم ريحها فى صغيرتى تودُّد، رغم أنهما لم تلتقيا بعد. باغتَتنى رائحة أمى فى متجر حلويات أندلسى كنت أقتنى بعضِ معروضاته، وأنا أحث الخطو يِومَ أصبحتُ أباً واحتضنتُ تودُّد بين ذراعى، فاقترنت بين مداركى صورة أمى وملامح تودُّد.. تلك الشجرة الشامخة وارفة الظلال، وذلك البرعم الناعم الذي يبحث عن حضن

الماضى لا يمكن تغييره.. إنّه الماضى، مضى دون أن ينقضى.. دون أن ينمحى.. دون أنِ يزول.. لكن يمكن تخطيه. ونتخطّاه.. نتخطّاه بسبق إصرار لا يُعلِنُ مقاصِده، بل يتركها تنمو فى السر علي حواشى الأيام وهى تمضى.

مهدية لم يكُن لها أن تحيا فى ذلك الماضى.. لم يكن لها أن تعيشِ أكثرِ مما اقترفتْه الحياة بحقِّها. تراكمت خيباتُها، وظلّ الغدُ حلمَها دون سرج يلجِّم سرابه. كانت متفائلة في عمق اليأس.. لم يخذلها الطموح، ولم تنقصها الإرادة، ولم يكمِّم الخذلان صوتها. حين غازلَتْها الريح ذات انفلات لم تترك لجناحيها فسحة للتفكير. أطلقتهما وحلّقت حيث حملها شوق الحياة. لم أكن أتوقَّع عودتها من ذلك الماضى البعيد الجميل الذى لم يفارقنى. لم أكن أحلم بلُقْياها من جديد. كان طيفُها الذى يسكننى كلّ ما تستطيعُ أمانىَّ أن تترصَّدَه فى أحلامى ورسومى.

حين حلَّتْ، اكتشفتُ أنّ الصَّبر كان دوماً خطيئة انتظارٍ يمارس الجَشع بكامل الوعى.. وأنّه رغم إصابَتِنا بالحياة نموتُ بسبق اشتياق وحبّ. اكتشفتُ أنّها كانت تسمعُني بعُمقٍ أفضل دون أنْ أحتاج إلي الحديث إليها. كانت لوحاتى تناديها دون أن تنبِس حرفاً.. وكانت حروفُ قلْبها تنقصنى لأدرك اكتمال قلبى وسط صدرى».

الورقة الرابعة

«لم يكن حباً.. كان شيئاً آخر.

كان تدفُّقها بالفتنة يختصر نساء العالَم فى استراحة عينيها على ملامحكَ. إن استوقفتَ بصرَها.. إن استدعيتَ اهتمامها.. إن نجحت فَى دفعها إلى جعل ملامحكَ تلوح فى غور عينيها، يكتمل فوزك.

لم يكن حباً.. كان شيئاً آخر.

كان الفرح يسبقها وإن سكن الحزن محيَّاها. يكفيكَ أن تطالع وجهها كلّ صباح ليشرقِ يومكَ بكل الورود.. يكفيك أن تغفو ليلاً وصورتها ملء جفنيك، لترتاد الأحلام الجميلة سواد نومك.

لم يكن حباً.. كانِ شيئاً آخر.

أكان لي أن أرافقَ طيفها كل هذا العمر، دون أن أصرِّح لها بما أحمله لها فى ذاكرة الأيام وخبايا الليالى؟.

أكان لى أن أصون ما طواه قلبى المفتون لسنوات...

أخذلتنى الحكاية في الأخير حين أسلَمتُها صوابَ سردى...

أكان صرح الرواية قبراً رخامياً لما دعوته وفاءً لقصة الاثنين...

أكنتُ أخونهما وأنا أتذكَّرهما أم أخون نفسى.. أم أخون سيرتى؟

أكنت أخلِّد ذكراهما معاً، أم أخلُدُ معهما كى لا تنفصل روابطُ الماضى الذى خذلنا جميعاً؟

لم يكن حباً.. كان شيئاً آخر.

أيصحّ العشق بين كائنين لم يجمعهما سوى سرير الورق الأبيض، وشراشف اللوحات الملوَّنَة؟

أيمكن للحرف أن يسع وصالاً لا يمكن للحياة أن تسعه؟

تلك البهية التي لم ألتقِها يوماً كيف سلبتْ تفكيرى.. كيف قادتني نحو خريف عمرى بكل عنفوان؟.

كم كبَّلتْ خطواتى نحو الكتابة. كم ظلت أجمل رؤية تقودنى إليها كل السبل، دون أن أبتغى الوصول إليها أخيراً.. كأننى كنت أدرك فى كل السنوات العشرين التى مرّت سِراعاً أننى حين أبتغى الوصول إليها ستضيع منى كل البدايات، وستظل الرواية حرفاً دون استواء يفتقد المبنى ويحتاج المعني.

ماريًا، حين شاركتُها قراءة ما وضعتُه من مخطَّط للرواية، بانت لهفتُها لقراءة كل صفحة أنهيها. لم تتركْنى حرّاً في رصْف الأوراق علي هواي أو على هوى السرد. كانت تستعجِلُنى.. كانت تستدرجنى.. كانت تغوينى بالمتابعة.. لكنها كانت تتورّط هى الأخرى.. صفحةً بعد صفحة فى ذلك العشق المستحيل.. بدورها أحبَّتْ مهدية.. هامت بأطياف الصورة التى نسجتْها لها الحروف والكلمات والمقاطع.

ولم تستطعِ أن تدفع عن قلبها غيرة آثمة اشتعلتْ بحُسنِ قراءة، فى غفلة منى ومنها.

كانت تعلم علمَ اليقين أنّها وحيدَتى فى كلّ العالم.. امرأتي دون كل النساء.. الفاتنة الوحيدة التى لا أرى غيرها فى كل

أيامى العوجاء.. جميلتى التى أصحو على عطر قُبلَتها صباحاً، وأغفو ليلاً وابتسامتُها ملء القلب.

كـانت تعـرِف أنه ليس لى غـيـرها يتـوسَّـدُه حلمى بشـمس الصباح مرّةً ثانيـة.. وأنا أعانى أوجاعى التى لا تستقيم فى عُرفِها أىُّ متعة.

لكِنها غارت منها كثيراً.. وغار بدافع من تلك الغيرة سلامٌ كانت تصفو به أيام حبِّنا الأخيرة.. غارت من تلك التى تكبرها بكثير.. بل قد يكون ذلك مبعث الغيرة، كون مهدية قد سبقتها إلى قلبى بسنوات وظلّ لها الموقع الأثير، الحديقة السريّة التى كنت أختـزنها لنفسي بمعزل عن الأحبة، وأنا ألاعب مـارِيًا طفلة، وأنا أغـمـرها بحـبى وأنا أريهـا عـالَمى، وأري العـالَم بعيْـنيها. لم تـقبَل أن تتوارى عن عينيها المتفحِّصتين فى كل السنـوات الماضية روايـتى تلك عن مهدية. لم تتـقبَّل أن أخفى عنهـا مـخطَّطاتى للـرواية، وهى تشـركنى بإصـرار منذ تعـلّمتِ الـحكى كل ما تراه أو تدرِكُه فى نومٍ أو يقظة.

كانت صفحات الرواية تشدّها للقراءة ولعشق طيف مهدية، لتشتعل باكتساحٍ فى عمق روحها وهى تقرأ بنهم علامـاتُ الألم.

أكانت تراني فى أوجاعى الأخيرة شيخاً هرما لا يصلح له من الحبّ غير جرعات مضبوطة على معايير الأبوة؟

ماريا لم تصادر حقي يوماً فى أن أكون مبدعاً متحرِّر القلب والقلم والسيرة متى أذِن للحب ميعادُ ترتيلِ عاشق..

كانت تلاحق بعينى الطفلة، منذ غادرتْنا بُولا بشكل نهائى، أباها وهو يرمِّمُ ذاته مثلما كانَ يرمِّم أوراقَه لِيحيا بالحب من جديد.. كانت تدرِك وهى بعدُ طفلة أنّ عالمَنا الذى تهاوت أركانه بعد رحيل بولا، ليس يسيراً علىّ أن أعيد تصحيحه.. لكنني حاولتُ.. وحاولتُ.. وما كان لمحاولاتى الأخيرة أن تنجح لولا اقتحام ماريا لعزلتى، وانخراطها مبكراً فى تحمّل فوضاى.

لكن ساءها بعد أن تحوّلتُ إلى صغيرها وغدت لى حضناً أكبر أن لا أطلعها على حكاية مهدية، تلك الحوراء من جبال الريف.. ساءها أن لا أكاشفها بما مرَّ في بلدٍ لم تُقِم بين فضاءاته. كان فضولها الكبير يدفعها فى كل مراحل نشأتها إلى مصاحبتى فى كل شؤونى. ولم أكن أكترث لانحشارها فى كل تفاصيلى، بل كنت مسروراً لما تغدقه من أمومةٍ مبكِّرة. كنت شيئاً فشيئاً أتخفَّف من مسؤولياتى، وأسلِمُ لها قيادتى.. كنت تحت رعايتها بدل أن تكون هى تحت رعايتى.

قد أكون خذلت نضجى، وأنا أرهفُ سمعى لشبابٍ كنت أرتضيه لنفسى كلما تفتَّحت ورودَها. كان النزق يسكننى لتتمادي هى فى الحكمة. وكنتُ أصغُرُ فى عينيها وتكبرُ فى عينى، لنلتقى فى منتصف المسافة بين شيخوختي وعنفوانها. لم يكن لى حينها غير ذلك لأُرضى تلك الأبوة التى أتتنى متأخرةً عن موعدها بنصف عمر.

قد تكون الحكاية خذلتنى وأنا أرجئ سردها إلى أواخر خريفى. لكننى قد خذلت ابنتى كذلك فى ما لم أمنَحْها إياه، أو

فيما لم أطلعها عليه بحسن نية. كانت وهى تقرأ الأوراق الخمس الأولى من الرواية، تكتشفني دون أن تعرفني حقّاً. ماريا لم تُنكِر حقّى فى إبهارها بماضٍ لم يكن لها أن تعلَمه في أوانه، ولَم يكن لى أن أعيشه فى زمانه.. هى مرّت بجوار ذلك الماضى فى حاضر ألمى السِّريرى، فانبهرَتْ بقدرة ذاكرتي علي نسج الحياة بفتنة رغم أوجاعى الكثيرة. وأنا عبرْته مستعْجِلاً حاضرَ الورقة السادسة، أرقُب آمالى فى نسْجِ الرواية ببداية جديدة لم تكن لها. فاستغرَقتْني لحظةُ الأمل السِّرى التى كانت مجرَّد وهمٍ مارق دون أن تكون فِعلاً متحقّقاً أغوص فى تفاصيلِه أو أحداثه.

قد يَكون ذلك دون أن أعى الأمر فى لحظته سببَ تعثُّري في الكتابة بعد انتهاء زيارتى لتطوان.

حين عدت إلي مرفأ شيخوختى بوهنٍ وشجن، ظللتُ أرجِّح سطوة تغيير المكان مانعاً لانسياب قلمى على الورق الأبيض باللهفة ذاتها التى كانت هناك بتطوان. لم أكترث كثيرا لشعور الشجن أو لحالة الوهن التى كانت تشلُّ مخطَّطاتى. فسّرتُهما حينها بمفارقتى مزارات تلك الحمامة البيضاء. لكننى فى العُمق كنت أستغربهما بحدّة لأنّنى أدرك أنّ زيارة تطوان كانت عبوراً أعود بعده إلى غرناطة البهية التى اختارتْنى للاستقرار بها، حين استدعتنى قبل سنوات مدرسة الفنون والحرَف للتدريس والتكوين.. واخترتُها بعد التقاعد عن التدريس، موطناً لممارسة نهمى بالكتابة والتأليف ولتحقيق كلّ المشاريع المؤجّلة.

كان اعتقادى يزداد يوماً بعد آخر بأن الزمن لن يسعفنى فى الخروج سريعاً من ذلك الاحتباس الذى يخنق كلماتى، ويصادر أى أمل فى إنهاء مخطط الرواية وفق ما أشتهى. شرعتُ درءاً للخمول فى التماس احتمالات أخرى للكتابة. كنتُ أودِعُ أفكاري نقراً مباشراً علي مفاتيح الحاسوب.. فلم تعد الآلة الكاتبة صديقة حنوناً لوهنى. كنت أجاهد لأبنى لمجد مهدية حياةً لا يعصف بأحلامها الانتظار، ولا تكتسِحها ظلال الشجن الذى يغمرنى.

لم أكن حينها على علم بما ستؤول إليه غزواتُ عدوّى. كنت ما أزال أحمله قريباً من نفسى، عدوى القديم ذاك الذى لم يُطقْهُ صدرى سابقاً وخاض معاركه الطويلة من أجل طرده بعيداً.

سأكتشف فيما بعد، ذات بحّة غريبة الأصل هجينة الفصل صغيرة الخلية فاتكة التفشّى، أنّ آخر أرصدتى كان زمناً يغالبني وأكابره. لم تكن مجرد جولة مثلما كانت كل الجولات السابقة أصارع فيها الموت بإرادة الحياة التى تكتسحنى بقوة لا أدرك حجمها، لكنني أعلم أن ماريا مصدرها الذى لا ينضب.. لم تكن مجرّد جولة أدخلها بعزمٍ وثقة وتصميم على ألا يسحبنى أىُّ عجزٍ عارض من نصوصى التى أحب أن أكتبها، ونصوصى التى تحبُّ أن أكتبها.

كانت هى المعركة.. لم يعد المتوقَّع أو المطلوب أو المأمول أو المتمنَّى أو المنتظَر هو الشفاء أو السيطرة على الورم أو الحد

من انتشار خلاياه، بل غدا الأمر برمّته حرصاً على تسكين أعراض الألم. فجأة تحوّلت حياتى من نشدان اليقظة إلى التوق إلى الإغفاء. وكانت تطول الغفواتُ التى تستغرِقنى بعيداً عنّى.

كنت قبلها منتشياً مكتفياً بما ظننته انتصارى علي كلّ موت يريد أن يختطفنى من أسرارى. وأمعن فى ادّخار الأسرار لروايات أخري لم أكتبها بعد. لكن فى غفلة منّى كانت الرواية تنتقى كاتبها.. تبتدع خطى ساردها.. تحشد ما تبتغيه لأوراق فصولها.. وكان عدوى يصدّق انشغالى عن معركته، ويدْحر حصوني أكثر فأكثر.. لم أكن حينها مريضاً مواظِباً على الاستفادة من سجلّه الطبى.. انشغلتُ لأشهر بين السفر والعودة.. وكانت تلك الأشهر المعدودة كافية لنسف آخر معاقل المقاومة. وذات يومٍ أستفيق على إنذار لا يقبل أي مراوغة: ستموت قريباً.. فكيف لك أن تحمى ما تبقى من حياتك قبل أن تموت؟

لم أفكر فى الأمر.. ولم يكن لى متّسعٌ من الانسحاب كي أُحسِن الإقدام. كانت الكتابة كلّ هواجسى. كنت أراها ترياقاً لكل موت. لكن الألم حكايةٌ لا تحجبها الأمصالُ المُعَلّقة. وسريري ذلك الصاخب فى ذاكرة الحكى كان يخفت يوماً بعد يوم، والأمصال لا تكفُّ عن التقطير.

كل الاحتمالات التي نسجتُها للرواية لم تعد واردة والغفوة تتلو الغفوة.. كان الألم يكمن فى عمق كل غفوة يتصيَّد يقظتى.

لم أتوقَّع وأنا أنسحبُ فيما بعد داخل جلدى أن يكون لروايتى ساردٌ آخر يشقُّ كفَنى ليحكى عنِّى من جديد ما لم أقلْهُ فى حينه. لم أكن أتوقَّعُ أنّ للحكايات أرواحاً تناضلِ هى الأخرى كى تخرج للوجود، وكأنّها الحياة تستعطف الموتَ أو تغافله أو تستدرجه.

كَانت قد مرَّت على وهن سريرى أيامٌ عديدة قبل أن أستقدم محامى لكتابة وصيّتى.. لم تكن لى أملاكٌ أحتاج للبث فى شأنها. كلّ ما كان لي كان لماريا حصراً. لكن الرواية لم تكن لنا أبداً. لذلك استغرب المحامى أن أطالبه بحمايتها قانونياً من الضياع. تفهَّمَ خوفى على أوراقى، لكنه لم يفهم حرصى على أن أجد لها أباً غيرى. ولم يملك فى الأخير إلا أن ينصاع لرغباتى المؤدّى عنها سلفاً.

وأنا أنعم أخيراً ببعض الهدوء فى عمق إغفائى، كنتُ مطمئنّاً إلى أنّ مصيرى لن يكون مصير مهدية. قد اخترتُ لها بالفعل غداً لن أصاحبَ فجره، لكننى أعلم يقيناً أنَّه سيكون أبهي بدونى. وأعلم أنّها تملك ما سيُجنِّبها تكلُفةَ غيابى. كنتُ أنا الفقير إلى حكاياتها، وكانت هى المستغنِيةَ عنِ محفظة أفكارى التى لا تتوانى عن الغطرسة بِاسم السرد. سيُعفيها انسحابى من مزيد تلصُّصٍ.. وسيُعفيني رحيلى من مزيد تأثيم.

كانت كلّ الرؤى تكتسى جلاء لم يكن لها من قبل. المنظوراتُ ذاتها لم تعد تقبل أكثر مِن تأويل واحد ووحيد. غدت الأشياء ترتدي ثوباً لا تخطئه العينُ ولا يماطلِه القلبُ.

فى اتجاه الخطيئة تصغُر كلُّ الأخطاء، تبدو مثل حبّات رمل ذهبى لا يتجشّم جدب الصّحارى. وفى مواسِم الرحيل ليس بالإمكان إرجاءُ الصَّواب إلى حكايةٍ أخرى. تلك القرارات التي نتخذها متأخرين بعُمر استوفى مُدَدَه وبموتٍ أعدَّ مَدَده، لا تحتملُ تضخُّماً مباغتاً للمزيد من الذنوب. كنتُ أَعِى ذاتى بقوة وأنا أَمضى فى اتجاهٍ لا عودة منه. كنت أدرك أنّ المسكّن لكل الأوجاع التى لا يطيقها تعبى ينتظرنى فى آخر ذلك الطريق المشعّ المفتوح أمام بصرى. وكنت أرغب فى السير إليه سريعاً. لكنّ أفكاراً ملحّة كانت تطاردُ توقي بلهفةٍ وبقايا أرزاء.

أكنتُ منصِفاً بحقها تلك الرواية التى كتمتُها عمراً قبل الشهادة؟

أدركت منذ وعيتُ وجودي أنّ عبورنا السريع فى هذه الحياة لا يتمّ عبثاً.. وأنّ الحياة الدّنيا لا تدَّخِرُ لنا ما لن نعرِفه حين يحلّ زمنُه، بل هى تدَّخرنا نحنُ لمصائر نخدمها.. نستوفيها.. نتمّمُ اكتمالَها بنقصان نقترفُه فيما بيننا مرَّةً بعد مرَّة.. وعلى كلِّ منّا أن يعثر بمفرده على ما يبدِّدُ به غيابَه، حين يأذن أوانُه بالرحيل.

حين ابتدَعتُ لنفسى نوازِع الحكي في يومٍ اختارنى للكتابة هناك فى غرفة مكتبى بتطوان، ظننتُ العمر لن يحمّلنى هفوات المماطلة، غيرَ أنّ البداية لا تكون الأهمَّ دائماً. قد تكون فى عُرف الفعل أصلَ النيّة وسلْمَ السّريرة.. لكن أحياناً لا جدوى من أنَ نستفيق متأخّرين لنشرَع فى نسج حلمٍ لن نواكب ليلَه.

قد لا يغْنينا بدءٌ بريءٌ تخلَّفَ كثيراً عن خط الانطلاق، عن اقتراف سبْقِ آثمِ النّوايا. بوادرُ السردِ اعتنقتْ كل الإخلاص المفتَرَض لميثاق البداية، لكنّ بين فصلَ الولادة وفصل الموت لا تُنكرِ الأوراقُ المتناثرة عنوةً قصوراً أحكَمَ قبضتَه على تصريف الإرادة وتوطين الرغبات.

ستكتُبنى الرواية لاحقاً إن شاء لها من ارتضته مالكاً لزمام سردها بعد خيانتى، أو من ارتضاها ملِكيةً خالصة لوفاء سرده... ستكتبني مثلما تشاء إن شاءت. ويكفينى أنْ أعترف بمَكامن ضعفى التى خذلتُها دون أن تخذلنِي.. يكفينى أنْ أعترف بمكائد السرد التى حبكْتُها فغدوتُ صَنيعتَها إذ حبكتْنى فى غفلةٍ منِّى.

ماريّا لا تستطيع أن تُسعف الرواية بأكثر من القراءة. ما تملكه من نفَس اللغة العربيةَ كان دوماً يثير إعجابى، لكنه لا يقوى على الاستقامة على قدميه دون معين. إن أوكلتُ لها مهمّة إنقاذ الرواية من أعطاب غيابى أحكُم سلفاً علي تلك الأوراق بمواصلة الإقامة بين ملفاتى دون احتمال للنشر. لأجل ذلك أردتُ أن أحاصر عزيز بكل موانع الرفض. وحشدتُ ضده كلّ ما يمَكّنُنى من يقين لا أستطيع محايثة عطائه.

كنت أبتغي لوصيّتى أن لا تحتملَ غير عزيز حاملاً لِهمّ تلك الرواية المبتورة. وكنت أتوقع مسبقاً نفوره المبدئى من إتمامِ عمل غيره.. وأعلم أنّ ذلك العمل لم يكن ولن يكون له صافى

النوايا صادقَ الدوافعِ، مهما حاول أن يقاومَ بوفائه خيانتى. هو عمل أراد أن يتركه لزمن آتٍ، يكتبه فيه على هوى صفاء الذهن واستواء القريحة. لكننى ككل المتهوِّرين اختطفتُ سرَّه قبل أن يستوى جهراً.

وكنتُ أتوقع مسبقاً امتعاضه من ائتمان غيره علىٍ سيرته. وأعلم أنّ سيرته تلك لم تكن، ولنِ تكون له صافيةَ المَراحل صادقة الخطوات مهما حاول غيرُه إيفاءَه حقّ البطولة دون سلطة السرد. هى سيرته.. وحده قد اطّلع على تفاصيلها وشارك فِى صنع التواءاتها، وجنى شوكها مثلما جنى ثمرها. ولن يُسلِمَ لميشيل صديقي الفلسطينى هناك ببروكسيل فرصة تحويل حياته إلى شريط سينمائى، يكتُبُه وفق هوى أقلامه البصرية.

اعتقدتُ وأنا أصوغ وصيّتى بما يكفى من حكمة الأيام وبصيرة نهاية العمر، والمكر الطيِّب طَبْعاً لا يفارقُ نواياىَ، أنّ اللؤم خصيصة بشرية لا نستطيع التنصُّل من خبثِها حتى حين نهرَم.

عندما تتحول فجأة إلي عجوز فى أعين من حولك، تدرك بمفردك أنّ الوقار صنعةٌ تتقنُ فى الخفاء تصريف دهائها. وقد كنت داهية فى كل ما فعلْت، ولم أكن يوماً شيطاناً أخرس.. غصّ حلقى طيلة عشرين سنة بنواة تلك الحكاية دون أن أرويها، لأننى لم أمتلك من الجرأة السردية ما يكفى لدفعى إلى اغتنامها. واليوم يغصّ حلقى بخلايا تمنعني من الارتواء أكثر،

لأن الجرأة السردية التي أمتلكها أكبرُ مما يتيحُه رصيدى المتبقّى فى الحياة للاغتنام. غريبة تلك الحياة التى نحياها.. نمضى فيها غفلاً من أى مخطط، ولمّا نبلُغ المحطّة الأخيرة تتبدّي أمام أعين القلب ألف خارطة طريق وخارطة علينا أن نسلكَ دروبها قبل أن نترجَّلَ أخيراً.

مفاتيح السرد التي نقرتُها قبلاً لم تكن مستَبْصِرة.

ومفاتيحِ السردِ التى تنقُرنى الآن لا تُبصِرني بما يكفى الرواية عناء القرار. تلك الأزرار التى لا تتوانَي عن نقري ونقرى من جديد، لا تصرفُ الأوراق المستحدَثة عن البحث عن ساردها. ومساحات الظل الكثيرة التى تمتد بين الورقة ومثيلتها، بين المقطع ونظيره، بين السطر وشبيهه، لا تفسحُ للقراءة فرصة التنعُّم بهدوءٍ ينساب دون شغب.. فى مفاصلَ مساحات الظل تلك يمكن أن يَيْنَع أى احتمالٍ لتأويل غير حَسَن السريرة.

أعرفُ أنّك لا تَجني العنَبَ من الشَّوْك، وأنّ الحُبّ لا يُملَي فى عُرَفِ الإنسان بقيدِ حُلْمٍ أو بتحرير حلمٍ. قد يكون كلُّ ما أبدعتُه فَى أيامى السَابقة بضعُ أحلامَ لا تقطُنُها غيرُ شخصيات الحكايات. فالحياة على مشارف المنتهى تغدو فى عرفِ الخيبات العديدة مجرّد أيامٍ..

... ومضتْ..

لقد كنت أستجمع أحلامي لنَثْر ما سيفيض عنّا يوماً ونحنُ نسيرُ نحو القطاف. فمن يحبُّ هو الذي يقول الحقيقة، ولو كان بيانُه مُلحَقاً بَمكارِه القول».

الورقة الخامسة

«.. لا تتحرَّش بالذاكرةِ.

قد نضَتْ عنها الحزن لارتداء فَرَحٍ تدَّعيه بصدق مسرف في الألم، حتى يداعب المقصُّ على هوى الغفْوَة أوهام الطُّول قليلاً، ويقترف للمقاس أحلاماً جديدة.

ليس في الوسع أجسادٌ أُخَر تخوض قلْبَ المغامرةَ ذاتها بالأمل البكرِ والتَّوْق السّاذج.

.. لا تتحرَّشِ بالذاكرة.

إنها تتجمَّلُ بين الفينة والأخرى دون أن تغيِّر ملامحها كثيراً. التَّجميلُ فى عُرْفِها لم يكن يوماً تغييراً كلِّياً. بدوَرها ترى الجمال نسْغاً لا يختبئُ خلف الورود المستنبتة قسراً.

لم تنتقِ مساحيق باذخة. ولم تُمعن فِي التسوُّق لأكثر منِ الحاجة. المظهر الجديدُ لا يخادعُ أصول الحكاية وفصول الاشتباه.

لا تتحرَّش بالذاكرة. ولا تُلقِّمِ الوُعودَ ما لا تحتمله هامتُها النّاكسةَ. سنابِلُ الربيع فارقتِ البيادر دون أن يُتْخِمها الانحناء بقُطوفه.

لا تَحمِّلِ الذاكرة أكثرَ من طاقتها. لقد استنزَفْتَها قطرةً قطرةً وما ارتويتَ. ليس لنضوب معينِها، أو لأنّ السواقى مهما جُبلَتْ علي العطاء تظلّ سواقِى لا يمهِلها عابرُ السَّرْد سبيلاً لتروى له من خلف انهمارِها القصص الكثيرة التى أُريقتْ جانب النَّبع دون أن يجمعِ مرتوٍ حروفها المُهرَقة.. وإنّما لأنّكَ أنتَ الذى لا يرتوى.. لا يغْتنى...

و.. لا تملّ.

تظل تبحث بترصُّد فى عمق الحكاية عمّا لم يُقَل، عمّا أخفوه بحسن تستُّر أو بسوء تقدير. تنبش كثيراً عن ذلك المستور، عنِ ذلك الخفى، عن ذلك السر. ولا ترغب فى قوله بلسانِ سردكَ المتسلّط. تريده أن يجرى عليِ ألسنتهم كى لا يستدرُّوا غير صفاء الرواية. الضعف الذى يرتديهم طوعاً أكثر صدقاً من كل القوى التى تخيطها لهم بأناقة أحرفُك المبتَدعة. لكنهم ليسوا دوماً طوعَ بنانك.

تحاول وتحاول. تترك لهم أوّل الخيط متدلّيا باقتدار، لتنسُجِ بحبكاتهم توالى أرقامك. لكن الأوراق لا تكُنُّ للإغراء كامل الاستسلام. وبين خبايا السحر وبوادر الامتناع تقِف علي هضاب فخاخك كلُّ القوافى المُريبة.

وأنت القدَير، ساردُ الرواية قبل أصواتهم وأثناءها وبعدها، لم تلُكْ غير دهشتك أمام كبريائهم الشاهق. لم تنلْ من إبائهم قيد انحناء.. ولم تنَلْ صكوكُ عفوِك أدنىْ اعتراف.

خجل.. ووِجل.. ووجع..

ماذا كنت تتوقَّع غير ذلك؟

حين لا تنطلى حيلةُ حدائقك المُغْوِية علي من أفردتَ لهم الأفق للتحليق الحرّ، فلا تلُم غير سردِك الذى لم يخبِّئ بين ثناياه ما يكفى من الوصايا.. لا تُدِن غيرَ تواطُؤ أفراحِ الكتابة مع نوايا السرد السيئة.

كنت تعلَمُ وحدك كل شيء.. لكنك لم تشأ أن تقول كل شيء.

كنت فى كل زوايا السرد تدّخر لكل شيء كليّةَ شيئه خشية أن تخونَك الرواية فى غفلة، وتقتَرِف على هواهَا كشْفَ نواياك.

المراوغة تألقٌ لا يملكه كل المراوغين. والإبداعُ صنيعةُ من لا ملَل يحترفونه سرّاً، بعيداً عن أعين الحياة.

عيناك كانتا تعبُران كلّ السرائر دون أن تخترق لعبة سردك شموخَ القِلاع. دعَوْتهم صفحة بعد صفحة لكى يفرغوا سوادَهم فوق بياضِ صحائفك بأصواتِهم الخاصة. دعَوْتهم صفحة بعد صفحة لكى يلوّنوا عالَم الرواية بكل الألوان التى تشتهيها سادراتُ أمانيهم. وما أمهلتْكَ الدّمعاتُ المتحجّرة كلّ الانسياب الذي كانت تقتاتُ عليه فى السر مناديلُ الأسطر الغافية.

تركتَهم يغيبون، أبطالُ حكاياتك. ثمّ صرّفتَ كل الأسرار التى تمتلكها عنوةً، فى تعدُّد ضمائرَ انتحلْتَها لنفسكَ في غيابهم.. وما أسعفَتْكَ أرصدةُ التّحويل. كانت اللغةُ زادَك ومَزادك فى الاحتفال بأنْفَس كنوزهم. وما فازَت أسهمُك بغير أحرفٍ كثيرة للّوحات المنسية. كانت اللوحات تنتَصب منذ زمن، على جدران ذاكرةٍ تنتقى بعناية الألوانَ الملائمة لحزنِها».

رغبتُ أن ترصُف الفصولُ أوراقَها بغير عمَدِ الكاتب. لكن الرواية لا تمضى فى اتجاه واحد، والغموض يلفُّ السرائر. تشتهى النيران التى لقّحَتْها حروفى التهامَ كل الأسرار. لكن الاقتحام يبدو ممتنِعاً، والأدغال

ساحرة بالغبش يكسو ملامحها. الأوراق تتطاير فارّةً من مصير لا تريدُه أن يكون لأحلامها اليانعة. والعتمة تغافِل الشّرر الذى يُسرِفُ فى التغنِّى بوهجِه المنفلت.

الحُجرة لا تسَع كلّ زائرى الليل. وخيطُ النَّسْجِ لم تكن فتْلَتُه تحتملُ أكثر من وجعٍ واحد. يَقسِمُ الكاتبُ الهمومَ بالتساوى بين الأوراق، وينسى أنّ الأصوات تتفاوتُ أعرافُها فى قَدَر الحكاية.

ولم تكن قِسمته تبتلى غيرى بوافر أنصابِها.

كان لكلٍ مسارُه الذى يرتديه. ولم تكن المسارات التى ارتضوها لحكايتى، ما اشتهيْتُه فى مخبوء سريرتى.

مهدية تلك المُنْحَنية لمُراقصة الريح فى كل حنين عزفَه الخريفُ على ربيع زهورها، لم تكن متخاذلة. ولم يكن تغريدُها على إيقاع عويل الريح نواحَ كليم، بل كانت ذاتاً لم تُتقِن فى سنوات العمر المنصرمة غير رؤية الآخر. والآن تمعِن فى أن تكون لذاتِها "أنَا".. هى "أنا" تُفرِدُ لسكونِها بعض الريش الذى لم يفترِسْه البلَل، ولم تلتقِط تيْهَه العواصفُ السّاحقة.. وتحلِّق عالياً، بعيداً عن كلّ السجون التى كانت تمشى بين الحقول المزهرة على قدمين أو أكثر.

وعزيز ذلك الرّمادى الذى يمرُّ وسط الألوان الصارخة بجمرٍ كان له، ما زال يتوسَّدُ البياض خلف سواد ليلٍ ارتداه لزمن ممتد. ما زال يصالح الضعف بقوة يرتشفها على دفقات من ماء وزيت وأجسام صلبة. مازالت الزرقة رديفَ رؤاه، والحمرةُ بعض أمدائه للحياة، والصُّفرةُ أديمه يسْمَرُّ تحت عشقه للشمس. هى خلاصات روحه التى يسكبها بحذر ومتعة على بياض يشتهيه ليلاحقَه حتى يفنيه.

والكاتب ذلك الذى أفكارُه تبنى العالَم أو تعيد رسْم تُخومِه بما يرضى قراطيسَه وأقلامَه، لم يمُتْ ولن يموت فى يوم لا ليل يظلِّل أشعَّته. الكفَن وهو يلفُّ واهِيَ بدنه مآلُ حيٍّ يُرزَق فى بياض السّجايا وعطاء الأسطر ووعود السرد وأحلام الرواية. يكتُب من جديد.. يكتُب ويكتُب. طُروسُه لا تكلّ من نثرِ أحرفها طولاً وعرْضاً. ولا يطيبُ للحكايات أن تطوى نشْرَ الحبِّ بين الصدور، ليتماثَل الساردُ للصَّحو.

هُم هُم بما يملكون وبما يفتَقدون.

وأنا وحدى أظلِّلُ الحكاية بنُحولى الذى لا يُبيّن قدِّى ولا يفضح انتحالي. أفتقد سلاماً رجوتُه ليُنصِف الحكاية. وأستدلُّ على ما ملكتُه من زمامها بما أضعتُه كى أُنصِفَهم جميعاً دون أن أخونَ سردي. سعيتُ بين الفصول والأوراق أُلْمِمُ حُسن سيرتى وسوء سريرتي. وما أفلحت إرادتى أمام صمود يندسُّ بين الأسطر، ويخاتل كل الأشراك الكامنة. كنت أرفعُ همَّتى عالياً لكى لا ينكسِر فى جوفى ما استقام منذ بداية الحكي.. لكن ما تطويه الجوانح ينصُب للضمائر أقنعةً أرتديها كلّ حين على مقاس الصوت المنشود. وما كانت الأصوات فى تبايُنها تحكى صمتي، بل كانت تكيلُ له من خلف نبراتها الصّادحة مزيد صمت. لم ترغب فى الانزياح ولو قليلاً عمّا حكتْه بانفراد وهى توقِّع معزوفاتِها الخاصة. كانت كلّما أفسحتُ لها واجهة النص لتتصدّرَه من خلف صوتى تُربِك استعاراتي، وتُجاوزها إلى فصاحة تعزف عن الاستسلام، أو لا تعترف بكبوات الوجع. ويبقى الحُلم الوليد غَزْلاً لا يجاذب أطراف الزمن إلاّ بلفّات جديدة لا تكشف أصل عُقدتِها، ولا تبيحُ للسرد أن يشى بما ينقض منسوجَها.

يظل اختلاف الألوان أصل الحكاية، والحرف صنو الميلاد. النسيان لا تكتمل أطيافُه مهما وشّى الماضى ثيابَه القديمة بنثر الحنين. والذاكرة تجتَر المرّ بمذاق حلوٍ.. ولا يصفو العلقَمُ وإن كابَدَتْ لتغفرَ لنفسِها عجزها عن النسيان.

حين تمرّدتُ على وصاياه، حين انزحتُ عن ثلاثية الفصول التى شاءها لروايته الأخيرة، لم أخنْهُ.. لم أخذل رغبات رمقه الأخير.. ولم يكن فى مخبوء نواياى الطيبة أن أسطو على مجدٍ ليس لي.

كنت أكتُبه من جديد.. وأعيد كتابته وكتابة ما أراده لروايته الأثيرة. رغبت فى أن تكون إرادة السرد هى الأقوى. رغبت فى أن تتمادى الحكاية فى استدراك أوراقها والسرائر فى كشف خباياها. لكن أحلامى كانت شغباً لم تُبحْه رزانةُ شخصياتي.

من قال إن السّرد مجرد لعبةٍ فى يد طفلٍ كبُر والحكاية لا تفارق فمَه؟ من توهّم أنّ السارد كائن من ورق لا سلطة له على أرض السرد إلا بتفويض من خالِقه الرّوائي؟

أتدرون أنّه لم يعد بيننا ذلك الروائى المبجّل؟ لقد طوى كامل سيرته وكامن سريرته، ومضى نحو عالم آخر لا يمكن لأوراقى أن تلحقه، مهما ادّعيتُ اختراق الحجب السردية.

أتدرون أنّ صوته كان يتردّد فى صمتى عبر جوفى دون أن تبلِّغَكم الحكايةُ التباسَ القناع بأوهام الأوجه الخفيّة؟ أتدرون أنّنى أنا المتحكِّم فى هذه الأوراق التى تقرؤونها بارتياب مفرِط؟ أتدرون أننى أتقنتُ السرد ولحمتُ كلَّ المَفاصل حتى لتكاد تبدو صنيعة خالِق واحد؟

كنت أنا الرفيق القائد، وكان هو المبدع الحالم. وما كان للرواية أن تكتمِل لولا إصرارى على أن لا يستنفد الحكيُ احتمالاتِه الفاتنة، وأن لا يخاصِم السّردُ تمرُّد أبطالِه.

لعوالم الرواية أكثر من مرقى. وللدرك الأسفل رواسى يظل السارد حاملاً لثقلها بلا شكوى. وحين تعتمل فى دواخله نوازغُ مَلاك الإلهام، ترفض الرواية أن تخرّ أمامه بخشوع وتبتهِل رضاه. يظل ذلك الحالِم خالقَ كونى وكينونتى. وتظل صورتى مجرد طيفٍ يرتديه إذ يرتضيه، ويفارقُه إذ يغايِره. وللسرد دوماً أطيافه وصوره التى لا يسائلها الشوقُ حين تغيب، ولا يُثيبُها الاحتفاء حين تحضر.

وكم من خطايا تلحَق ذمم السارد، والأوزارُ من السرْد براء.

«قد يطوف سردك بأركان البيوت العتيقة، قد يتمسَّحُ بالحجارة البيضاء فيسْوَدّ صفاؤها من فرط ذنوبه، ويتعالى خارِج الحكى صدى لم يكن مقصوداً منذ البدء. لكن على البال تخطُر كلّ البدايات الفاتنة التي لم تطُل فتنَتُها أقاليمَ السّواد. وفى القلب تعتمل أفراحٌ لم يصن ودَّها تداول الساردين للحكاية. كانت الذوات تغازِل الموضوعات المبسوطة بكثير من المخاتلة، وإن شذَّبتَ أحرفَ الرواية كى لا تجنَحَ أسطرُها نحو انزياحات لم تبْتغِها بلاغتُك.

وتكتب فى الأخير..

تكتُب منذ البدء، وتواصل العناء بمزيد مكابرة وكثير من التّيْه. وأنت تكتبُ، تكتب وجودَك الذى لن يبحث عنه القارئ حين تغيب عند آخر صفحة.

أنتَ هنا. ولا حياة لك خارج هذا الفضاء.. خارج هذا السرد.. خارج هذه الرواية.

أتظن أنّه من حقّك الارتحال خارج قبضة هذا الكتاب، أو هذه الرواية، لتعمِّرَ روايات أخري لم يعد كاتبك قادراً علي ابتداعها؟

أتعتقد أنّ مبدعاً آخر سيحتضن خرسَك ويسكنُك فسيح أفكاره؟

نصٌّ لا يَكتُب غير حروف لن تُقرأ. بداية أخري لا تغترف من كل البدايات السابقة سوي مرايا الحُلم. وأنتَ عالق في الداخل، لا تريده أن ينتفض ليغلّق عليك أبوابَه. ولا تريد للسرد أن يبلغ منتهاه كي تظل حيّاً بصوتك وصمتك وصورتك.

راوغتَ الجميع حين جاهدتَ لكي لا تستقيم الرواية علي ثالثة الأثافى. كان إصرارك علي استحضارهم ثانيةً إلي محافلك احتفاء بحياتك أنتَ، وليس بحياتهم هم. وما راوغت في الحقيقة غير عقارب الزمن التى كانت تقترب شيئا فشيئاً من لسْعِ انتظارك.

الماضى حاضرٌ يتذكّر، يتأملُ أحداثِه التي يسحبها توّاً من خزانة المحفوظات.

والحاضر لا تريده أن يتحوّل سريعاً، إلي مجرد ماضٍ متصرِّفٍ فى صيغة المستقبل.

وزمنك أنتَ لا يتماثل إلى الخطوط المستقيمة.. لا يحتمِل يقظة الذاكرة أو إغفاءها.

هم حين يرفعون صوتهم الخالص يقولون بنبر واحد: عشنا سنين طويلة نداوى الجرح بالنسيان، ونغفر للقلب رقدةً أصابتْه في غفلة من طول الانتظار.. لكننا هنا باقون.. نحيا ونحيا ونحيا. العيش انشغال بسيط لا يشفع للأحلام المؤجّلة.. وفى الجعبة أحلامٌ ناضجة وأخرى لم ترسم بعد أفق التحليق.

وأنت السارد الذى يروِى لا يرتوى.. لم يرغبوا لإرادتك أن تكون الأقوى، فاستقويْتَ عند غيابهم.. استقويتَ بهم.. استقويتَ عليهم..

لم تترك النسيان يطرق أطيافهم وهى تشحب شيئاً فشيئاً.. واصلتَ التذكّر والتفكُّر بأصواتهم المشتهاة. وما كالَتْ لظنونك تلك الأصوات التى ارتدَيْتَ نبرَها غير خذلان جديد. بُخلهم ليس ما كنت تتوقع. لكنهم هم لم يتوقعوا كذلك أنّ الحكاية ستواصل أدوارهم دون حضورهم. أسلموا السرد ظهورَهم بأنفة ومضوا بعيداً، حيث لا تستطيع أنتَ المعتقَل في المكان، أسير الزمن أن تلاحق غيابهم. مُخطَّط الفصول الثلاثة لن يسمح لك بأن تكون فى كل الأمكنة التي تشتهي أن تكون فيها. ولن يكون لك بعد الفصل الثالث، بعد الفصل الأخير، أن تكون فى أى مكان.. صوتك وصمتك وصورتك واسمك ليسوا لك مثلما تطمع. لكنك واصلت الحكاية دون روح تسكن جسدك.. دون جسد يحمل روحك.. صوتٌ يطوف ويطوف بكل الأوراق، لكى لا ينحبس فى عمق الحكاية.. لكى لا يذوى فى المنعطف الأخير.. لكى لا تلغيه جرّة القلم الأخيرة».

مهما كان المدى فاتِحاً لشهية الحكي، فإن الحكاية لا تستوى ناضجةً لأن راحة السرد المنتصبَة تحمل كلّ الأثقال.. السارد هناك أوّل من يعْلم وآخر من يُذْكَر، منذور للجحود والنكران والإهمال. يتوارى لكى لا يطغى.. ويجاهد لكى لا يسطو.. ويتفانى لكى يروي.

ولا ترويه الرواية التى أحياها.

عزيز الذى أحمل اسمه ليس أنا.. لم أكُنْه.. ولم يعرفنى مثلما عرفتُه.. مثلما رسمتُه.. مثلما كتبتُه. كان يصر على الغموض الذى اختاره لإبداع ذاته. وكنت أطمح إلى أن يجلو الرماد عن كل جمراته الغافية. كنت أنحت بحرفه قصصاً لم يرغب فى سردها. وأكتب بألوانه سيرةً لم ينوِ بيانَها.

أقحَمه الكاتب فى عوالِمِى الممتدة، حين انتقى لى من كل الأسماء اسمَه. لم يكن ممتطِياً صهوة السرد حينها. لكن الكاتب فى غفلةٍ من ضميرٍ لم أملك الحديث باسمه، أورثَه الرواية والسرد. ولم يخصنى بوصية تحمى قليلاً من حقوقى السردية. لم أعرِفْنى حينها.. كان يتمى فادح الكُلفة. لم يعد لى نصيب فى الرواية التى أنجبتْني، ورمتْنى لقيطاً أجترُّ خساراتى بطَعْم الغياب.. لم أحظ حتى بثلث الوصية.

أَأُلام لأنّى نصَّبتُ نفسى متحدِّثاً بِاسم الحضور، حين أعلنوا هم جميعاً اكتفاءهم بما كان.. بما قيل.. بما حُكي، حين أعلنوا جميعاً انصرافهم عن ما قد يكون.. عن ما لم يُقَل.. عن ما لم يُحك؟

عزيز الآخر انفرد بفصله وخصّ مهدية بفصلها. وما كان لى أن أتابع الحدائق التى رويْتها بصمتٍ ترحل بعيداً عن الورود التى كنت أنتظر تبرعُمها. لم أسْطُ على حقٍّ لم يكن لى فى الأصل. الرواية ركحى الوحيد..

سبيلى فى حياة أكتفى بمعانقتِها عبر ملامحهم متوسِّماً أن تتمسَّكَ بى ولو احتمالاً لمعنى قد يختَرقُ رواية أخرى.

مهدية عشقتُ أسطورتها.. أحببت بدورى جنوح الحكاية أمام فتنتها، واستمالة السرد لكل انحناءات الأحرف كى ترتسِم لوحتُها. أثارتنى مثلما أثارت الجميع أمداءُ التأمل التى تحملها فى ذاتها عن ذاتها، وهى التى لم يكن لها أن ترَى العالَم يوماً إلا بمنظار الآخرين. اعتَنَقَتِ البحرَ وروداً سَحْلَبِيّة زرقاء، لترسُم لوحتها الجديدة. فأغْرَقَ عطرُ تحليقها كلَّ الرواية منذ الموجة الأولى.

وددتُ كثيراً لو لم يكن مثقالُ حضورى بمعيار غيابها لأفسحت لها كل الأوراق دون أبواب خشبية مغلقة أو نوافذ خضراء أو زرقاء ضيقة. لو كان بإمكانى أن أعيد السرد للكاتب وفق اشتهائه ذات ندمٍ ليرسم للبهية مساراً آخر لا يُدركُ الدم إليه سبيلاً، لانسحبتُ وتركتها إلـهةً للحكى نتعبَّد جميعاً فى محراب سردها.

الورقة السادسة

«أحياناً نحتاج أن نتذكَّر، كى ننسى.. نتذكَّر من هُمْ، لننسى ما فعلوا عن سذاجة أو غباء أو جهل.. لا يِهم.. قد يكون الحب فى قوة التحامه عمى طارئا لا يفقه ضعفه، لذلك نعجز عن أن نرى بوضوح في البداية، ونعجز لاحقاً عن أن نواجه. نقف بمحاذاة من نحب.. أو نقف خلفهم، لكى يظلوا كما هم، أو كما يعتقدون أنفسهم.. نقف إلي جوارهِم بصمت.. مثلما كنت أقف إلي جوارِهم بصمت لأنني اعتدتُ الصمت، ولأنهم آمنوا بأن لا صوت لِى. كنتُ قد أضعتُ سَكينَتي بما فيه الكفاية، وأضعتُ بعضَ الأحلام. فلم أخدش كَثيراً ذلك الجدار، الذى كانوا يشيِّدونه بِاسم نضجهم وقُصورى، كمالهم ونقصيِ، رشدهم وضلالى.. لم أحاول أن أسعى إلى تكدير صفو وهْم ذلك السلام، الذى يعقدونه بينهِم وبين نواياهم الطيبة دوماً، بمزيد من العطاء والوعظ. وتركتُ جسدى ينمو علي حواشي الغياب، ليرتديني الحزن من جديد. فلم يكن لي أن أكتب حكايتي بحروف جسدٍ حُرٍّ، لا يرون فيه غير الأذى والقذى وكل الآثام.

عارية من كلّ تجميل كانت المرِآة تهتف لي صباحاً، وقامتى تعلو لتلاحق بعض انعكاساتى على زَجاجها الذى امتد بدوره مع السنين، وكسا كلَّ عرى الجدار: لست أنت. فمن أنت؟ لمْ تكونى من قبل، فمتى ستكُونين؟ كيفَ تواَصلين دورَكِ بأمانة فى حياة لم تختارى فيها شيئاً؟

لم تعد الأسئلة رفيقة بضعفى أو بحيرتى. ولم أعد ممتنة لكثرة مصاحبتها لاختلافى عن محيطى. كانت تعمِّق إحساسي بعدم الانتماء. كنت أشعر بالوحدة والغربة وسط ضجيج إخوتى، وتضاعفت غربتى ووحدتى وأبو زكريا يستدرج خطوى الواهن بين مَجْلى المطبخ وسرير غرفة النوم.

الأعمار كانت دوماً جرعات متفاوتة القياس.. والمغايَرة لا مكيالَ لفورانها، أو لاضطرابها، أو لانطلاقها. وأقسي العذاب ما كان على بياض، لا يكشف حجمِ سواده، أو إمكانات امتداده واحتمالات دوامه. أصبحتَ المغايِرة مغامرةً موجِعة، لا تشفعُ كلُّ الحسابات لدرءِ خساراتها. ولم يكن لى عزاء فى ذلك الغد الذى انتظرته طويلاً، دون أن تلوح ملامحه.

وأكتشفُ ذات يومٍ، وقطارُ الحياة يمضي مُسرِعاً نحو محطات العُمر المَعروفة سلَفاً، أنَّ الأرض ليست صلبَة، وأنّ الخطوة ليست واثقة، وأنّ أسفار الحُلم جِنون منذ البداية.. اليوم يمضى، مثلما مضي الأمس. ستشرِقُ الشمسِ غداً ككلّ صباح. ستغمر السُّحبَ بالضياء. وتغفر للضباب حُلمَ الارتواءِ الذى نما أثناء الغفوة. ستأتى، لكنها لن تطرق باب بيتي المُقفل على وحدتي بالمفتاح الوحيد. كم كنت أتخيّل فى كل يومٍ، أنني أموت اختناقا أو احتراقاً في غفلة من الزمن وأنا لا أمتلك في جيبي مفتاحاً لذلك الباب، مثلما يمتلكه في جيبه.. ستشرِقُ الشمس غداً ككلّ صباح. ستأتى لكنها لن تطرق باب بيتى

المقفل على وحدتى بالمفتاح الوحيد. وسيعود إلى البيت ككل ليلة لِيتوسّد كلّ أوجاعى، ويحفر عميقاً فى جسدٍ لم يكن يوماً لى وحدى..

ولن يتلاشى السّواد من حولى».

كانت تضيق أمامها الرؤيا، ويغرقها المَنْعُ بين حُجُبه دون أن تيأس. كيف كانت تستقوى على الضعف الذى ينخر كل خليّة من خلايا جسدها الهش؟ كيف كان لها أن تقدح زناد ذهنها، وتصرف تفكيرها نحو كوّات أخرى لم يكن لهم أن يلتقطوا إشعاعها؟ كيف تمكّنتْ من مراوغة وصايتهم لتعود للحياة من جديد بإرادة وحرية؟

تلك الطفلة الصغيرة الضّاجة بالأسئلة فى عزلتها، تبحث لها عن منافذ لا يغطيها ظل شجرة التين الضخمة، هناك بعيداً عن الأعين المتلصِّصة.

تلك الصبية الجامحة بهدوء وتَروٍّ، تراوغ الصبح عن سواد لا ينزاح عن كاهله. وتشتهى للحياة ألواناً لا يفحِمُ فاقِعَ صُراخها الصمتُ المهذَّب الذى ترتديه بحيطةٍ ملابِسُها.

تلك الفتاة الفاتنة بحياء تَكيل لخطوات القلب كلَّ المحاذير، وتشذِّب جموحَ الجسد بكل الرّوابط. وتترك لانشغال الدروب باحتباس النظر كلَّ فسحات التأمل.

مهدية فى كل الفصول.. حياة لا تهدأ.. لا تستسلم للوجع.. لا تأنس إلى الدّمع.. لا تصالِحُ الألم.

هى مهدية تلك القارّة فى امرأة واحدة.. تغترف بسخاء من نبع روحها قطرات الصفاء، وتظلّ تروى الظمأ دون أن ينصرف عن الصّادين شغَف

الارتواء. في جعبتها المزيد والمزيد، تدّخره دون أن تمنَّ به على عشّاق الحكاية. لا تُسلِمُني سريرتَها خالصةً للسرد. تمعن في الارتياب من كل نواياي. وأُريد للحبل غير ذلك الفَتْل الذي تختاره في كل ورقة بوافر حرصٍ وفائض شك.. لا تكفّ عن ممانعة أهواء أحرفي.

أُفرِد لقلبها كلَّ الاطمئنان الذي أشتهيه، وتمطُلُني المُنى في كل مرَّة. لأتحمَّلَ وحدي مراوغات الحرف، وهو يترك بين زواياه احتمالات لحكي لم يتمكن من الصمود، من المواجهة، من التحرُّر. الرِّيحُ قطعاً ليست مُلامةً إنْ هي تركتِ البابَ المُقفل على حاله، وتسلَّلتْ من شقوق النوافذ. المُلامُ من أوثَق قَفْلَ الباب بفخر، وأوهم النّورَ بمُلاحقةِ شقوقِ العَتمة.

أأكون وحدي المُلام في كل زوايا هذه الرواية؟

«حين أغدقتُ بعض روحي على تلك الأسطر، لم يكن بخلاً ذلك الذي منعني من إغداق المزيد والمزيد، بل كانت ظلال الحكاية ماثلةً هناك أمامنا، تصرف النظر عن كل الضوء المشع الذي يتفتَّقُ ليغمرنا بأفراحه.

أكان يعتقد فعلاً ذلك السارد المشاغب أنّ الحكاية ستتسرَّب عن قلوبنا، دون أن تحتبس بعض آلام وآمالٍ لا نريد أن نعرّيها؟ أيظن حقّاً أنّنا قيدَ أفكاره، مجرّدُ أطياف يلهو بانعكاساتها وفق أهوائه؟

عندما أغلقتُ الباب بهدوء خلفي، لم تكن فرحتي تسعني. لم أكن أصدق ما أنا فيه. وما كان لي أن أتخيّل في أقصى أحلامي جموحاً، أنّني بعد أشهر معدودة سأكون بإسبانيا وإلى جواري عزيز يحتضن غربتي. لم أكن أغلق باب البيت

بكل ذلك الهدوء المتريّث تحسُّباً من غضبةٍ، قد تلقينى ثانية فى سجنِ أبى زكـريا. كنت أغلق باب حكاية أقـحـمنى فـيـهـا الصمتُ الذى اختـارنـى منذ طفولةٍ لم أختـر تفـاصيلهـا. كنت أغلق باب حكاية وجدت نفسى ألبسُها غـصباً، دون أن تكون علي مـقاسى. لم يتـملّكنى أى إحسـاس بالأسي أو الضـيـاع أو الغضب وأنا أوصد باب تلك الحكاية، بل كانت الصعقة تغسلنى بفائض الاندهاش. كانت غايتى أن أبتعد.. وأبتعد.. أن أحصّن نفـسى من أي وصـاية جـديدة قـد تمـيتُـنى، لكي أعـيش فى عُرفِهم، وفق تقـاليد القـبـيـلة والعشيرة والطاعة.. كنت أبتغى الحياة.. ولا أريد شيئاً آخر.

أخيراً أدركت أنّني لن أكتفي بالعيش بل يجب أن أحيا فعلاً، وإنْ كانوا يرون حياتى حـسب منظورهم غنيـمةً لا أستـحق أن أحياها، إلا وفق ما يحدِّدون لغدى من مصير.

وأنا أبتـعـد عن كل مـسالك تلك الحكاية، لم أكن أتوقّع أن تكون تودُّد الجـمـيـلة تستـعـجلنى من داخل نـسغ الدمـاء الذي يروينا مـعـاً.. كـانت تستـعـجلنى لكى تـشقَّ صرخـتُـهـا الأولى الوجود بعيداً عنهم جميعاً، دون رادعٍ يكمِّم فمها أو جسدها أو روحها.. لم أكن أتخيَّل أنها تدفعنا بقوة إلى السفر بعيداً لتختار أباها من جـديد.. لم أكن أعـرف أنـهـا هناك، تبـزُغ فى ذلك الداخل.. داخلي الفارغ.. ستشحننىِ بالحياة وستغذّيني بالأمل.

حين كـانت البـاخرة تقطع بنا المَعبر وتنقلنا إلى تلك الضفة التى لن يبلغوها بحثاً عنى، لم أكن أدرك ما يحمِله لى داخلى

المُظلم، ولم أكن أدرك ما سيحمله لى ذلك الخارج الوضّاء الذى أَقبل نحوه.. لم تكن خطواتى توقِع أصداء انفلاتى، بل كنت أردِّد لزرقة الماء البهيّة دون وعى، وهي تغمر لحظي لأوَّل مرَّةٍ بكل ذلك الامتداد، اشتهائى الحياة».

....

....

«مثل حلقة الرّسامين الواسعة تحيط بصحن الفاكهة الواحد، أو بالجسد العاري بفصاحة مفحمة.. الموضوعُ في المنتصف على المائدة الصغيرة أو علي الكرسى المخملى واختبار الرسم جاهز للبدء، والفواكه المختلفة تزهو بألوانها المتباينة نضجاً واستدارةً وغوايةً.. مثل حلقة الرّسامين الواسعة كُنّا نحيط بالحكاية ذاتها، فى حلقة موسَّعة. كلٌّ يحمل أوراقه ويرتب منظوره. ويستجدي زاويةَ رؤيته أفضلَ الاحتمالات. لم يكن للأشكال المدلول ذاته، ولم يعد للأحجام الوقعُ نفسه. الضوء والظل يراوغان كل النوايا.. والحلقة لا تكفُّ عن ابتداع ضياعها بين الإمكانات المستحيلة بكل الألوان.

كانت كل الخُطَى نمْشيها فى اتجاه ذلك المنتصَف، تُعيدُ دون أنْ نَدْرَى رَسْمَ ملامحِنا، وفق أهواء لم تكن لنا ولم نشتهِها يوماً. السارد لا يمتنِع عن التدخُّل والتدخُّل.. لا يتوانى عن السرد والكتابة بنَفَس مخاتل فى كل مرّة.. كم من خيانةٍ يجدُرُ بنا أنْ نقترِفها بأمانة تامّة فى حق الحكاية، لكى نكُونَ فعلاً صادقِين؟

لا يملك الحرف غير أن ينكأ الجراح، ويستعيد للماضى بريقاً لم يعد له. سنقف جميعاً على محيط الحلقة، نرسم بخشوع انعكاسات الأشياء والأشكال والألوان.. نعيد للجسد العارى قُدسية الروح التي أغفلها موسمُ العَرْض. ونمنح للفواكه طعماً ورائحة لا تخطِئها الألوان المشتهاة.. ونتذكّر كيف كانت الذاكرة اليقظة في ذلك الماضى، تمتنع عن مراودة الأحلام بكثير من الآمال، كى لا تأنس الأوجاع إلى النّحيب.. كى لا يقتلنا الصمت حين تذوى الشعلة الفتية أمام الريح اللعوب.

ألا يعلَم ذلك السارد بحرفٍ لا يُخلِف موعِد الأقنعة العديدة التى يختارها ببراعة للصوت الواحد، أنّ الحدث حين ينفلت من جُعبة الأيام، قد تحتاج الحقيقةُ كى تكونَ موضوعيةً إلي مبضع مؤرخ نزيه وعدسة موثّق، لأنّ كلُّ الرّواياتِ حينها ممكنة.. صحيحة؟.. ألا يعلم أنّه حينَ يتورَّمُ الوجَعُ، سيسبِق البحثُ عن التفاصيل الصغيرة كلَّ الاحتمالات لملء الذاكرِة بنحيبِ النَّدم؟

فعندما تغدو الخطوة نحو الأمام محنةً عسيرة، لابدَّ من التوقُّف لالتقاط بعض أصداء التيه. التراجُعُ نحو الخلف تَيْهٌ آخَر لا تُجدي معه كلُّ المصابيح المتوهّجة والمتواطئِة مع خيوطِ العتَمَة.

قد يكون الضُّعف أمام الحياة دعاءَ حاجَةٍ إلي إلهٍ هو القوى، لكن الضعف بدوره أصل الماء المَهين» ..

....

....

«تكْتُبُنى من جديد، على مرآة حروفكَ النديَّة. لُعبة بعد لُعبة، طُفُولةٌ مُمتدَّة. لم أعد ضعيفَة.. لكن الطفلة في عمقى مازالت تحلُم.. مازالت تخفي بين ثناياها استعاراتٍ ولُود، لم تبلغها القصائد العاشقة.. فمتى يكبُر الحُلْمُ لامتلاك كلِّ الأزياء المُستعارة؟

• أضعتُ بعد الحكاية صوابى وبعضَ الخيبات. وأريد ألاّ تضيِّعنى ثانيةً سرابات المستقبل، تلوح ريَّانة تغري الظمأ ببعض البلل اللّماع. لا متاهة ستسرقني من نفسى، من يومى، من آنى.. لا أفراح مؤجَّلة.. لا مسرّات مرتقَبة.. لا أهواء مخذولة.

اللّحظة لى.. غنيمتى فى معركة لم أختر أن أخوضها.. مجازى فى حقيقة لم أختر أن أنزاح عن واقعها كثيراً. هى لى الآن.. فعلاً لى..

.. كم كان يلزمنا من لحظة في ذلك الماضى، لنختلس من الزمن الهارب لحظةً صغيرة واحدة؟.. هل كان لنا أن نحياها مرّات عدة؟

من يعفينا الآن، من منزلقات الغواية التى تفتحها أمامنا دهشة المرّة الأولى؟

كـيف نحـصّن تلك المرّة الأولي من اندفـاع أهوج نحـو المنعطفات، يـنسينا اللحظة الموكولة للفرح الآنى.. ويخطف منّا وعودَنا لأنفسنا ذات فرح؟!

أتدرى؛ للحب حين يجرفنا نحو أقاصى الاحتراق، نكهةُ النقصان الدائم.. أدركُ نقصانى حين أكتملُكَ، وأدركُ اكتمالى بكَ حين تنقصنى.. فحين تحبّ، أنتَ لا تحبُّ، أنتَ تكتفى بمنحِ ذاتكَ لها، لتكتَمِل بك ولتحيا بحياتها. تغدو المسافاتُ التي تفصلنا وهى تنطوى بين التيه واللهفة، حرائق لم تلْتَقِطها صقّاراتُ الإنذار.

للشوق دوماً تتّقد المشاعر، ويخبو الدفء حين يخبِّئه البُعد بين أعطافه.

قبل هذه الآن التى تغمرنى بفيضها المعطاء، كانت المرايا تنتفضُ أمام الحُلم. كانت البتلات الغافية تخجل.. وعلى حواشى الشُّوك كانتْ الفراشاتُ تبتَهِلُ. كانت البَتْلات توارب حنينها لنقرِ المطر.. كان يرجوها حسنَ الاحتضان ولم تكن تملك من شجنها، طاقة لفتح أوراقها الهشة لاحتوائه.

تكتُبُنى من جديد تلك الأنا، والإبداع يميل بها بعيداً عن متناوَل الذات.

هل أمتلِكُنى عندما يحرِّرنى الجسَدُ الكاتبُ أيا كان ضميره أو قناعه، ومهما كان صوته أو سردُه، مِن أوزار ذلك الماضى الذى اقترفناه بحسن نيّة؟

أتعـودُ إلىَّ ذاتي حين تُرخي للكلمـة زِمـامَ الحكى، وتتـرُك اللحظة أسيرةَ البياض الآسر؟

أترسُـمُنى تلك الذاتُ مـثلمـا كنتُ قـبل أن يحـمِلنى فَـيضُ الحرِوف وتعانق الأسطرُ روحى المحلّقة؟

مَن تلك الأَنـا التى تتـحدث باسمـهـا حروفٌ تعيـد المحـو، بإصرارٍ فى كل مرَّة مثلما تعيد الخط؟».

....

....

«ينتحلِ شخصيتك. يسكن بين كلماتك وأحرفك. يقلِّب بينِ قَـديمـك وجـديـدك. ينـشر بعض ذلك القـديم، ويحـيِّـن صُورِه وألـوانه وأطيافه.. يكتب فى ضوء الآخر أوراقاً تشبِهه. ذاكِ الذى يسكن ذاكرتَك، يشبِه صوتك كثيراً. ذلك الذى يرتدى اسمَك يتشبَّه بحياتك.. فهو يحاول بجدٍّ عابث أن يكونَ أنتَ، لكنهِ مـراوِغٌ ككل الرُّوَّاة يسطو على مـجـد الآخـرين ليـبْني قصوره الباذخة.

من فـصْلٍ كـتـبْتَـه ولاءً لماضي كنتَ فـيـه وكنتَ منـه وكنت معه، صاغَ للمعنىِ روحاً أفرغَها على أوراقه المتكاثرة بإسهاب السرد. يلمِّع صورتها على حساب أفكارك وأحلامك ورؤاك. كم من قـارئٍ أغـواه، وهو يوهمـه عـبـر الحـروف التى يخطُّهـا واللوحات التى يرمِّمها والأحدَاث التىِ يواكبها، بأنه أنتَ.

كم من سحرٍ والرواية لم تعد لكَ.. انصرفتَ عن أوجـاعهـا التـى أرهقـتْكَ، لكن دون جـدوى. أصـبـحت كلُّ المواثيق قـيـد تصريفاته، هو ذلك السارد بحرفـه دون روحه.

لن يُرفرِفَ المنديلُ وهو يحلّقُ عالياً مهما تلاعَبَتْ به أوهام الفراشة. فَلا صوتَ سيزحزِحُ الصمتَ المُطبِق الذي سكَن ذاكرة تاريخٍ، تتَناسَى ما كان فى ذلك الخميس القريب البعيد، كى تحيا.. ولا أُلْـفة تمسِّدُ أوصالَ البَيْن التي ألتقطها من هناك.. من وطني القـريب البـعـيد.. من مـدينتى التى لا تتـغـيَّـر في ذاكرتى.

لنا الغد يحمى صورنا وأصواتنا وتواريخَنا. أمـا الحـاضـر فنرتَشفه حتى الثمالة، وننثر الفائضَ للرياح عساها أن تشفق على البَقايا وتجعل الهباب بذورَ لقاحٍ لفجر قادم سيأتى.

لكن من يقنِعُ ذلك المبصِـرَ الذي يلاحق ظلِّـي ويسطو على سيرتى فى كل الأوراق الممتدة على جسد هذه الرواية، دونَ أن يدرِكَ ضعـف قوّتى، من يُقنعُه بأنّ الأعمى ليس من فتحت له زجاجَ النّافذة حيث تقِف بثَباتٍ قدماكَ، فاختـار أن يخطو بمفرده نحو الباب».

....

....

أعلَمُ بأننى أخطو نحـو البـاب أخـيـراً، مـثلمـا يقـول عـزيز، رغم تعلُّقى الشـديد بالنوافـذ المُشْـرفـة على الواقـع من علٍ.. أعـلمُ أنّه لـم يعُـد بإمكانى مماطلة المنتهى، مثلما حرصتُ على ذلك فى كل منعطفات الرواية.. لم يعُد لى أن أقولَ أكثر مما قلتُه بألسنتهم وصورهم وأطياف أزمنتهم.

أفـتقِـدُ المعنى.. تسـتـوى كل الأشـيـاء أمـام ضـمـائرى السّـافِرة، وتغـدو الأشكال سطحـاً لا غور له يحمى هواجس الارتفاع من مشاق الانحدار. لا

أحـلام جـديدة تنتـصب للغـافى من أوراقي. لا ألغـاز تعـقـدهـا السّـرائر وهى تُوارى ابتسامات الشفاه وحسرات الصّدور. قد نَصَبَت الرواية لنواياى كلَّ العَتبات. لا حياة أرجوها بعد آخر سطر.. بعد آخر كلمة.. بعد آخر حـرف.. حين سـتـغلِق يـدان لا أعـرفـهـمـا، عليّ دفّتـى الرواية.. حـينهـا سـتـحـتـبِس أنفاسي، ويطوينى الغياب.

الآخـرون، أولئك الآخـرون قد مضوا منذ زمـن، لكنهم باقـون.. خـالـدون.. وحدى حين سـأمضـى لن يبقى منى أثر. لن يكون لقبـرى شـاهدٌ يوقِّعُ عليه البيـاضُ، بعـد الرحـيل ببعض الأحـرف. الصـمتُ سـيـغلِّفُ عـبورى بينهم، وستظل الصـفحـاتُ تذكرهم هُم، أولائك الذين صنَـعْـتُـهم بأحرفي.. أنا سـأمرُّ دون أن يثير وجودى الأعمى أيَّ اكتراث.. لن يهتموا لميلادى أو وفـاتي. لن تشـفَـع لأصـواتى الأبوابُ الكثـيـرة التى طرقَـتْـهـا الرواية، كى لا ينفـدَ منّى سَيْلُ السـرد. لن يبـصـروني.. أنا الرّائي.. أنا الرّاوى .. أنا الإنسـان.. أنا البصير بكل دواخلِهم الخفيَّة.. سَرَدْتُ الرواية كى أراها من جديد بعيـنَيْه.. كى أحبَّها بقلَمـه هو، ذلك الكاتب الذى أغوتْه حكايتُها وهـو يراها لوحةً فوق حامِل مَرسَمِه. سَرَدْتُ الرواية كى أجدها بين صـور أرسُمها لمدينتـها ولمنزلها القديم ولشـجرة التين الضـخـمـة التى لم تعد هـنـاك.. لمْ يعد لـها وجـود إلا فى ذاكرتِـها وسطوة حـرفى.. سَرَدْتُ الرواية كى أجمع وصـالهم مرَّة ثانيـة هم الأحياء والأموات، برباطِ حـاضر أحكيه وماضٍ أستحضرُه ومستقبلٍ لا أملك ادعاءَ اختراقه، أنا الحَـكَّـاءُ الـورقى، أنا الكائن الرِّوائي..

أود بنزق مجنون أن أواصل الكتابة.. أن أضـع للرواية فصـلاً خامساً غير متـوقَّع.. سـأخلُق شـخـصـية جديدة تقف بمفردها على الأنقـاض المتـهاوية.

تحاول تجميع القطع المتناهية فى الصغر.. تسعى إلى تفسير الانفجار الذى هشَّم كل ما شيَّدته عوالِم الرواية.. ليست مهدية وليست عزيز وليست عمران.. وليست أنا السارد الإنسان. هى شخصية مارغريتا فرانسيسكو غوميس، أستاذة جامعية إسبانية فى أوائل عقدها السادس تدرِّس بجامعة أُتُونُومَا بمدريد.. مختصة فى الاستعراب والدراسات الثقافية، وعضو فى الأكاديمية الملكية الإسبانية. وضعتِ الهيئة القضائية مخطوطة الرواية بين يدى خبرتها بموجب بحث جنائى استخباراتى. ستكتب الفصل الخامس، أو ستحرِّر تقاريرها وتسجل يوميات انطباعاتها وملاحظاتها.. دون تدخُّلى.. دون لغتى .. دون صوتي.. سأخلى لها مقاليد السرد حبّاً وطواعية، وأتركها على وقع التقرير تختار للرواية مهوى الآمال ومنتهى الأوهام..

ستكتب بموضوعية.. بحياد.. بنبرة استعلاء معرفى تغصُّ بجفائه الكلمات.. ستكتب من موقع لم يكن لنا جميعا داخل هذه الرواية ونحن ندَّعى تداول الحكى، ونحن نلهو على مقاس الأحلام بالمرايا والحروف والزوايا والأصوات.. ستكتب ذلك الفصل الذى لا يمكننى أن أكتبه.. ستكتب فصل ما بعد الانهيار.. ما بعد الغزو.. ما بعد الموت .. ستكتب عن ما بعد القتل..

من سيموت؟ ومن سيقتل من؟

تلك روايات أخرى..

لا تعتقدوا لفرط بهاء الأوراق وسحر الفصول أنَّنى مغرقٌ فى الاستكانة الأنيقة.. فى واقِع السرد لم يخطر الموت البشع على ذاكرة أناملى لأنها لم تعتد غير الجمال والغواية.. لكن فى الوسع نهاياتٍ أخرى لا تدَّخِر لعُمر السرد كلَّ الفرح..

تنتابنى الرغبة فى أن أضع للرواية فصلا آخر.. هو فصل مُشتهى، يغتسل بالحمرة القانية.. تسيح بين كل أوراقه وتفيض على باقى الفصول..

الخبيرة الأكاديمية ستكتب عن المتاهة الشائكة التى ورَّطتها فيها الأوراق، فقراءة واحدة لا تكفى لإنجاز التقرير المطلوب باستعجال. والأوراق ليست يوميات خاصة أو مذكرات أو سيرة ذاتية. إنها رواية أو تخييل ذاتى يتمازج فيه التأريخ بالتخييل. بعض أحداثها قد وقع بالفعل، وقد دوِّن فى السجلات الرسمية. لكن لا يمكن تمييز الحقائق التاريخية عن الإضافات المتخيلة.

ستكتب أن الرواية يحكيها ساردون متعددون، وكل منهم يمكنه أن يكون كاتبها. ولذلك يصعُب مرحلياً تحديد كاتب الأوراق، فالروّاة المتعددون يتواطؤون على أن تظل الحكايات غير تامة، فيصوغون الحدث الواحد من منظورات مختلفة. وسيكون سابقا لأوانه السعى إلى الإجابة على سؤال: هل نُشرت الرواية وتمَّ تداولها وقراءتها، أم ظلّت حبيسة الأوراق المخطوطة؟

ستكتب عن مفارقةِ الحقائق الجنائية لما ترويه الأوراق.. فالرواية لا تحكى عن أسرة من أصول مغربية مثيرة للشبهات. ولا تشير إلى الحوادث المتكرِّرة والغريبة التى لاحقت سجل إقامة الأسرة بمدريد. ولا تحكى عن منزل بمدريد أو عن زيارات متواترة لكل من المغرب والولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا وإنجلترا. والرواية لا تحكى عن طفل ذكر فى عمر الثالثة يعانى التوحّد أو أى وضعيات أخرى..

الخبيرة لن تفسِّر أو تنظِّر لكنها ستقابل بين ما وضعته أمامها السجلات القانونية من وثائق تكشف واقع سيرة الأسرة ومقامها بإسبانيا، وبين ما تسرده الأوراق عن شخصيات الأوراق وحكاياتهم المتداخلة..

الخبيرة ستغرق فى تسجيلات المكالمات المحلية والدولية.. ستضيع بين الرسائل الورقية والإليكترونية وعلب البريد المتناثرة.. ستتوه بين التقارير

الاستخباراتية حول حياة الأسرة بمدريد، وحول سيرة أصولها وأقاربها بالمغرب..

ستكتب الخبيرة عن عدم مطابقة حكايات الرواية للواقع الذى تصفه التقارير الجنائية.. ستثير التساؤل عن مكان الفتاة "تودد" التى كانت سنة ٢٠٠٧ فى عمر الخامسة، ويفترض حاليا أن تكون قد بلغت عشر سنوات. وستعتمد بعض القرائن لتزكية فرضية أن يكون اختفاء الفتاة هو أصل كل الجرائم البشعة التى وقعت للأسرة المغربية بمدريد.

لن يكون بإمكان الأستاذة مارغريتا الجزم بشيء أو الوصول إلى يقين ما.. ستكتفى بعقد المقارنات والموازنات وترفع تقاريرها.. وفى عمق التقابلات تتسع لعبة المرايا ويشيع الأحمرُ أكثر من اللازم.. ستظل الأستاذة مسكونةً بتلك الحكايات التى لم تجد لها فى رصيد خبرتها حلّا. وسأظل أرقب بمتعةٍ ضياعَ مارغريتا الذى صنعتُه لها باختيار نزِق.. أنا من وضعها فى آخر الرواية لتنسج لخاتمتها ذلك الأحمر القاني.. ورغم أن اللون قد تاخم فصول الرواية فى بعض الأوراق الآثمة.. لكنه لم يكن لوناً لرواية مهدية المشتهاة..

وتعترينى - بصدقٍ لا علاقة له بغواية السرد - الرغبةُ الجامحة فى ملاحقة ذلك الاختيار إلى منتهاه.. لكننى فى أعماق نوايا السرد الطيبة بلؤم لا تداريه، لا أريد أن أصدِّق تلك النهاية.. لا أريد أن أصالح ذلك الاختيار.. لا أريد للرواية التى ستُخلِّدني، أن تغمس أوراقها فى نقيع الدم.. أريد لهذه الرواية أن تعْبُر بى إلى فضاءات روايات أخرى تميِّزنى أنا السارد الإنسان الذى لا يكتفى بوجوده الورقى الواحد، ويطمع إلى أن يكتَسِح كينونات مختلفة.

ألّفتُ الرواية كى أجدَ تِطْوان مدينتى البهية التى سكَنْتُها وسكَنَتْنى فى أعوام من الذاكرة.. من سيرة الورق. ألّفتُ الرواية كى تناضل من أجل مجدها ومجدى، حين تقرؤنى أكتبها بحرفٍ متجددٍ مرّةً بعد مرّة وورقةً إثر الورقة. ألّفتُ الرواية كى تجِدَنى مدينتى التى لم أشارِكْها بيانَ حرفى هذا.. مدينتى تلك البهية التى فارَقتُها مُرْغَماً، وأنا أنتحلُ صوته وحكايته وذاكرته وسيرته.. وليس لى فى آخر المطاف أن أنسف ما ناضلتُ لبنائه بقوة الحُلم وسلطة الحكى وسطوة التسريد..

أنا أعرف أننى فى الأخير سأظل هنا، بينما تذهبون جميعُكم بعيداً..

وأعلم أنّنى حبيس هذه الأوراق التى فتنتْني، وما امتلكت الجرأة لغمرِ أوراقها بحُرمة الدم.. الذى يستبيحه غيرى بجرّة قلم أو نقرة أصبع أو طرفة عين أو نزغة هوى..

أنا أدرك أنّ الرواية أرفع من الواقع وما وقع، وأسمى من سارد وما انتوى..

وأنا السارد أكفيكُم شرّ أهوائى ونوازغي.. أنا السارد الإنسان سأكفيكُم مطامحى ورغباتي.. سأترك فى جعبتى السردية شخصية مارغريتا فرانسيسكو غوميس بعيدة عن أى خيالات.. وأحفظ لروايتى سيرة عشقى صافية نقيّة.

أنا الساردُ الذى اختار لى الكاتب من الأسماء اسمَ صديقه الرسام عزيز، سأعيش تعاستى بسعادة دون الحاجة إلى نفاق الآخرين أو مداهنتهم..

أنا الحَكّاءُ الورقي.. أنا الكائن الرِّوائي.. أنا السارد سأمضي، لأخلى لحيواتكم سبلها.

لكن على مَهلِكَ أيها الزمن.. ترأف بحشرجاتى الأخيرة.

الصَّوْتُ بَعْدُ فى الحواشى يغازِلُ وطأةَ الصمْت، والمتنُ - بعيدًا - سيشرُدُ به التَّيْهُ والسَّطْوةُ.. من يَظنُّ أنَّ السّيلَ سيسكُنُ الأعَالى؟

لن يكونَ لَكَ ما أردتَ.

حاولِ أن تُريدَ ما سيكُون.

سعيدة تاقي



روائية وناقدة من المغرب
أستاذة بالمدرسة العليا للأساتذة التابعة لجامعة الحسن الثاني بمدينة الدار البيضاء.
حاصلة على:
- شهادة التبريز في اللغة العربية / المدرسة العليا للأساتذة ـ جامعة محمد الخامس بالرباط.
- شهادة الماستر في الأدب العام والنقد المقارن / كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.
- شهادة الدراسات المعمقة في الأدب الحديث/ جامعة عبد المالك السعدي بتطوان.
- شهادة الأهلية التربوية للتدريس/ المدرسة العليا للأساتذة بتطوان.

الإصدارات:
"إيلاف (هم)" (رواية)، دار النايا للدراسات والنشر سوريا ٢٠١٤ .
"تحولات الرواية بين بنى التحديث وأنساق التراث" (نقد)، دار النايا للدراسات والنشر سوريا ٢٠١٤ .
مقالات في النقد و الأدب المقارن وترجمات في صحف ومجلات ورقية وإليكترونية.
دراسات وأعمال إبداعية قيد الطبع.

الجوائز:
- جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي عن فرع النقد (الجائزة الثالثة) سنة ٢٠١٣ .
- درع المثقف للثقافة والفن والأدب لـ مؤسسة "المثقف"(سيدني/ أستراليا) سنة ٢٠١٤ .

سلسلة روايات الهلال تقدم:

سكر مر

محمود عوض عبد العال

تصدر: ١٥ يونيو ٢٠١٥

هذه الرواية

تحكي هذه الرواية تحولات في مسار البطلة "مهدية" طيلة أربعين سنة. انتقلت فيها من وصاية الأب إلى وصاية الإخوة الذكور، فوصاية الزوج ذي الميول المتشددة، إلى أن قررت أخذ زمام أمرها والإنصات لنداء الروح في رحلة نحو إسبانيا، حيث يعيش "عزيز" المُعارض المنفي المكتوي بنار الغربة وفشل الخيار اليساري وضياع بوصلة الوجود..

خلف هذه النواة الحكائية تجلّي الرواية متغيرات الواقع الاجتماعي والفكري لمدينة "تطوان" ذات الأصول الأندلسية الموريسكية، من سبعينات القرن الماضي إلى العشرية الأولى من القرن الحالي.. المدينة التي احتضنت التعدد الإثني والحضاري واللغوي والعمراني في صيغة متسامحة حدَّ استيعاب الإسبان الذين استقروا بها بعد انحسار الاستعمار الأجنبي، والمدينة التي لم تَسلْم في واقعها الراهن من نزعات الإقصاء والتعصب والعنف.

هذه الرواية استثمرت تقنيات في السرد تعتمد التشذير والتقطيع وتعدد الرواة، بل تداخُلَهم، مما يجعل القارئ يبحث أحياناً عن الصوت الذي يحكي في هذا المقطع أو ذاك، في ظل تعدد الفضاءات (تطوان - أصيلة - الرباط - إشبيلية - مدريد...)، وتعدد الموضوعات (الحب - النضال - الآخر - التطرف...).



المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10، 16 ش كامل صدقي الفجالة،

4 ش الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة - ت: 22586197 - 24677371 - 24677138

فاكس - 202/24677188 ج.م.ع. 4 ش بدوي محرم بك - الإسكندرية ت: 03/4970840 - 03/4970850